

الرواية الفائزة بجائزة نجيب محفوظ للإبداع الأدبي ١٩٩٨

ذاكرة الحسد

أحمد مصطفى

رواية



أَحْلَامُ مُسْتَفَانِيٍّ

قَلْبُ الْعُرَّةِ الْجَسَدِ

رَوَايَةٌ

دار الآداب
بيروت

فَالْأَمْرُ بِالْجَسَدِ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة عشرة
٢٠٠٠

خطوط الفيلاف للفنان محمد سعيد الصكار

إهداء

إلى مالك حدّاد .
ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استئلال الجزائر ألا يكتب بلغة
ليست لغته .

فاغتالته الصفحة البيضاء . ومات متأثراً بسلطان صمته ليصبح
شهيد اللّغة العربيّة، وأوّل كاتب قرّر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً
لها.

وللى أبي .
عساه يجد «هناك» من يتقن العربيّة، فيقرأ له أخيراً هذا
الكتاب . . كتابه.

أحمد

الفصل الأول

ما زلت أذكر قولك ذات يوم :
«الحب هو ما حدث بيننا . والأدب هو كل ما لم يحدث» .
يمكنني اليوم ، بعد ما انتهى كل شيء أن أقول :
هنيئاً للأدب على فجيعتنا إذن فما أكبر مساحة ما لم يحدث . إنها
تصلح اليوم لأكثر من كتاب .
وهنيئاً للحب أيضاً . .
فما أجمل الذي حدث بيننا . . ما أجمل الذي لم يحدث . . ما أجمل
الذي لن يحدث .
قبل اليوم ، كنت أعتقد أننا لا يمكن أن نكتب عن حياتنا إلا
عندما نشفى منها .
عندما يمكن أن نلمس جراحنا القديمة بقلم ، دون أن نتألم مرة
أخرى .
عندما نقدر على النظر خلفنا دون حنين ، دون جنون ، ودون حقد
أيضاً .
أيمكن هذا حقاً ؟
نحن لا نشفى من ذاكرتنا .
ولهذا نحن نكتب ، ولهذا نحن نرسم ، ولهذا يموت بعضنا
أيضاً .

- أتريد قهوة ؟

يأتي صوت عتيقة غائبا، وكأنه يطرح السؤال على شخص غيري .
معتذراً دون اعتذار، على وجه للحزن لم أخلعه منذ أيام .

يخذلني صوتي فجأة . .

أجيب بإشارة من رأسي فقط .

فتسحب لتعود بعد لحظات، بصينية قهوة نحاسية كبيرة عليها
إبريق، وفناجين، وسكرية، ومرش ماء الزهر، وصحن للحلويات .

في مدن أخرى تقدّم القهوة جاهزة في فنجان، وضعت جواره
مسبقاً ملعقة وقطعة سكر .

ولكن قسطنطينة مدينة تكره الإيجاز في كل شيء .

إنها تفرد ما عندها دائماً . تماماً كما تلبس كل ما تملك . وتقول كل
ما تعرف .

ولهذا كان حتى الحزن وليمة في هذه المدينة .

أجمع الأوراق المبعثرة أمامي، لأترك مكاناً لفنجان القهوة وكأنني
أفسح مكاناً لك .

بعضها مسودات قديمة، وأخرى أوراق بيضاء تنتظر منذ أيام
بعض الكلمات فقط . . كي تدبّ فيها الحياة، وتتحول من ورق إلى
أيام .

كلمات فقط، أجتاز بها الصمت إلى الكلام، والذاكرة إلى
النسيان، ولكن . .

تركت السكر جانباً، وارشففت قهوتي مرة كما عودني حبك .

فكرت في غرابة هذا الطعم العذب للقهوة المرة . ولحظتها فقط،

شعرت أنني قادر على الكتابة عنك فأشعلت سيجارة عصبية، ورحلت
أطارد دخان الكلمات التي أحرقته منذ سنوات، دون أن أظن
حرائقها مرة فوق صفحة.

هل الورق مطفأة للذاكرة؟

نترك فوقه كل مرة رماد سيجارة الحنين الأخيرة، وبقايا الحية
الأخيرة..

من منا يظن أو يشعل الآخر؟

لا أدري.. فقبلك لم أكتب شيئاً يستحق الذكر.. معك فقط
سأبدأ الكتابة.

ولا بد أن أعتز أخيراً على الكلمات التي سأكتب بها، فمن حقّي
أن أختار اليوم كيف أنكتب. أنا الذي لم أختَر تلك القصة.

قصة كان يمكن ألا تكون قصتي، لو لم يضعك القدر كل مرة
مصادفة، عند منعطفات فصولها.
من أين جاء هذا الارتباك؟

وكيف تطابقت مساحة الأوراق البيضاء المستطيلة، بتلك المساحة
الشاسعة البياض للوحات لم ترسم بعد.. وما زالت مسندة على جدار
مرسم كان مرسمي؟

وكيف غادرتني الحروف كما غادرتني قبلها الألوان. وتحول العالم
إلى جهاز تلفزيون عتيق، يبت الصور بالأسود والأبيض فقط؟

ويعرض شريطاً قديماً للذاكرة، كما تعرض أفلام السينما الصامتة.

كنت أحسدهم دائماً، أولئك الرسامين الذين كانوا يتقلون بين

الرسم والكتابة دون جهد، وكأنهم يتقلون من غرفة إلى أخرى داخلهم. كأنهم يتقلون بين امرأتين دون كلفة. .

كان لا بدّ ألا أكون رجلاً لامرأة واحدة!

ها هوذا القلم إذن. . الأكثر بوحاً والأكثر جرحاً.

ها هوذا الذي لا يتقن المراوغة، ولا يعرف كيف توضع الظلال على الأشياء. ولا كيف ترشّ الألوان على الجرح المعروض للفرجة.

وها هي الكلمات التي حرمت منها، عارية كما أردتها، موجعة كما أردتها. فلم رعدة الخوف تشلّ يدي، وتمنعني من الكتابة؟

تراني أعني في هذه اللحظة فقط، أنني استبدلت بفرشاتي سكيناً. وأن الكتابة إليك قاتلة. . كحبك.

ارتشفت قهوتك المرّة، بمتعة مشبوهة هذه المرّة. شعرت أنني على وشك أن أعرّ على جملة أولى، أبدأ بها هذا الكتاب.

جملة قد تكون في تلقائية كلمات رسالة.
كان أقول مثلاً:

«أكتب إليك من مدينة مازالت تشبهك، وأصبحت أشبهها.
مازالت الطيور تعبر هذه الجسور على عجل، وأنا أصبحت جسراً
آخر معلقاً هنا.

لا تحبّي الجسور بعد اليوم. . .»
أو شيئاً آخر مثل:

«أمام فنجان قهوة ذكرك. .

كان لا بدّ أن تضحي ولو مرّة قطعة سكر في قهوتي. لماذا كل هذه
الصبيّة. . من أجل قهوة مرّة. .؟»

كان يمكن أن أقول أي شيء . .

ففي النهاية، ليست الروايات سوى رسائل وبطاقات، نكتبها خارج المناسبات المعلنة . . لنعلن نشرتنا النفسية، لمن يهمهم أمرنا.

ولذا أجعلها، تلك التي تبدأ بجملته لم يتوقعها من عايش طقسنا وطقوسنا. وربما كان يوماً سبباً في كل تقلباتنا الجوفية.

تتراحم الحمل في ذهني. كل تلك التي لم تتوقعها. وعطر الذاكرة فجأة . .

فأبتلع قهقري على عجل. وأشرع نافذتي لأهرب منك إلى السماء الخريفية . . إلى الشجر والجسور والمآزة.

إلى مدينة أصبحت مدينتي مرة أخرى. بعدما أخذت لي موعداً معها لسبب آخر هذه المرة.

ها هي ذي قسنطينة . . وها هو كل شيء أنت.

وها أنت تدخلين إليّ، من النافذة نفسها التي سبق أن دخلت منها منذ سنوات. مع صوت المآذن نفسه، وصوت الباعة، وخطى النساء الملتحفات بالسواد، والأغاني القادمة من مذياع لا يتعب . .

«يا التفاحة . . يا التفاحة . . خبريني وعلاش الناس والعة بيبك . .»

تستوقفني هذه الأغنية بسذاجتها.

تضعني وجهاً لوجه مع الوطن. تذكرني دون مجال للشك بأنني في مدينة عربية، فتبدو السنوات التي قضيتها في باريس حلماً خرافياً.

هل التفؤل بالفواكه ظاهرة عربية؟ أم وحده التفاح الذي مازال

يحمل نكهة خطيتنا الأولى، شهبي لحدة التفغي به، في أكثر من بلد
عربي.

وماذا لو كنت تفاحة؟

لا لم تكوني تفاحة.

كنت المرأة التي أغرتني بأكل التفاح لا أكثر. كنت ممارسين معي
فطرياً لعبة حواء. ولم يكن بإمكانني أن أتكرر لأكثر من رجل يسكنني،
لأكون معك أنت بالذات، في حاقة آدم!

- أهلاً سي خالد.. واش راك اليوم..؟

يسلم عليّ جار، تسلّقت نظراته طوابق حزني. وفاجأه وقوفي
الصباحي، خلف شرفة للذهول.

أتابع في نظرة غائبة، خطواته المتجهة نحو المسجد المجاور. وما
يليه من خطوات، لمارة آخرين، بعضها كسلي، وأخرى عجلي،
متجهة جميعها نحو المكان نفسه.

الوطن كله ذاهب للصلاة.

والمذياع يمجّد أكل التفاحة.

وأكثر من جهاز هوائي على السطوح، يقف مقابلاً الماذن يرصد
القنوات الأجنبية، التي تقدّم لك كلّ ليلة على شاشة تلفزيونك، أكثر
من طريقة - عصرية - لأكل التفاح!

أكتفي بابتلاع ريقى فقط.

في الواقع لم أكن أحبّ الفواكه. ولا كان أمر التفاح يعنيني
بالتحديد.

كنت أحبّك أنت. وما ذنبي إن جاءني حبّك في شكل خطية؟

كيف أنت . . . يسألني جار ويمضي للصلاة .
فيجيبه لساني بكلمات مقتضبة، ويمضي في السؤال عنك .
كيف أنا؟

أنا ما فعلته بي سيدتي . . فكيف أنت؟
يا امرأة كساها حنفي جنوناً، وإذا بها تأخذ تدريجياً، ملامح مدينة
وتضاريس وطن .

وإذا بي أسكنها في غفلة من الزمن، وكأنني أسكن غرف ذاكرتي
المغلقة من سنين .
كيف حالك؟

يا شجرة توت تلبس الحداد وراثياً كل موسم .
يا قسطنطينية الاثواب . .
يا قسطنطينية الحب . . والأفراح والأحزان والأحلب . أجيبي أين
تكونين الآن؟ .

ها هي ذي قسطنطينية . .
باردة الأطراف والأقدام . محمومة الشفاه، مجنونة الأطوار .
ها هي ذي . . كم تشبهينها اليوم أيضاً . . لو تدرين!
دعيني أغلق النافذة!

كان مارسيل بانيول يقول:

«تعود على اعتبار الأشياء العادية . . أشياء يمكن أن تحدث أيضاً .
ليس الموت في النهاية شيئاً عادياً . تماماً كانيلا، والحب،
والزواج، والمرض، والشيخوخة، والغربة والجنون، وأشياء أخرى؟

فما أطول قائمة الأشياء العادية التي نتوقعها فوق العادة، حتى
تحدث . والتي نعتقد أنها لا تحدث سوى للآخرين، وأن الحياة لسبب

أو لآخر ستوفر علينا كثيراً منها، حتى نجد أنفسنا يوماً أمامها.

عندما أبحث في حياتي اليوم، أجد أن لقائي بك هو الشيء الوحيد المخارق للعادة حقاً. الشيء الوحيد الذي لم أكن لأتنبأ به، أو أتوقع عواقبه عليّ. لأنني كنت أجهل وقتها أن الأشياء غير العادية، قد تجر معها أيضاً كثيراً من الأشياء العادية.

ورغم ذلك..

مازلت أتساءل بعد كل هذه السنوات، أين أضاع حبك اليوم؟
أفي خانة الأشياء العادية التي قد تحدث لنا يوماً كآية وعكة صحيّة
أو زلّة قدم.. أو نوبة جنون؟
أم.. أضاعه حيث بدأ يوماً؟

كشيء خارق للعادة، كهديّة من كوكب، لم يتوقّع وجوده
الفلكيون. أو زلزال لم تتنبأ به آية أجهزة للهزات الأرضيّة.
أكنت زلّة قدم.. أم زلّة قدر؟

أقلب جريدة الصباح بحثاً عن أجوبة مقنعة لحدث «عادي» غير
مسار حياتي وجاء بي إلى هنا.

أتصفّح تعاستنا بعد كل هذه الأعوام، فيعلق الوطن حبراً أسود
بيدي.

هناك صحف يجب أن تغسل يديك إن تصفّحتها وإن كان ليس
للسبب نفسه كلّ مرّة. فهناك واحدة تترك حبرها عليك.. وأخرى
أكثر تألقاً تنقل عفونتها إليك.

الآن الجرائد تشبه دائماً أصحابها، تبدو لي جرائدنا وكأنّها تستيقظ
كلّ يوم مثلنا، بلامع متعبة وبوجه غير صباحي غسلته على عجل،

ونزلت به إلى الشارع . هكذا دون أن تكلف نفسها مشقة تصفيف شعرها، أو وضع ربطة عنق مناسبة . . أو إغرائنا بابتسامة .

٢٥ أكتوبر ١٩٨٨ .

عناوين كبرى . . كثير من الحبر الأسود . كثير من الدم . وقليل من الحياء .

هناك جرائد تبيعك نفس صور الصفحة الأولى . . ببدلة جديدة كل مرة .

هناك جرائد . . تبيعك نفس الأكاذيب بطريقة أقل ذكاء كل مرة . .

وهناك أخرى، تبيعك تذكرة للهروب من الوطن . . لا غير .

ومادام ذلك لم يعد ممكناً، فلاغلق الجريدة إذن . . ولأذهب لغسل يدي .

آخر مرة استوقفتني فيها صحيفة جزائرية، كان ذلك منذ شهرين تقريباً . عندما كنت أتصفح مجلة عن طريق المصادفة، وإذا بصورتك تفاجئتني على نصف صفحة بأكملها، مرفقة بحوار صحافي بمناسبة صدور كتاب جديد لك .

يومها، تسمر نظري أمام ذلك الإطار الذي كان يحتويك . وعبثاً رححت أفك رموز كلامك . كنت أقرأك مرتبكاً، متلعثماً، على عجل . وكأنني أنا الذي كنت أتحدث إليك عني، ولست أنت التي كنت تتحدثين للآخرين، عن قصة ربما لم تكن قصتنا .

أي موعد عجيب كان موعداً ذلك اليوم ! كيف لم أتوقع بعد تلك السنوات أن تهجزي لي موعداً على ورق بين صفحتين، في مجلة لا أقرأها عادة .

إنه قانون الحماقات، أليس كذلك؟ أن أشتري مصادفة مجلة لم
أتعود شراءها، فقط لأقلب حياتي رأساً على عقب!

وأين العجب؟

ألم تكوني امرأة من ورق. نحبّ وتكره على ورق. وتهجر وتعود
على ورق. وتقتل ونحْي بجرة قلم.

فكيف لا أرتبك وأنا أقراك. وكيف لا تعود تلك الرعدة المكهربة
لتسري في جسدي، وتزيد من خفقان قلبي، وكأنني كنت أمامك،
ولست أمام صورة لك.

تساءلت كثيراً بعدها، وأنا أعود بين الحين والآخر لتلك الصورة،
كيف عدت هكذا لتربّعي بي، أنا الذي تحاشيت كل الطرق المؤذية
إليك؟

كيف عدت.. بعدما كاد الجرح أن يلتئم. وكاد القلب المؤثت
بذكراك أن يفرغ منك شيئاً فشيئاً وأنت تجمعين حقائب الحب،
وتمضين فجأة لتسكني قلباً آخر.

غادرت قلبي إذن..

كما يغادر سائح مدينة جاءها في زيارة سياحية منظّمة. كل شيء
موقوت فيها مسبقاً، حتى ساعة الرحيل، ومحجوز فيها مسبقاً، حتى
المعالم السياحية التي سيزورها، واسم المسرحية التي سيشاهدها،
وعنوان المحلات التي سيشتري منها هدايا للذكرى.

فهل كانت رحلتك مضجرة إلى هذا الحد؟

ها أنا أمام نسخة منك، مدهوش مرتبك، وكأنني أمامك.

تفاجئني تسريحتك الجديدة. شعرك القصير الذي كان شالاً يلفّ

وحشة ليلى.. ماذا تراك فعلت به؟

أتوقّف طويلاً عند عينيك . أبحث فيهما عن ذكرى هزيمتي الأولى
أمامك .

ذات يوم . . لم يكن أجمل من عينيك سوى عينيك . فما أشقاني وما
أسعدني بهما !

هل تغيّرت عيناك أيضاً . . أم أن نظرتي هي التي تغيّرت ؟
أواصل البحث في وجهك عن بصمات جنوني السابق . أكاد لا
أعرف شفاهك ولا ابتسامتك وحرمتك الجديدة .

كيف حدث يوماً . . أن وجدت فيك شهاً بأمي . كيف تصوّرتك
تلبسين ثوبها العنابي، وتعجنين بهذه الأيدي ذات الأظافر المطلية
الطويلة، تلك الكسرة التي افتقدت مذاقها منذ سنين ؟

أيّ جنون كان ذلك . . وأيّة حماقة !
هل غيرّ الزواج حقاً ملاحك وضحكك الطفولية، هل غيرّ
ذاكرتك أيضاً، ومذاق شفاهك وسمرتك الغجرية ؟

وهل أنساك ذلك « النبيّ المفلس » الذي سرقوا منه الوصايا العشر
وهو في طريقه إليك . . فجاءك بالوصيّة الحادية عشرة فقط .

ها أنت ذي أمامي ، تلبسين ثوب الرّدة . لقد اخترت طريقاً آخر .
ولبست وجهاً آخر لم أعد أعرفه . وجهاً كذلك الذي نصادفه في
المجالات والإعلانات، لتلك النساء الواجحة، المعدّات مسبقاً لبيع
شيء ما، قد يكون معجون أسنان، أو مرهماً ضدّ التجاعيد .

أم تراك لبست هذا القناع، فقط لتروّجي لبضاعة في شكل
كتاب، أسميتها « منعطف النسيان » بضاعة قد تكون قصّتي معك . .
وذاكرة جرحي ؟

وقد تكون آخر طريقة وجدتها لقتلي اليوم من جديد، دون أن تركي بصماتك على عنقي .

يومها تذكرت حديثاً قديماً لنا . عندما سألتك مرة لماذا اخترت الرواية بالذات . وإذا بجوابك يدهشني .

قلت يومها بابتسامة لم أدرك نسبة الصدق فيها من نسبة التحايل :

«كان لا بدّ أن أضغ شيئاً من الترتيب داخلي . . وأتخلص من بعض الآثار القديم . إن أعماقنا أيضاً في حاجة إلى نفخ كأي بيت نسكنه ولا يمكن أن أبقي نوافذي مغلقة هكذا على أكثر من جثة . .

إننا نكتب الروايات لنقتل الأبطال لا غير، وننتهي من الأشخاص الذين أصبح وجودهم عبثاً على حياتنا . فكلما كتبنا عنهم فرغنا منهم . . وامتلاًنا بهواء نظيف . .» .

وأضفت بعد شيء من الصمت :

«في الحقيقة كلّ رواية ناجحة، هي جريمة ما نرتكبها تجاه ذاكرة ما . وربما تجاه شخص ما، نقتله على مرأى من الجميع بكاتم صوت . ووحده يدري أنّ تلك الكلمة الرصاصة كانت موجهة إليه . .

والروايات الفاشلة، ليست سوى جرائم فاشلة، لا بدّ أن تسحب من أصحابها رخصة حمل القلم، بحجة أنّهم لا يحسنون استعمال الكلمات، وقد يقتلون خطأ بها أيّ أحد . . بمن في ذلك أنفسهم، بعدما يكونون قد قتلوا القراء . . ضجراً!!» .

كيف لم تثر نزعتك الساذية شكوكي يومها . . وكيف لم أتوقع كلّ جرائمك التي تلت ذلك اليوم، والتي جرّبت فيها أسلحتك الأخرى ؟

لم أكن أتوقع يومها أنّك قد توجهين يوماً رصاصك نحوي .

ولذا ضحكت لكلامك، وربما بدأ يومها انبهاري الآخر بك.
فنحن لا نقاوم، في هذه الحالات، جنون الإعجاب بقاتلنا!
ورغم ذلك أبديت لك دهشتي. قلت:
- كنت أعتقد أنّ الرواية طريقة الكاتب في أن يعيش مرّة ثانية
قصّة أحبّها. . وطريقته في منح الخلود لمن أحبّ.
وكأنّ كلامي فاجأك فقلت وكأنّك تكتشفين شيئاً لم تحسي له
حساباً:

- وربما كان هذا صحيحاً أيضاً، فنحن في النهاية لا نقتل سوى
من أحببنا. وننحهم تعويضاً عن ذلك خلوداً أديباً. إنها صفقة
عادلة. . أليس كذلك؟!
عادلة؟

من يناقش الطغاة في عدلهم أو ظلمهم؟ ومن يناقش نيرون يوم
أحرق روما حباً لها، وعشقاً لشهوة اللهب. وأنت، أما كنت مثله
امرأة تحترف العشق والحرائق بالتساوي؟
أكنت لحظتها تتنبأين بنهايتي القريبة، وتواسيني مسبقاً على
فجييعتي. .

أم كنت تتلاعبين بالكلمات كعادتك، وتفرّجين على وقعها على،
وتسعين سرّاً باندھاڤي الدائم أمامك، وانبھاري بقدرتك المذهلة،
في خلق لغة على قياس تناقضك.
كلّ الاحتمالات كانت ممكنة. .

فربما كنت أنا ضحيّة روايتك هذه، والجنّة التي حكمت عليها
بالخلود، وقرّرت أن تحنّطها بالكلمات. . كالعادة.

وربما كنت ضحية وهي فقط، ومرأوتك التي تشبه الصدق.
فوحّدك تعرفين في النهاية الجواب على كلّ تلك الأسئلة التي ظلّت
تطاردي، بعناد الذي يبحث عن الحقيقة دون جدوى.

متى كتبت ذلك الكتاب؟

أقبل زواجك أم بعده؟ أقبل رحيل زياد.. أم بعده؟ أكتبته
عني.. أم كتبه عنه؟ أكتبته لتقتليني به.. أم لتحبيه هو؟
أم لتنتهي منّا معاً، وتقتلينا معاً بكتاب واحد.. كما تركتنا معاً من
أجل رجل واحد؟

عندما قرأت ذلك الخبر منذ شهرين، لم أتوقّع إطلاقاً أن تعودني
فجأة بذلك الحضور الملّح، ليصبح كتابك محور تفكيرتي، ودائرة
مغلقة أدور فيها وحدي.

فلا كان ممكناً يومها، بعد كلّ الذي حدث، أن أذهب للبحث
عنه في المكتبات، لأشتري قصّتي من بائع مقابل ورقة نقدية. ولا كان
ممكناً أيضاً أن أتجاهله وأواصل حياتي وكأنني لم أسمع به، وكأنّ أمره
لا يعنيني تماماً.

ألم أكن متحرّقا إلى قراءة بقية القصّة؟

قصّتك التي انتهت في غفلة مني، دون أن أعرف فصولها الأخيرة.
تلك التي كنت شاهدها الغائب، بعدما كنت شاهدها الأول. أنا
الذي كنت، حسب قانون الحماقات نفسه، الشاهد والشهيد دائماً في
قصّة لم يكن فيها من مكان سوى لبطل واحد.

ها هوذا كتابك أمامي.. لم يعد بإمكانني اليوم أن أقرأه. فتركته هنا
على طاولتي مغلقاً كلغز، يتربّص بي كقنبلة موقوتة، أستعين بحضوره

الصامت لتفجير منجم الكلمات داخلي . . واستفزاز الذاكرة .

كل شيء فيه يستفزني اليوم . عنوانه الذي اخترته بمراوغة
واضحة . . وإبتسامتك التي تتجاهل حزني . ونظرتك المحايدة التي
تعاملني وكأنني قارئ ، لا يعرف الكثير عنك .

كل شيء . . حتى اسمك .

وربما كان اسمك الأكثر استفزازاً لي ، فهو مازال يقفز إلى الذاكرة
قبل أن تقفز حروفه المميّزة إلى العين .

اسمك الذي . . لا يُقرأ وإنما يُسمع كموسيقى تُعزف على آلة
واحدة من أجل مستمع واحد

كيف يمكن لي أن أقرأه بحياد ، وهو فصل من قصة مدهشة كتبها
الصدفة ، وكتبها قدرنا الذي تقاطع يوماً ؟

يقول تعليق على ظهر كتابك إنه حدث أدبي .

وأقول وأنا أضغ عليه حزمة من الأوراق التي سرّدتها في لحظة
هذيان . .

«حان لك أن تكتب . . أو تصمت إلى الأبد أيها الرجل . فما
أعجب ما يحدث هذه الأيام !

وفجأة . . يحسم البرد الموقف ، ويزحف ليل قسنطينة نحوي من
نافذة للوحشة . فأعيد للقلم غطاءه ، وأنزلق بدوري تحت غطاء
الوحدة .

مذ أدركت أن لكل مدينة الليل الذي تستحقّ ، الليل الذي
يشبهها والذي وحده يفضحها ، ويعري في العتمة ما تخفيه في النهار ،
قررت أن أتخاشى النظر ليلاً من هذه النافذة .

كلّ المدن تمارس التعرّي ليلاً دون علمها، وتفضح للغرباء
أسرارها، حتى عندما لا تقول شيئاً.
وحقّ عندما توصلد أبوابها.
ولأنّ المدن كالنساء، يحدث لبعضهنّ أن يجعلننا نستعجل قدوم
الصباح. ولكن..

«Soirs, Soirs. que de soirs pour un seul matin..»

كيف تذكّرت هذا البيت للشاعر «هنري ميشو» ورحلت أردده على
نفسي بأكثر من لغة..

«أمسيات.. أمسيات

كم من مساء لصباح واحد»

كيف تذكّرت، ومتى تراني حفظته؟.. تراني كنت أتوقّع منذ سنين
أمسيات بائسة كهذه، لن يكون لها سوى صباح واحد؟
أنقّب بعض الشيء في ذاكرتي عن القصيدة التي أخذ منها هذا
البيت، وإذا بعنوانها «الشيخوخة»..

فيخيفني اكتشاف في فجأة وكأنني أكتشف معه ملامح وجهي
الجديدة. فهل تزحف الشيخوخة هكذا نحونا حقاً بليل طويل
واحد. وبعمّة داخلية تجعلنا نتمهّل في كلّ شيء، ونسير ببطء، دون
اتجاه محدّد؟

أليكون الملل والضياح والرتابة جزءاً من مواصفات الشيخوخة أم
من مواصفات هذه المدينة؟

تراني أنا الذي أدخل الشيخوخة.. أم ترى الوطن بأكمله هو
الذي يدخل اليوم سنّ اليأس الجماعي؟

أليس هو الذي يملك هذه القدرة الخارقة، على جعلنا نكبر ونهرم
في بضعة أشهر، وأحياناً في بضعة أسابيع فقط؟

قبل اليوم لم أكن أشعر بثقل السنين. كان حبك شبابي، وكان
مرسمي طاقتي الشمسية التي لا تنضب، وكانت باريس مدينة أنيقة،
يخجل الواحد أن يحمل مظهره في حضرتها. ولكنهم طاردوني حتى
مربع غربي، وأطفأوا شعلة جنوبي. . وجاؤوا بي حتى هنا.

الآن نحن نقف جميعاً على بركان الوطن الذي ينفجر، ولم يعد في
وسعنا، إلا أن نتوحد مع الجمر المتطاير من فوهته، وننسى نارنا
الصغيرة. .

اليوم لا شيء يستحق كل تلك الأنافة واللياقة، الوطن نفسه
أصبح لا يخجل أن يبدو أمامنا في وضع غير لائق!

لا أصعب من أن تبدأ الكتابة، في العمر الذي يكون فيه
الآخرون قد انتهوا من قول كل شيء.

الكتابة ما بعد الخمسين لأول مرة. . شيء شهواني وجنوبي شيء
بعودة المراهقة.

شيء مشير وأحق. شبيه بعلاقة حب بين رجل في سن اليأس،
وريشة حبر بكر.

الأول مرتبك وعلى عجل. . والثانية عذراء لا يروها حبر العالم!
ساعتبر إذن ما كتبته حتى الآن، مجرد استعداد للكتابة فقط،
وفائض شهوة. . لهذه الأوراق التي حلمت منذ سنين بملئها.

ربما غداً أبدأ الكتابة حقاً.

أحب دائماً أن ترتبط الأشياء الهامة في حياتي بتاريخ ما. . يكون
غمزة لذاكرة أخرى.

أغرّتني هذه الفكرة من جديد، وأنا أستمع إلى الأخبار هذا المساء
وأكتشف، أنا الذي فقدت علاقتي بالزمن، أنّ غداً سيكون أوّل
نوفمبر.. فهل يمكن لي ألاّ أختار تاريخاً كهذا، لأبدأ به هذا الكتاب؟

غداً ستكون قد مرّت ٣٤ سنة على انطلاق الرصاصة الأولى
لحرب التحرير، ويكون قد مرّ على وجودي هنا ثلاثة أسابيع، ومثل
ذلك من الزمن على سقوط آخر دفعة من الشهداء..
كان أحدهم ذلك الذي حضرت لأشيعه بنفسي وأدفنه هنا.

بين أوّل رصاصة، وآخر رصاصة، تغيّرت الصدور، تغيّرت
الأهداف.. وتغيّر الوطن.

ولذا سيكون الغد يوماً للحزن مدفوع الأجر مسبقاً.
لن يكون هناك من استعراض عسكري، ولا من استقبالات، ولا
من تبادل تهاين رسمية.

سيكتفون بتبادل التهم.. ونكتفي بزيارة المقابر.
غداً لن أزور ذلك القبر. لا أريد أن أتقاسم حزني مع الوطن.
أفضّل تواطؤ الورق، وكبرياء صمته.
كل شيء يستفزني الليلة.. وأشعر أنني قد أكتب أخيراً شيئاً
مدهشاً، لن أمزّقه كالعادة..

فما أوجع هذه الصدفة التي تعود بي، بعد كلّ هذه السنوات إلى
هنا، للمكان نفسه، لأجد جثة من أحبهم في انتظاري، بتوقيت
الذاكرة الأولى.

يستيقظ الماضي الليلة داخلي.. مبركاً. يستدرجني إلى دهاليز
الذاكرة.

فأحاول أن أقاومه، ولكن، هل يمكن لي أن أقاوم ذاكرتي هذا المساء؟

أغلق باب غرفتي وأشرع النافذة. .

أحاول أن أرى شيئاً آخر غير نفسي. وإذا النافذة تطلّ عليّ. .
تمتدُّ أمامي غابات الغار والبُلوط، وتزحف نحوي قسطنطينة ملتحفة
ملأته القديمة، وكلّ تلك الأدغال والجروف والممرّات السريّة التي
كنت يوماً أعرفها والتي كانت تحيط بهذه المدينة كحزام أمان،
فتوصلك مسالكها المتشعبة، وغاباتها الكثيفة، إلى القواعد السريّة
للمجاهدين، وكأنّها تشرح لك شجرة بعد شجرة، ومغارة بعد
أخرى.

إنّ كلّ الطرق في هذه المدينة العربية العريقة، تؤدّي إلى الصمود.
وإنّ كلّ الغابات والصخور هنا قد سبقتك في الانخراط في
صفوف الثورة.

هنالك مدن لا تختار قدرها. .

فقد حكم عليها التاريخ، كما حكمت عليها الجغرافية، ألاّ
تستسلم. .

ولذا لا يملك أبناؤها الخيار دائماً.

فهل عجب أن أشبه هذه المدينة حدّ التطرف؟

ذات يوم منذ أكثر من ثلاثين سنة سلكتُ هذه الطرق، واخترت
أن تكون تلك الجبال بيتي ومدرستي السريّة التي أتعلّم فيها المادّة
الوحيدة الممنوعة من التدريس. وكنت أدري أنّه ليس من بين
خبريّتها من دفعة ثالثة، وأنّ قدرتي سيكون مختصراً بين المساحة
الفاصلة بين الحرّيّة. . والموت.

ذلك الموت الذي اخترنا له اسماً آخر أكثر إغراءً، لنذهب إليه دون خوف، وربما بشهوة سرّية، وكأننا نذهب لشيء آخر غير حقتنا.

لماذا نسينا يومها أن نطلق على الحرّية أيضاً أكثر من اسم؟ وكيف اختصرنا منذ البدء حرّيتنا.. في مفهومها الأوّل؟

كان الموت يومها يمشي إلى جوارنا، وينام ويأخذ كسرته معنا على عجل. تماماً مثل الشوق والصبر والإيمان.. والسعادة المبهمة التي لا نفارقنا.

كان الموت يمشي ويتفّس معنا.. وكانت الأيام تعود قاسية دائماً، لا تختلف عمّا سبقتها سوى بعدد شهادتها، الذين لم يكن يتوقّع أحد موته على الغالب.. أو لم يكن يتصوّر لسبب أو لآخر، أن تكون نهايتهم، هم بالذات، قريبة إلى ذلك الحدّ.. ومفجعة إلى ذلك الحدّ. وكان ذلك منطق الموت الذي لم أكن قد أدركته بعد.

مازلت أذكرهم، أولئك الذين تعودنا بعد ذلك أن نتحدّث عنهم بالجملة. وكأنّ الجمع في هذه الحالة بالذات، ليس اختصاراً للذاكرة، وإنّما لحقّهم علينا.

لم يكونوا شهداء.. كان كلّ واحد منهم شهيداً على حدة. كان هناك من استشهد في أوّل معركة، وكأنّه جاء خصيصاً للشهادة.

وهناك من سقط قبل زيارته المسروقة إلى أهله بيوم واحد، بعدما قضى عدّة أسابيع في دراسة تفاصيلها، والإعداد لها.

وهناك من تزوّج وعاد.. ليموت متزوّجاً.

وهناك من كان يحلم أن يعود يوماً لكي يتزوّج.. ولم يعد.

في الحروب، ليس الذين يموتون هم التعمّاء دائماً. إنّ الأتعمّس هم أولئك الذين يتركونهم خلفهم ثكالى، يتامى، ومعطوي أحلام.

اكتشفت هذه الحقيقة باكراً، شهيداً بعد آخر، وقصة بعد أخرى..

واكتشفت في المناسبة نفسها، أنني ربما كنت الوحيد الذي لم يترك خلفه سوى قبر طريٍّ لأمٍّ ماتت مرضاً وقهراً، وأخٍ فريد يصغرنى بسنوات، وأبٍ مشغول بمطالب عروسه الصغيرة.

لقد كان ذلك المثل الشعبي على حقٍّ «إن الذي مات أبوه لم يتيمَّ.. وحده الذي مات أمه يتيم».

وكنت يتيماً، وكنت أعني ذلك بعمق في كل لحظة. فالجوع إلى الحنان، شعور تخيف وموجع، يظل ينحرفك من الداخل ويلازمك حتى يأتي عليك بطريقة أو بأخرى.

أكان التحاقني بالجبهة آنذاك محاولة غير معلنة للبحث عن موت أجدل خارج تلك الأحاسيس المرضية التي كانت تملأني تدريجياً حقداً على كل شيء؟

كانت الثورة تدخل عامها الثاني، ويتمي يدخل شهره الثالث، ولم أعد أذكر الآن بالتحديد، في أية لحظة بالذات أخذ الوطن ملامح الأمومة، وأعطاني ما لم أتوقعه من الحنان الغامض، والانتباه المتطرف له.

وربما كان لاختفاء «سي الطاهر» من حيناً بسيدي المبروك منذ بضعة أشهر، دور في حسم القضية، واستعجالي في أخذ ذلك القرار المفاجئ. فلم يكن يخفى على أحد أنه انتقل إلى مكان سرّي في الجبال المحيطة بقسطنطينة ليؤسس من هناك مع آخرين إحدى الخلايا الأولى للكفاح المسلح.

من أين عاد اسم (سي طاهر) الليلة ليزيد من ارتباكي، ومن منكما استدرجني للآخر؟.

من أين عاد.. وهل غاب حقاً، وعلى بعد شارعين مني شارع مازال يحمل اسمه؟

هناك شيء اسمه «سلطة الاسم».

وهناك أسماء عندما تذكرها، تكاد تصلح من جلستك، وتطفئ سيجارتك. تكاد تتحدث عنها وكأنك تتحدث إليها بنفس تلك الهية وذلك الانبهار الأول.

ولذا.. ظلّ لاسم (سي طاهر) هيته عندي. لم تقتله العادة ولا المعاصرة، ولم تحوِّله تجربة السجن المشترك، ولا سنوات النضال، إلى اسم عاديّ لصديق أو جار. فالرموز تعرف دائماً كيف تحيط نفسها بذلك الحاجز اللامرئي، الذي يفصل بين العادي والاستثنائي، والممكن والمستحيل، في كل شيء. ها أنا أذكره في ليلة لم أحجزها له..

وبينما أسحب نفساً من سيجارة أخيرة، يرتفع صوت المآذن معلناً صلاة الفجر. ومن غرفة بعيدة يأتي بكاء طفل أيقظ صوته أنحاء كل البيت..

فأحسد المآذن، وأحسد الأطفال الرضع، لأنهم يملكون وحدهم حق الصراخ والقدرة عليه، قبل أن تروّض الحياة حبالهم الصوتية، وتعلمهم الصمت.

لا أذكر من قال «يقضي الإنسان سنواته الأولى في تعلم النطق، وتقضي الأنظمة العربية بقية عمره في تعليمه الصمت!».

وكان يمكن للصمت أن يصبح نعمة في هذه الليلة بالذات، تماماً

كالنسيان . فالذاكرة في مناسبات كهذه لا تأتي بالتقسيط ، وإنما تهجم عليك شللاً لا يجرفك إلى حيث لا تدري من المنحدرات .

وكيف لك لحظتها أن توقفها دون أن تصطدم بالصخور ، وتخطئ في زلة ذكرى ؟

وها أنت ذا ، تلهث خلفها لتلحق بماضٍ لم تغادره في الواقع ، وبذاكرة تسكنها لأنها جسدك .
جسدك المشوّ لا غير .

وتدري أنّ هناك من يلهثون الآن من منبر إلى آخر ، بحجة أو بأخرى ، ليدينوا تاريخاً كانوا طرفاً فيه . عساهم يلحقون بالموجة الجديدة ، قبل أن يجرفهم الطوفان . فلا تملك إلا أن تشفق عليهم .
ما أتعس أن يعيش الإنسان بشباب مبلة . . خارجاً لتوّه من مستنقع . . وآلاً يصمت قليلاً في انتظار أن تجف !

صامتاً يأتي (سي طاهر) اللينة .

صامتاً كما يأتي الشهداء .

صامتاً . . كعاداته .

وها أنت ذا مرتبك أمامه كعادتك .

لقد كانت دائماً الخمس عشرة سنة التي تفصلكما ، أكبر من عمر السنوات . كانت عمراً بحدّ ذاتها ، ورمزاً بحدّ ذاتها ، لرجل كان يجمع إلى جانب الفصاحة التي كان يتميز بها كلّ من اختلط بجمعيّة العلماء ، ودرس في قسنطينة ، فصاحة أخرى . . هي فصاحة الحضور .

كان (سي طاهر) يعرف متى يتسم ، ومتى يغضب . ويعرف كيف يتكلم ، ويعرف أيضاً كيف يصمت . وكانت الهيبة لا تفارق وجهه

ولا تلك الابتسامة الغامضة التي كانت تعطي تفسيراً مختلفاً لملاحمه كل مرة.

«إن الابتسامات فواصل ونقاط انقطاع . . وقليل من الناس أولئك الذين مازالوا يتقنون وضع الفواصل والنقط في كلامهم»^(١).

في سجن (الكديا) كان موعدي النضالي الأول مع (سي طاهر). كان موعداً مشحوناً بالأحاسيس المتطرفة، وبدهشة الاعتقال الأول، بعنفوانه . . وبخوفه.

وكان (سي طاهر) الذي استدرجني إلى الثورة يوماً بعد آخر، يدري أنه مسؤول عن وجودي يومها هناك. وربما كان يشفق سراً على سنواتي الست عشرة، على طفولتي المبثورة، وعلى (أما) التي كان يعرفها جيداً، ويعرف ما يمكن أن تفعله بها تجربة اعتقالي الأول. ولكنه كان يخفي عني كل شففته تلك، مردداً لمن يريد سماعه: «لقد خلقت السجون للرجال».

وكان سجن (الكديا) وقتها، ككل سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من فائض رجولة، إثر مظاهرات ٨ ماي ١٩٤٥ التي قدمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيهما أول عربون للثورة، متمثلاً في دفعة أولى من عدة آلاف من الشهداء سقطوا في مظاهرة واحدة، وعشرات الآلاف من المساجين الذين ضاقت بهم الزنزانات، مما جعل الفرنسيين يرتكبون أكبر حماقاتهم، وهم يجمعون لعدة أشهر بين السجناء السياسيين، وسجناء الحق العام، في زنزانات يجاوز أحياناً عدد نزلائها العشرين معتقلاً.

(١) (*) الحمل المكتوبة بخط ميمر مأخوذة عن تواطؤ شعري من روائقي مالك حداد «سأهيك غزالة» و«رصيد الأزهار لم يعد يجيب».

وهكذا، جعلوا عدوى الثورة تنتقل إلى مساجين الحق العام الذين وجدوا فرصة للوعي السياسي، ولغسل شرفهم بالانضمام إلى الثورة التي استشهد بعد ذلك من أجلها الكثير منهم. وما زال بعضهم حتى الآن على قيد الحياة، يعيش بتكريم ووجاهة القادة التاريخيين لحرب التحرير، بعدما تكفل التاريخ بإعادة سجل سوابقهم العدلية.. لعذريته الأولى. بينما وجد بعض السجناء السياسيين - في تلك الحماقة الاستعمارية - فرصة للتعرف على بعض، ووقتاً كافياً للتشاور والتفكير في أمور الوطن.. والتخطيط للمرحلة القادمة.

اليوم.. عندما أذكر تلك التجربة، تبدو لي لكثافتها ودهشتها، وكأنها أطول مما كانت. رغم أنها لم تدم بالنسبة لي سوى ستة أشهر فقط. قضيتها هناك قبل أن يطلق سراحي أنا واثني آخرين لصغر سننا ولأنه كان هناك من يهتم أمرهم، أكثر منا.

وهكذا عدت إلى ثانوية قسنطينة، بعدما أخلفت عاماً دراسياً، لأجد البرنامج نفسه وكتب الفلسفة نفسها والأدب الفرنسي في انتظاري..

وحدثهم بعض رفاق الدراسة كانوا مايزالون ضمن المتغيين، بين مساجين وشهداء.

أغلبهم طلبة في الصفوف العليا التي كان مقرراً أن تتخرج منها أول دفعة من المثقفين والموظفين الجزائريين المفرنسين.

وكان ذلك شرفهم، أولئك الذين راهن البعض على خيانتهم، فقط لأنهم اختاروا الثانويات والثقافة الفرنسية، في مدينة لا يمكن لأحد فيها أن يتجاهل سلطة اللغة العربية، وهيبتها في القلوب والذاكرة.

فهل عجب أن يكون من بين الذين سجنوا وعذبوا بعد تلك المظاهرات، الكثير منهم، هم الذين كانوا بحكم ثقافتهم الغربية يتمتعون بوعي سياسي مبكر، وبفائض وطنية. . وفائض أحلام. والذين أدركوا، والحرب العالمية تنتهي لصالح فرنسا والحلفاء، أن فرنسا استعملت الجزائريين، ليخوضوا حرباً لم تكن حربهم، وأنهم دفعوا آلاف الموق في معارك لا تعنيهم، ليعودوا بعد ذلك إلى عبوديتهم.

كان في مصادفة وجودي مع (سي الطاهر) في الزنزانة نفسها شيء أسطوري بحد ذاته، وتجربة نضالية ظلت تلاحقني لسنوات بكل تفاصيلها، وربما كان لها بعد ذلك أثر في تغير قدري. فهناك رجال عندما تلتقي بهم تكون قد التقيت بقدرك.

كان (سي الطاهر) استثنائياً في كل شيء، وكأنه كان يعد نفسه منذ البدء، ليكون أكثر من رجل.

لقد خلق ليكون قائداً. كان فيه شيء من سلالة طارق بن زياد، والأمير عبد القادر، وأولئك الذين يمكنهم أن يغيروا التاريخ بخطبة واحدة.

وكان الفرنسيون الذين عذبوه وسجنوه لمدة ثلاث سنوات يعرفون ذلك جيداً. ولكنهم كانوا يجهلون أن (سي الطاهر) سيأخذ بثأره منهم بعد ذلك بسنوات، ويصبح الرأس المطلوب بعد كل عملية يقوم بها المجاهدون في الشرق الجزائري.

أتى صدفة. . أن يعود القدر بعد عشر سنوات تماماً، ليضعني مع (سي طاهر) في تجربة كفاحية مسلحة هذه المرة!

سنة ١٩٥٥ . . وفي شهر أيلول بالذات، التحقت بالجبهة .
كان رفاقي يبدأون سنة دراسية ستكون الحاسمة، وكنت في عامي
الخامس والعشرين أبدأ حياتي الأخرى .

أذكر أن استقبال (سي طاهر) لي فاجأني وقتها . لم يسألني عن أية
تفاصيل خاصة عن حياتي أو دراستي . لم يسألني حتى كيف أخذت
قرار التحاقني بالجبهة، ولا أي طريق سلكت لأصل إليه . ظلّ يتأملني
قبل أن يمحتضني بشوق وكأنه كان ينتظري هناك منذ سنة .
ثم قال :

- جئت . . !

وأجبت بفرح وبخزن غامض معاً :

- جئت !

كان (سي الطاهر) هكذا أحياناً، يكون موجزاً حتى في فرحته؛
فكنت موجزاً معه في حزني أيضاً .

سألني بعدها عن أخبار الأهل، وأخبار (أمّنا) بالتحديد، فأجبت
أنها توفيت منذ ثلاثة أشهر . وأعتقد أنه فهم كل شيء، فقد قال وهو
يربت على كتفي، وشيء شبيه بالدمع يلمع في عينيه :
- رحمها الله، لقد تعذّبت كثيراً .

ثم ذهب في تفكيره بعيداً إلى حيث لا أدري . .

بعدها حسدت تلك الدمعة المفاجئة في عينيه، والتي رفع بها أمني
إلى مرتبة الشهداء . فلم يحدث لي أن رأيت (سي طاهر) يبكي سوى
الشهداء من رجاله . وتمنيت طويلاً بعد ذلك أن أمدد جثماناً بين
يديه، لأتمتع ولو بعد موتي بدمعة مكابرة في عينيه .

الكلّ هذا تقلّصت عائلتي فجأة في شخصه، ورحت أنفاسي في

إثبات بطولتي له، وكأني أريد أن أجعله شاهداً على رجولتي أو على موتي؛ شاهداً على أنني لم أعد أنتسب إلى أحد غير هذا الوطن، وأني لم أترك خلفي سوى قبر لامرأة كانت أمي، وأخ بصغري اختار له أبي مسبقاً امرأة ستصبح أمه.

كنت ألقى بنفسي على الموت في كل مرة، وكأني أتحداه أو كأني أريد بذلك أن يأخذني بدل رفاقي الذين تركوا خلفهم أولادهم وأهلهم ينتظرون عودتهم. وكنت كل مرة أعود أنا ويسقط آخرون، وكأن الموت قرّر أن يرفضني ..

وكان (سي طاهر) بعد أكثر من معركة ناجحة اشتركت فيها، قد بدأ تدريجياً يعتمد عليّ في المهمات الصعبة، ويكلفني بالمهام الأكثر خطورة، تلك التي تتطلب مواجهة مباشرة مع العدو. ورفعتني بعد سنتين إلى رتبة ملازم لأنكّن من إدارة بعض المعارك وحدي، وأخذ القرارات العسكرية التي يقتضيها كل ظرف.

بدأت وقتها فقط أتحول على يد الثورة إلى رجل، وكأنّ الرتبة التي كنت أحملها قد منحتني شهادة بالشفاء من ذاكرتي .. وطفولتي. وكنت آنذاك سعيداً وقد بلغت أخيراً تلك الطمأنينة النفسية التي لا تمنحنا إيّاها سوى راحة الضمير.

لم أكن أعني وقتها أنّ طموحاتي لا علاقة لها بالمكتوب وأنّ القدر كان يتربّص بي في ذلك الوقت الذي كنت أعتقد فيه أن لا شيء بعد اليوم يمكن أن يعيدني إلى حزني السابق.

وجاءت تلك المعركة الضارية التي دارت على مشارف «باتنة» لتقلب يوماً كل شيء ..

فقد فقدنا فيها ستة مجاهدين، وكنت فيها أنا من عداد الجرحى بعدما اخترقت ذراعي اليسرى رصاصتان، وإذا بمجرى حياتي يتغير فجأة، وأنا أجد نفسي من ضمن الجرحى الذين يجب أن ينقلوا على وجه السرعة إلى الحدود التونسية للعلاج. ولم يكن العلاج بالنسبة لي.. سوى بتر ذراعي اليسرى، لاستحالة استئصال الرصاصتين. ولم يكن هناك من مجال للنقاش أو التردد. كان النقاش فقط، حول الطرق الآمنة التي يمكن أن نسلكها حتى تونس، حيث كانت القواعد الخلفية للمجاهدين.

وها أنذا أمام واقع آخر..

ها هو ذا القدر يطردني من ملجأ الوحيد، من الحياة والمعارك الليلية، ويخرجني من السرية إلى الضوء، ليضعني أمام ساحة أخرى، ليست للموت وليست للحياة. ساحة للألم فقط.. وشرفة أتفرج منها على ما يحدث في ساحة القتال. فلقد بدا واضحاً من كلام (سي طاهر) يومها، أنني قد لا أعود إلى الجبهة مرة ثانية.

في ذلك اليوم الأخير، حاول (سي طاهر) أن يحافظ على نبرته الطبيعية، وراح يودّعني كما كان يودّعني كلّ مرة قبل معركة جديدة. ولكن هذه المرة كان يدري أنه يعدّني لتحمل معركتي مع القدر.

غير أنه كان موجزاً على غير عادته، ربّما.. لأنه ليس هناك من تعليمات خاصة تعطى في هذه الحالات.. وربّما لأنه كان يتكبّد يومها أكبر خسارة بشرية ويفقد في معركة واحدة عشرة من خيرة رجاله بين جرحى وقتلى. وكان يدري، والثورة مطوّقة من كلّ جانب، قيمة كلّ مجاهد وحاجة الثورة إلى كلّ رجل على حدة.

ولم أقل له شيئاً ذلك اليوم..

كنت أشعر، لسبب غامض، أنني أصبحت يتيماً مرةً أخرى.
كانت دمعتان قد تجمعتا في عيني. كنت أنزف، وكان ألم ذراعي
ينتقل تدريجياً إلى جسدي كله، ويستقر في حلقي غصة. غصة الحية
والألم.. والخوف من المجهول.

كانت الأحداث تجري بسرعة أمامي، وقدري يأخذ منحىً جديداً
بين ساعة وأخرى، ووحده صوت (سي طاهر) وهو يعطي تعليماته
الأخيرة، كان يصل إليّ حيث كان، ليصبح صليتي الوحيدة مع العالم.
وبرغم ذلك، مازلت أذكر تماماً حضوره الأخير، عندما جاء
يتفقدني قبل سفري بساعة، ووضع ورقة صغيرة في جيبتي وبعض
الأوراق النقدية، وقال وهو ينحني عليّ وكأنه يودعني سرّاً:
«لقد وضعت في جيبك عنصوان العائلة في تونس وشيئاً من
الدراهم..» ثم تمتم:

«لو قدر لك أن تصل إلى هناك.. أتمنى أن تذهب لزيارتهم حين
تشفى وتسلم هذا المبلغ إلى (أما) لتشتري به هدية للصغيرة، وأودُّ
أيضاً أن تقوم بتسجيلها في دار البلدية لو استطعت ذلك.. فقد يمرّ
وقت طويل قبل أن أتمكن من زيارتهم..»

وعاد بعد لحظات وكأنه نسي شيئاً ليضيف شبه مرتبك وهو يلفظ ذلك
الاسم لأول مرة..

«.. لقد اخترت لها هذا الاسم... سجلها متى استطعت ذلك
وقبلها عني.. وسلم كثيراً على (أما)..»

كانت تلك أول مرة سمعت فيها اسمك.. سمعته وأنا في لحظة
نزيف بين الموت والحياة، فتعلقت في غيبوتي بحروفه، كما يتعلّق
محموم في لحظة هذيان بكلمة..

كما يتعلّق رسول بوصيّة يخاف أن تضيع منه . .

كما يتعلّق غريق بحبال الحلم .

بين ألف الألم وميم المتعة كان اسمك .

تشطره حاء الحرقه . . ولام التحذير . فكيف لم أحذر اسمك الذي
ولد وسط الحرائق الأولى، شعلة صغيرة في تلك الحرب . كيف لم
أحذر اسماً يحمل ضده ويبدأ بـ «أح» الألم واللذة معاً . كيف لم أحذر
هذا الاسم المفرد - الجمع كاسم هذا الوطن، وأدرك منذ البدء أنّ
الجمع خلق دائماً ليقتسم !

بين الابتسام والحزن، يحدث اليوم أن أستعيد تلك الوصيّة :

«قبلها عني . .» وأضحك من القدر، وأضحك من نفسي، ومن
غربة المصادفات .

ثمّ أعود وأحجل من وقار صوته، ومن مسحة الضعف النادرة التي
غلفت جملته تلك، هو الذي كان يريد أن يبدو أمامنا دائماً، رجلاً
مهيباً لا هموم له سوى هموم الوطن، ولا أهل له غير رجاله . .

لقد اعترف لي أنّه رجل ضعيف؛ يحنّ ويشتاق وقد يبكي ولكن،
في حدود الحياء، وسراً دائماً . فليس من حقّ الرموز أن تبكي شوقاً .
إنّه لم يذكر أمك مثلاً . . تراه لم يحنّ إليها، هي العروس التي لم
يتمتع بها غير أشهر مسروقة من العمر وتركها حاملاً .

ولماذا هذا الاستعجال المفاجئ؟ لماذا لا ينتظر بعض الوقت ليرتب
قضية غيابه لأيام، ويقوم هو نفسه بتسجيلك؟

لقد انتظر ستة أشهر، فلماذا لا ينتظر أسابيع أخرى . . ولماذا أنا
بالذات . .

أيّ قدر جعلني أحضر إلى هناك بتوقيتك؟

كلما طرحت على نفسي هذا السؤال، دهشت له وآمنت بالمكتوب.
فقد كان بإمكان (سي طاهر) برغم مسؤولياته أن يهرب ليوم أو
ليومين إلى تونس. ولم تكن قضية عبور الحدود بحراسها المشددة
ودورياتها وكماثتها لتخيفه، ولا حتى اجتياز (خط موريس) المكهرب
والمفروش بالألغام، والممتد بين الحدود التونسية الجزائرية من البحر
إلى الصحراء، والذي اجتازه فيما بعد ثلاث مرّات، وهو رقم قياسي
بالنسبة لعشرات المجاهدين الذين تركوا جثثهم على امتداده.

أكان حبّ (سي طاهر) للانضباط، واحترامه للقوانين هو الذي
خلق عنده ذلك الشعور بالقلق بعد ميلادك، وهو يكشف عاجزاً أنه
أب منذ شهور لطفلة لم يمنحها اسماً، ولم يتمكّن حتى من تسجيلها؟
أم كان يخاف، هو الذي انتظر طويلاً، أن تضيعي منه إن هو لم
يرسّخ وجودك وانتسابك له على ورقة رسمية عليها ختم رسمي؟

أكان يتشائم من وضعك القانوني هذا، ويريد أن يسجّل أحلامه
في دار البلدية، ليتأكّد من أنها تحوّلت إلى حقيقة. . وأنّ القدر لن
يعود ليأخذها منه، هو الذي كان حلمه في النهاية أن يصبح أباً
كالآخرين بعد محاولة زواج فاشلة لم يرزق منها ذرية؟

ولا أدري إذا كان (سي الطاهر) في أعماقه يفضل لو كان مولوده
صبيّاً. . أدري فقط، كما علمت فيما بعد، أنّه حاول أن يتحايل على
القدر وأن يترك قبل سفره اسماً احتياطياً لصبي، متجاهلاً احتمال
مجيء أنثى. وربما فعل ذلك أيضاً بعقلية عسكرية، وبهاجس وطني
دون أن يدري. . فقد كانت أحاديثه وخططه العسكرية تبدأ غالباً
بتلك الجملة التي كثيراً ما سمعته يردها «لأزمننا رجال يا جماعة. .»

إذن، لهذا كان (سي طاهر) يبدو سعيداً ومتفائلاً في كل شيء في تلك الفترة..

فجأة تغير الرجل الصلب. أصبح أكثر مرونة وأكثر دعابة في أوقات فراغه.

شيء ما كان يتغير تدريجياً داخله، ويجعله أقرب إلى الآخرين، وأكثر تفهماً لأوضاعهم الخاصة.

فقد أصبح يمنح البعض بسهولة أكثر تسريحات لزيارة خاطفة يقومون بها إلى أهلهم، هو الذي كان يبخل بها على نفسه. لقد غيرته الأبوة المتأخرة، التي جاءت رمزاً جاهزاً لمستقبل أجمل.. معجزة صغيرة للأمل.. كانت أنت.

طلع صباح آخر..

وها هو ذا النهار يفاجئني بضجيجهِ الاعتيادي، وبضوئه المباغت
الذي يدخل النور إلى أعماقي غصباً عني، فأشعر أنه يختلس شيئاً
مني.

في هذه اللحظة.. أكره هذا الجانب الفضولي والمحرج للشمس.
أريد أن أكتب عنك في العتمة. قضيت معك شريط مصور أخاف
أن يحرقه الضوء ويلغيه، لأنك امرأة نبتت في دهاليزي السرية..
لأنك امرأة امتلكتها بشرعية السرية..

لا بد أن أكتب عنك بعد أن أسدل كل الستائر، وأغلق نوافذ
غرفتي.

ورغم ذلك.. يسعدني في هذه اللحظة منظر الأوراق المقدسة
أمامي، والتي ملأتها البارحة، في ليلة نذرتها للجنون. فقد أهديها
لك مغلفة بصورة مهذبة في كتاب..

وأدري..

أدري أنك تكرهين الأشياء المهذبة جداً.. وأنتك أنانية جداً..
وأن لا شيء يعنيك في النهاية، خارج حدودك أنت.. وجسدك
أنت.

ولكن قليلاً من الصبر سيدي.

صفحات أخرى فقط.. ثم أعري أمامك ذاكرتي الأخرى.
صفحات أخرى لا بد منها، قبل أن أملاك غروراً.. وشهوة..

وندماً وجنوناً. فالكتب كوجبات الحب.. لا بد لها من مقدمات
أيضاً.. وإن كنت أعترف أن «المقدمات» ليست مشكلتي الآن بقدر
ما يربكني البحث عن منطلق لهذه القصة.

من أين أبدأ قصتي معك؟

ولقصتك معي عذّة بدايات، تبدأ مع النهايات غير المتوقعة ومع
مقالب القدر.

وعندما أتحدث عنك.. عمن تراني أتحدث؟ أعن طفلة كانت تحبو
يوماً عند قدمي.. أم عن صبيّة قلبت بعد خمس وعشرين سنة
حياتي.. أم عن امرأة تكاد تشبهك، أناملها على غلاف كتاب
أنيق عنوانه «منعطف النسيان».. وأتساءل: أتراها حقاً.. أنت؟

وعندما أسميك فبأي اسم؟

ترى أدعوك بذلك الاسم الذي أراه والدك، وذهبت بنفسني
لأسجله نيابة عنه في سجلات البلدية، أم باسمك الأول، ذلك الذي
حملته خلال ستة أشهر في انتظار اسم شرعي آخر؟
«حياة»..

سأدعوك هكذا.. ليس هذا اسمك على كلّ حال. إنه أحد
أسمائك فقط.. فلأسمينك به إذن مادام هذا الاسم الذي عرفتكَ
به، والاسم الذي أنفرد بمعرفته. اسمك غير المتداول على الألسنة،
وغير المسجل على صفحات الكتب والمجلّات، ولا في أيّ سجلّات
رسمية.

الاسم الذي مُنحته لتعيشي وليمنحك الله الحياة. والذي قتله أنا
ذات يوم، وأنا أمنحك اسماً رسمياً آخر، ومن حقّي أن أحياه اليوم،
لأنه لي ولم يُنادِك رجل قبلي به.

اسمك الطفولي الذي يجوع على لساني، وكأنك أنت منذ خمس وعشرين سنة. وكلما لفظته، عدت طفلة تجلس على ركبتي وتبحث بأشباتي وتقول لي كلاماً لا أفهمه..

فأغفر لك لحظتها كل خطاباك..

كلما لفظته تدرجت إلى الماضي، وعدت صغيرة في حجم دمية.. وإذا بك ابنتي..

هل أقرأ كتابك لأعرف كيف تحوّلت تلك الطفلة الصغيرة إلى امرأة؟ ولكنني أعرف مسبقاً أنك لن تكتبي عن طفولتك.. ولا عن سنواتك الأولى..

أنت تملكين ثقب الذاكرة الفارغة بالكلمات فقط، وتتجاوزين الجراح بالكذب، وربما كان هذا سرّ تعلّقك بي؛ أنا الذي أعرف الحلقة المفقودة من عمرك، وأعرف ذلك الأب الذي لم تربيه سوى مرّات قليلة في حياتك، وتلك المدينة التي كنت تسكنينها ولا تسكنك، وتعاملين أزقتها دون عشق، وتمشين وتجيئين على ذاكرتها دون انتباه..

أنت التي تعلّقت بي لتكتشفي ما تجهلينه.. وأنا الذي تعلّقت بك لأنسى ما كنت أعرفه.. أكان ممكناً لحبنا أن يدوم؟

كان (سي طاهر) طرفاً ثالثاً في قصتنا منذ البدء حتّى عندما لا نتحدّث عنه، كان بيننا حاضراً بغيابه، فهل أقتله مرّة ثانية لأنفرد بك؟

آه لو تدرين.. لو تدرين ما أثقل حمل الوصايا، حتّى بعد ربع قرن، وما أوجع الشهوة التي يواجهها أكثر من مستحيل وأكثر من مبدأ فلا يزيدا في النهاية إلّا... اشتها!

كان السؤال منذ البداية . .

كيف لي أن ألقي (سي طاهر) من ذاكرتي، وألغي عمره من عمري، لأمنح حباً فرصة ولادة طبيعياً؟ ولكن . . ما الذي سيقضي وقتها، لو أخرجتك من ذاكرتنا المشتركة وحولتك إلى فتاة عادية؟

كان والدك رقيقاً فوق العادة . . وقائداً فوق العادة .

كان استثنائياً في حياته وفي موته . فهل أنسى ذلك؟

لم يكن من المجاهدين الذين ركبوا الموجة الأخيرة، ليضمنوا مستقبلهم، مجاهدي (٦٢) وأبطال المعارك الأخيرة. ولا كان من شهداء المصادفة، الذين فاجأهم الموت في قصف عشوائي، أو في رصاصة خاطئة.

كان من طينة ديدوش مراد، ومن عجينة العربي بن مهيدي، ومصطفى بن بولعيد، الذين كانوا يذهبون إلى الموت ولا ينتظرون أن يأتيهم .

فهل أنسى أنه والدك . . وسؤالك الدائم يعيد لاسمه هيته حياً وشهيداً؟

فيرتبك القلب الذي أحبك حدّ الجنون . ويبقى صدى سؤالك ماثلاً . . . «حدثني عنه . . »

سأحدثك عنه جيبتي . . فلا أسهل من الحديث عن الشهداء . تاريخهم جاهز ومعروف مسبقاً كخاتماتهم . ونهايتهم تغفر لهم ما يمكن أن يكونوا قد ارتكبوا من أخطاء . سأحدثك عن (سي طاهر) . .

فوحده تاريخ الشهداء قابل للكتابة، وما تلاه تاريخ آخر يصادره

الأحياء. وسيكتبه جيل لم يعرف الحقيقة ولكنه سيستجها تلقائياً..
فهناك علامات لا تخطئ.

مات (مي طاهر) طاهراً على عتبات الاستقلال. لا شيء في يده
غير سلاحه. لا شيء في جيوبه غير أوراق لا قيمة لها.. لا شيء على
أكتافه سوى وسام الشهادة.
الرموز تحمل قيمتها في موتها..

ووحدهم الذين ينوبون عنهم، يحملون قيمتهم في ربهم
وأوسمتهم الشرفية، وما ملأوا به جيوبهم على عجل من حسابات
سرية.

ست ساعات من الحصار والتطويق، ومن القصف المركز لدشرة
بأكملها ليتمكن قتلته من نشر صورته على صفحات جرائد الغد
كدليل على انتصاراتهم الساحقة على أحد المخربين «الفلاقة» الذين
أقسمت فرنسا أن تأتي عليهم..

أكان حقاً موت ذلك الرجل البسيط انتصاراً لقوة عظمى، كانت
ستخسر بعد بضعة أشهر الجزائر بأكملها؟!

استشهد هكذا في صيف ١٩٦٠، دون أن يتمتع بالنصر ولا
بقطف ثماره.

ها هو رجل أعطى الجزائر كل شيء، ولم تعطه حتى فرصة أن يرى
ابنه يمشي إلى جواره..

أو يراك أنت ربما طبيبة أو أستاذة كما كان يحلم.
كم أحبك ذلك الرجل!

بجنون أبوة الأربعين.. بحنان الذي كان يخفي خلف صرامته
الكثير من الحنان، بأحلام الذي صودرت منه الأحلام، بزهو المجاهد

الذي أدرك وهو يرى مولده الأول، أنه لن يموت تماماً بعد اليوم.

ما زلت أذكر المسرات القليلة التي كان يحضر فيها إلى تونس لزيارتكم خلسة ليوم واحد أو ليومين.

وكنت وقتها أسرع إليه متلهّفاً لسماع آخر الأخبار، وتطوّرات الأحداث على الجبهة. وأنا أجهد نفسي في الوقت نفسه حتى لا أسرق منه تلك الساعات القليلة النادرة، التي كان يغامر بحياته ليقضيها برفقة عائلته الصغيرة.

كنت أندهش وقتها، وأنا أكتشف فيه رجلاً آخر لا أعرفه.

رجلٌ بثياب أخرى، بابتسامة وكلمات أخرى، ويجلسه يسهل له فيها إجلاسك على ركبته طوال الوقت للاعبتك.

كان يعيش كلّ لحظة بأكملها، وكأنّه يعتصر من الزمن الشحيح كلّ قطرات السعادة؛ وكأنّه يسرق من العمر مسبقاً، ساعات يعرفها معدودة؛ ويمنحك مسبقاً من الحنان زادك لعمر كامل.

كانت آخر مرّة رأيته فيها، في يناير سنة ١٩٦٠. وكان حضر ليشهد أهمّ حدث في حياته؛ ليتعرّف على مولوده الثاني «ناصر»، فقد كانت أمنيته السريّة أن يُرزق يوماً بذكر. يومها لسبب غامض تأملت كثيراً.. وحديثه قليلاً.. وفضّلت أن أتركه لفرحته تلك، ولسعاده المسرورة. وعندما عدت في الغد، قيل لي إنّه عاد إلى الجبهة على عجل مؤكّداً أنّه سيعود قريباً لمُدّة أطول.

ولم يعد..

انتهى بعد ذلك كرم القدر البخيل. فقد استشهد (سي طاهر) بعد بضعة أشهر دون أن يتمكّن من رؤية ابنه مرّة ثانية.

كان ناصر آنذاك ينهي شهره الثامن، وأنت تدخلين عامك الخامس.

وكان الوطن في صيف ١٩٦٠ بركاناً يموت ويولد كل يوم.
وتتقاطع مع موته وميلاده، أكثر من قصة، بعضها مؤلم وبعضها
مدهش..

وبعضها يأتي متأخراً كما جاءت قصتي التي تقاطعت يومها معك.
قصة فرعية، كتبت مسبقاً وحولت مسار حياتي بعد عمر بأكمله،
بحكم شيء قد يكون اسمه القدر، وقد يكون العشق الجنوني..
ذاك الذي يفاجئنا من حيث لا نتوقع، مُتجاهلاً كل مبادئنا وقيمنا
السابقة.

والذي يأتي هكذا متأخراً.. في تلك اللحظة التي لا نعود نتظر
فيها شيئاً؛ وإذا به يقلب فينا كل شيء.

فهل يمكن لي اليوم، بعدما قطعت بيننا الأيام جسور الكلام، أن
أقاوم هذه الرغبة الجنونية لكتابة هاتين القصتين معاً، كما عشتها معك
ودونك، بعد ذلك بسنوات..

رغبة.. وعشقا.. وحلماً.. وحقداً.. وغيره.. وخيبة..
وفجائع حد الموت.

أنت التي كنت تحيّن الاستماع إليّ..
وتقلبينني كدفتر قديم للدهشة.

كان لا بد أن أكتب من أجلك هذا الكتاب، لأقول لك ما لم أجد
متسعاً من العمر لأقوله.

سأحدثك عن الذين أحبوك لأسباب مختلفة، وختهم لأسباب
مختلفة أخرى.

سأحدثك حتى عن زياد، أما كنت تحيّن الحديث عنه وتراوغين؟
لم يعد من ضرورة الآن للمراوغة.. لقد اختار كل منا قدره.

سأحدثك عن تلك المدينة التي كانت طرفاً في حبنا، والتي أصبحت بعد ذلك سبباً في فراقنا، وانتهى فيها مشهد خرابنا الجميل.

فعمّ تراك ستحدثين؟

عن أي رجل منّا تراك كتبت؟ من منّا أحببت؟

ومن... منّا ستقتلين؟

ولمن تراك أخلصت، أنت التي تستبدلين حباً بحب، وذاكرة بأخرى، ومستحيلاً بمستحيل؟

وأين أنا في قائمة عشقك وضحاياك؟

تراني أشغل المكانة الأولى، لأنني أقرب إلى النسخة الأولى؟

تراني النسخة المزورة لـ (سي طاهر) تلك التي لم يحوّلها الاستشهاد

إلى نسخة طبق الأصل؟

تراني الأبوة المزورة... أم الحب المزور؟

أنت التي - كهذا الوطن - تحترفين تزوير الأوراق وقلبيها... دون

جهد.

كان «مونترلان» يقول:

«إذا كنت عاجزاً عن قتل من تدعي كراهيته، فلا تقل إنك

تكرهه: أنت تعهر هذه الكلمة!».

دعيني أعترف لك أنني في هذه اللحظة أكرهك، وأنه كان لا بد

أن أكتب هذا الكتاب لأقتلك به أيضاً. دعيني أجرب أسلحتك...

فربما كنت على حق... ماذا لو كانت الروايات مسدسات محشوة

بالكلمات القاتلة لا غير؟

ولو كانت الكلمات رصاصاً أيضاً؟

ولكنني لن أستعمل معك مسدساً بكاتم صوت، على طريقتك.

لا يمكن لرجل يحمل السلاح بعد هذا العمر، أن يأخذ كل هذه
الاحتياطات .

أريد لموتك وقعاً مدوناً قدر الإمكان . .

فأنا أقتل معك أكثر من شخص، كان لا بد أن يجرؤ أحد على
إطلاق النار عليهم يوماً .

فاقرأى هذا الكتاب حتى النهاية، بعدها قد تكفين عن كتابة
الروايات الوهمية .

وطالعي قصتنا من جديد . .

دهشة بعد أخرى، وجرحاً بعد آخر، فلم يحدث لأدبنا التعيس
هذا، أن عرف قصة أروع منها . .

ولا شهد خراباً أجمل .

الفصل الثاني

كان يوم لقائنا يوماً للدهشة . .

لم يكن القدر فيه هو الطرف الثاني، كان منذ البدء الطرف الأول .
ليس هو الذي أتى بنا من مدن أخرى، من زمن آخر وذاكرة أخرى،
ليجمعنا في قاعة بباريس، في حفل افتتاح معرض للرسم؟
يومها كنت أنا الرسّام، وكنت أنت زائرة فضوليّة على أكثر من
صعيد .

لم تكوني فتاة تعشق الرسم على وجه التحديد . ولا كنت أنا رجلاً
يشعر بضعف تجاه الفتيات اللاتي يصغرنه عمراً . فما الذي قاد خطاك
هناك ذلك اليوم؟ . . وما الذي أوقف نظري طويلاً أمام وجهك؟
كنت رجلاً تستوقفه الوجوه، لأنّ وجوهنا وحدها تشبهنا، وحدها
تفضحننا، ولذا كنت قادراً على أن أحبّ أو أكره بسبب وجه .
وبرغم ذلك، لست من الحماقة لأقول إنّني أحببتك من النظرة
الأولى . يمكنني أن أقول إنّني أحببتك، ما قبل النظرة الأولى .

كان فيك شيء ما أعرفه . شيء ما يشدني إلى ملاحك المحبّة إلى
مسبقاً، وكأنّني أحببت يوماً امرأة تشبهك . أو كأنّني كنت مستعداً منذ
الأزل لأحبّ امرأة تشبهك تماماً .

كان وجهك يطاردني بين كلّ الوجوه، وثوبك الأبيض المتقل من
لوحه إلى أخرى، يصبح لون دهشتي وفضولي . .

واللون الذي يؤثت وحده تلك القاعة الملائى . . بأكثر من زائر
وأكثر من لون .

- هل يولد الحب أيضاً من لون لم نكن نحبه بالضرورة! -
وفجأة اقترب اللون الأبيض مني ، وراح يتحدث بالفرنسية مع فتاة
أخرى لم ألاحظها من قبل . .
ربما لأن الأبيض عندما يلبس شعراً طويلاً حالكاً، يكون قد غطى
على كل الألوان . .

قال الأبيض وهو يتأمل لوحة:

- Je préfère l'abstrait..!

وأجاب اللون الذي لا لون له:

- moi je préfère comprendre ce que je vois.

ولم تدهشني حماقة اللون الذي لا لون له، عندما يفضل أن يفهم
كل ما يرى . .

أدهشني اللون الأبيض فقط . . فليس من طبعه أن يفضل
الغموض!

قبل ذلك اليوم، لم يحدث أن انحزت للون الأبيض .

لم يكن يوماً لوني المفضل . . فأنا أكره الألوان الحاسمة .

ولكنني آنذاك انحزت إليك دون تفكير .

ووجدتني أقول لتلك الفتاة، وكأنني أواصل جملة بدأتها أنت:

- الفن هو كل ما يهزنا . . وليس بالضرورة كل ما نفهمه!

نظرنا إلى معاً بشيء من الدهشة، وقبل أن تقولي شيئاً، كانت
عيناك تكتشفان في نظرة خاطفة، ذراع جاكيتي الفارغة والمختبئ كـمه
بحياء في جيب سرتي .

كانت تلك بطاقة تعريفني وأوراقي الثبوتية .
مددت نحوي يدك مصافحة وقلت بحرارة فاجأتني :
- كنت أريد أن أهتلك على هذا المعرض . .
وقبل أن تصلني كلماتك . . كان نظري قد توقّف عند ذلك السوار
الذي يزيّن معصمك العاري الممدود نحوي .

كان إحدى الحليّ القسنطينيّة التي تُعرف من ذهبها الأصفر
المضفور، ومن نقشتها المميّزة . تلك «الخلاخل» التي لم يكن يخلو منها في
الماضي، جهاز عروس ولا معصم امرأة من الشرق الجزائري .

مددت يدي إليك دون أن أرفع عيني تماماً عنه . وفي عمر لحظة،
عادت ذاكرتي عمراً إلى الوراء . إلى معصم (أمّا) الذي لم يفارقه هذا
السوار قطّ .

وداهمني شعور غامض، منذ متى لم يستوقف نظري سوار
كهذا ؟

لم أعد أذكر . . ربّما منذ أكثر من ثلاثين سنة !
بكثير من اللباقة سحبت يدك التي كنت أشدّ عليها ربّما دون أن
أدري، وكأنّني أمسك بشيء ما، استعدّته فجأة .
وابتسمت لي . .

رفعت عيني نحوك لأول مرّة .
تقاطعت نظراتنا في نصف نظرة .
كنت تتأملين ذراعيّ الناقصة، وأتأمل سواراً بيدك .
كان كلانا يحمل ذاكرته فوقه . .
وكان يمكن لنا أن نتعرّف على بعضنا بهذه الطريقة فقط . ولكن

كنت لغزاً لا تزيد التفاصيل إلا غموضاً. فرحت أراهن على اكتشافك. أتفحصك مأخوذاً مرتبكاً. كأنني أعرفك وأتعرّف عليك في آن واحد.

لم تكوني جميلة ذلك الجمال الذي يبهّر، ذلك الجمال الذي يخيف ويربك.

كنت فتاة عادية، ولكن بتفاصيل غير عادية، بسرّ ما يكمن في مكان ما من وجهك. ربّما في جبهتك العالية وحاجبيك السميكين والمتروكين على استدارتها الطبيعية. وربّما في ابتسامتك الغامضة وشفتيك المرسومتين بأحمر شفاه فاتح كدعوة سرّية لقبلة. أو ربّما في عينيك الواسعتين ولونها العسليّ المتقلب. وكنت أعرف هذه التفاصيل.

أعرفها. ولكن كيف؟

وجاء صوتك بالفرنسيّة يخرجني من تفكيري قلت:
- يسعدني أن يصل فنّان جزائري إلى هذه القمة من الإبداع.
ثم أضفت بمسحة خجل:

- في الحقيقة. أنا لا أفهم كثيراً في الرسم، ولم أزر إلا نادراً معارض فنيّة، ولكن يمكنني أن أحكم على الأشياء الجميلة، ولوحاتك شيء مميّز. كنّا في حاجة إلى شيء جديد بنكهة جزائرية معاصرة كهذه. لقد كنت أقول هذا لابنة عمّي عندما فاجأتنا.

وعندها تقدّمت تلك الفتاة منّي لتصافحني، وتقدّم لي نفسها، وكأنّها بذلك ستصبح طرفاً في وقتنا، وذلك الحوار الذي وجدت نفسها خارجه بعدما تجاهلتها منذ البدء دون أن أدري.

قالت وهي تعرّفني بنفسها:

- الآنسة عبد المولى . إنني سعيدة بلقائك . .
انتفضت لسماع ذلك الاسم .
ونظرت مدهوشاً إلى تلك الفتاة التي صافحتني بحرارة لا تخلو من
شيء من الغرور . .
تفحصتها وكأنني أكتشف وجودها ، ثم عدت لأتأملك عساني أجد
في ملامحكما جواباً لدهشتي .
عبد المولى عبد المولى . .
وراحت الذاكرة تبحث عن جواب لتلك المصادفة . .
كنت أعرف عائلة عبد المولى جيداً .
إنهما أخوان لا أكثر . أحدهما (سي طاهر) استشهد منذ أكثر من
عشرين سنة ، وترك صبيّاً وبتاً فقط .
والآخر (سي الشريف) تزوّج قبل الاستقلال ، وقد يكون له اليوم
عدة أولاد وبنات . .
فمن منكما ابنة (سي الطاهر) . . . تلك التي حملت اسمها وصية
من الجبهة حتى تونس . . ونبت عن أبيها في دار البلدية ، لتسجيلها
رسمياً في سجلّ الولادات ؟
من منكما تلك الصغيرة التي قبّلتها نيابة عن أبيها ، ولاعبتها
ودلّلتها نيابة عنه ؟
من منكما . . . أنت ؟
وبرغم بعض الخطوط المشتركة للمحكما ، كنت أشعر أنك أنت . .
لا تلك .
أو هكذا كنت أتمنى ، وأنا أحلم قبل الأوان بقرابة ما تكون جمعتني
بك .
وأندش لهذه المصادفة ، وأجد فجأة تبريراً لوجهك المحبّب إليّ

مسبقاً. لقد كنت نسخة عن (سي طاهر)، نسخة أكثر جاذبية.
كنت أنثى.

ولكن... أيعقل أن تكوني أنت الطفلة التي رأيتهَا لآخر مرّة في
تونس سنة (١٩٦٢) غداة الاستقلال، عندما رحّت أطمئنّ عليكم
كالعادة، وأتابع بنفسي تفاصيل عودتكم إلى الجزائر؟ بعدما اتصل بي
(سي الشريف) من قسنطينة، ليطلب مني بيع ذلك البيت الذي لم
يعد هناك ضرورة لوجوده، والذي اشتراه (سي الطاهر) منذ عدّة
سنوات ليهرب إليه أسرته الصغيرة، عندما أبعده فرنسا عن الجزائر
في الخمسينات، بعد عدّة أشهر من السجن قضاها بتهمة التحريض
السياسي.

كم كان عمرك وقتها؟
أيعقل أن تكوني تغيّرت إلى هذا الحدّ... وكبرت إلى هذا الحدّ...
خلال عشرين سنة؟!

رحت أناملك مرّة أخرى، وكأنّني أرفض أن أعترف بعمرك، وربّما
أرفض أن أعترف بعمرّي وبالرجل الذي أصبحته منذ ذلك الزمن
الذي يبدو لي اليوم غابراً.

ما الذي أوصلك إلى هذه المدينة... وإلى هذه القاعة في هذا
الزمن وهذا اليوم بالذات؟

يوم انتظرت طويلاً لسبب لا علاقة له بك...
وحسبت له ألف حساب لم تكوني ضمنه...
وتوقّعت فيه كلّ المفاجآت إلّا أن تكوني أنت مفاجاتي.

فجأة أذهلني اكتشاف، وخفت من مواجهة عينيك اللتين كانتا
تتابعان بشيء من الدهشة ارتباكاً. فقرّرت أن أطرح سؤالاً

بالمقلوب، وأنا أوصل حديثي مع الفتاة الأخرى التي قدّمت لي نفسها. كنت أعرف أنني إذا عرفتُها سينحلّ اللغز، وأعرف تلقائياً من منكما.. أنت.

فقد كان لإحداكما اسم أعرفه منذ خمس وعشرين سنة، وعليّ فقط أن أتعرّف على صاحبه.
سألتهما:

- هل لديك قرابة بسي الشريف عبد المولى؟
أجابت بسعادة وكأنّها تكتشف أنّ أمرها يعني:
- إنه أي.. لقد تعذّر عليه الحضور اليوم بسبب وصول وفد من الجزائر البارحة.. لقد حدّثنا عنك كثيراً. وقد أثار فضولنا لمعرفةك لدرجة قرّرنا أن نأتي مكانه اليوم لحضور الافتتاح!
كان كلام تلك الفتاة على تلقائيتها يحمل لي جوابين. الأول أنّها لم تكن أنت، والثاني سبب تخلف (سي الشريف).

كنت لاحظت غيابه وتساءلت عن سببه، هل كان المانع شخصياً، أم سياسياً.. أم تراه كان لسبب ما يتحاشى الظهور معي؟
كنت أدري أنّ طرفنا تقاطعت منذ سنين عندما دخل دهايز اللّعبة السياسيّة، وأصبح هدفه الوحيد الوصول إلى الصفوف الأماميّة. ورغم ذلك لم يكن بإمكانه أن أتجاهل وجوده معي في المدينة نفسها. فقد كان جزءاً من شبابي وطفولتي.. وكان بعض ذاكرتي.
ولذا، ولأسباب عاطفيّة محض، كان الشخصيّة الجزائريّة الوحيدة التي دعوتها.

لم ألتق به منذ عدّة سنوات، ولكن أخباره كانت تصلني دائماً منذ عُن، قبل سنتين، ملحقاً في السفارة الجزائريّة، وهو منصب ككلّ

المناصب «الخارجية»، يتطلب كثيراً من الوساطة والأكثاف العريضة .
وكان بإمكان (سي الشريف) أن يشق طريقه إلى هذا المنصب
ولاهم منه بماضيه فقط، وباسمه الذي خلده سي الطاهر باستشهاده .
ولكن يبدو أن الماضي لم يكن كافياً بمفرده لضمان الحاضر، وكان عليه
أن يتأقلم مع كل الرياح للوصول . .

خطر ببالي كل ذلك، وأنا أحاول بدوري أن أتأقلم مع كل
المفاجآت والانفعالات التي هزّتني في بضع لحظات، والتي كانت
بدايتها أنني وددت أن أسلم على فتاة جميلة تزور معرضي لا غير . .
فلماذا بي أسلم على ذاكرتي!

وعدت إلى دهشتي الأولى معك . .
إلى كل التفاصيل الأولى التي لفتت نظري إليك منذ البدء . إلى
تلك اللوحة بالذات التي توقفت طويلاً أمامها . لقد كان هناك أكثر
من قدر، أكثر من مكتوب . . أكثر من مصادفة .
أنت . .

أكنت أنت . . في قاعة تتفرّجين فيها على لوحاتي . تتأملين بعضها،
تتوقّفين عند بعضها الآخر، وتعودين إلى الدليل الذي تمسكينه بيدك
لتعرّفي على أسماء اللوحات التي تلفت نظرك الأكثر؟
أنت . .

تراك أنت . . نور آخر يضيء كل لوحة تَمُرّين بها، فتبدو الأضواء
الموجّهة نحو اللوحات، وكأنها موجّهة نحوك . . وكأنك كنت اللوحة
الأصلية .

أنت إذن . .
تتوقّفين أمام لوحة صغيرة لم تستوقف أحداً . تتأملينها بإمعان أكبر،

تقترين منها أكثر، وتبحثين عن اسمها في قائمة اللوحات.
ولحظتها سرت في جسدي قشعريرة مبهمة. واستيقظ فضول
الرَّسَّام المجنون داخلي..

من تكونين، أنت الواقعة أمام أحبِّ لوحاتي لي..؟
رحت أنا مُلك مرتبكاً وأنت تتأملينها.. وتقولين لرفيقتك كلاماً لا
يصلني شيء منه.
ما الذي أوقفك أمامها؟

لم تكن أجمل ما في القاعة من لوحات، كانت لوحتي الأولى وعمري
الأول في الرسم فقط..
ولكنني أصررت هذه المرَّة، على أن تكون حاضرة في معرضي الأهم
هذا، لأنني اعتبرتها برغم بساطتها، معجزتي الصغيرة.
رسمتها منذ خمس وعشرين سنة، وكان مرَّ على بتر ذراعي اليسرى أقلَّ
من شهر.

لم تكن محاولة للإبداع ولا لدخول التاريخ. كانت محاولة للحياة
فقط، والخروج من اليأس. رسمتها كما يرسم تلميذ في امتحان
للرسم منظرًا ليحبيب على ورقة الأستاذ:
«ارسم أقرب منظر إلى نفسك».

إنَّها الجملة التي قالها لي ذلك الطبيب اليوغسلافي الذي قدم مع
بعض الأطباء من الدول الاشتراكية إلى تونس، لمعالجة الجرحى
الجزائريين، والذي أشرف على عملية بتر ذراعي وظلَّ يتابع تطوُّراتي
الصحية والنفسية فيما بعد.

كان يسألني كلَّ مرَّة أزوره فيها عن اهتماماتي الجديدة، وهو يلاحظ
إحباطي النفسي المستمرَّ.

لم أكن مريضاً ليحتفظ بي الطبيب في مستشفى ، ولا كنت معاق
بمعنى الكلمة لأبدأ حياتي الجديدة .

كنت أعيش في تونس ، ابناً لذلك الوطن وغريباً في الوقت نفسه ؛
حرّاً ومقيّداً في الوقت نفسه ؛ سعيداً وتعبساً في الوقت نفسه .
كنت الرجل الذي رفضه الموت ورفضته الحياة . كنت كرة صوف
متداخلة . . فمن أين يمكن لذلك الطبيب أن يجد رأس الخيط الذي
يحلّ به كلّ عقدي ؟

وعندما سألتني ذات مرّة ، وهو يكتشف ثقافتي ، هل كنت أحبّ
الكتابة أو الرسم ، تمسّكت بسؤاله وكأنني أتمسّك بقشة قد تنقذني من
الغرق ، وأدركت فوراً الوصفة الطيبة التي كان يعدها لي .
قال :

- إنّ العمليّة التي أجريتها عليك ، أجريت مثلها عشرات المرات
على جرحى كثيرين فقدوا في الحرب ساقاً أو ذراعاً ، وإذا كانت
العمليّة لا تختلف ، فإنّ تأثيرها النفسي يختلف من شخص إلى آخر ،
حسب عمر المريض ووظيفته وحياته الاجتماعية . . وخاصة حسب
مستواه الثقافي ، فوحده المثقّف يعيد النظر في نفسه كلّ يوم ، ويعيد
النظر في علاقته مع العالم ومع الأشياء كلّما تغيّر شيء في حياته . .

لقد أدركت هذا من تجربتي في هذا الميدان . لقد مرّت بي أكثر من
حالة من هذا النوع ، ولذا أعتقد أنّ فقدانك ذراعك قد أدخل
بعلاقتك بما هو حولك . وعليك أن تعيد بناء علاقة جديدة مع العالم
من خلال الكتابة أو الرسم . .

عليك أن تختار ما هو أقرب إلى نفسك ، وتجلس لتكتب دون قيود
كلّ ما يدور في ذهنك . ولا تهتمّ نوعيّة تلك الكتابة ولا مستواها

الأدبي... المهّم الكتابة في حدّ ذاتها كوسيلة تفريغ، وأداة ترميم داخلي... .

وإذا كنت تفضّل الرسم فارسم... الرسم أيضاً قادر على أن يصالحك مع الأشياء ومع العالم الذي تغيّر في نظرك، لأنك أنت تغيّرت وأصبحت تشاهده وتلمسه بيد واحدة فقط... .

وكان يمكن أن أجيئه ذلك اليوم بملقائية... . إنني أحبّ الكتابة، وأنها الأقرب إلى نفسي، مادمت لم أفعل شيئاً طوال حياتي، سوى القراءة التي تؤدّي تلقائياً إلى الكتابة.

كان يمكن أن أجيئه كذلك، فقد تنبّأ لي أساتذتي دائماً بمستقبل ناجح... . في الأدب الفرنسي!

ولهذا ربّما أجيئه دون تفكير، أو ربّما بموقف اكتشفت فيما بعد أنّه كان جاهزاً في أعماقي:

- أفضل الرسم... .

لم تقنعه جلتي المقتضبة فسألني إن كنت رسمت قبل اليوم... . قلت: «لا...» .

قال: «إذن ابدأ برسم أقرب شيء إلى نفسك... . ارسم أحبّ شيء إليك...» .

وعندما ودّعني قال بسخرية الأطباء عندما يعترفون بعجزهم بلباقة: «ارسم... . فقد لا تكون في حاجة إليّ بعد اليوم!» .

عدت يومها إلى غرفتي مسرعاً أريد أن أدخلو لنفسي بين تلك الجدران البيضاء، التي كانت استمراراً لجدران مستشفى «الحبيب ثامر» الذي كان حتّى ذلك الوقت، المكان الذي أعرفه الأكثر في تونس.

رحت يومها أتأمل تلك الجدران على غير عادتي، وأنا أفكر في كل ما يمكن أن أعلق عليها من لوحات بعد اليوم. كل وجه من أحب. كل الأزقة التي أحب. كل ما تركته خلفي هناك.

نمت في تلك الليلة قلقاً، وربما لم أنم. كان صوت ذلك الطبيب يحضرنى بفرنسيته المكسرة ليوقظني «ارسم». كنت أستعيده داخل بدلة البيضاء، يودعني وهو يشد على يدي «ارسم». فتعبر شعيرية غامضة جسدي وأنا أتذكر في غفوتي أول سورة للقرآن. يوم نزل جبرائيل عليه السلام على محمد لأول مرة فقال له «اقرأ» فسأله النبي مرتعداً من الرهبة. «ماذا أقرأ؟» فقال جبريل «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، وراح يقرأ عليه أول سورة للقرآن. وعندما انتهى عاد النبي إلى زوجته وجسده يرتعد من هول ما سمع. وما كاد يراها حتى صاح «دثريني.. دثريني...».

كنت ذلك المساء أشعر برجفة الحمى الباردة. وبرعشة ربما كان سببها توترني النفسي يومها، وقلقي بعد ذلك اللقاء الذي كنت أعرف أنه آخر لقاء لي مع الطبيب. وربما أيضاً بسبب ذلك الغطاء الخفيف الذي كان غطائي الوحيد في أوج الشتاء القارس، والذي لم يمنحني مستأجري البخيل غيره.

وكدت أصرخ وأنا أتذكر فراش طفولتي. وتلك «البطانية» الصوفية التي كانت غطائي في مواسم البرد القسطنطيني، كدت أصرخ في ليل غربي.. «دثريني قسنطينة.. دثريني..» ولكن لم أقل شيئاً ليلتها، لا لقسنطينة ولا لصاحب الغرفة البائس. احتفظت بحماي وبرودتي لنفسني. صعب على رجل عائد لتوه من الجبهة، أن يعترف حتى لنفسه بالبرد..

انتظرت فقط طلوع الصباح لأشتري بما تبقى في جيبي من أوراق نقدية ما أحتاج إليه لرسم لوحين أو ثلاث. ووقفت كمجنون على عجل أرسم «قنطرة الجبال» في قسنطينة..

أكان ذلك الجسر أحب شيء إليّ حقاً، لأقف بتلقائية لأرسمه وكأنني وقفت لأجتازه كالعادة؟ أم تراه كان أسهل شيء للرسم فقط؟ لا أدري..

أدري أنني رسمته مرّات ومرّات بعد ذلك، وكأنني أرسمه كلّ مرة لأول مرّة. وكأنّه أحب شيء لديّ كلّ مرّة.

خمس وعشرون سنة، عمر اللوحة التي أسميتها دون كثير من التفكير «حنين». لوحة لشاب في السابعة والعشرين من عمره، كان أنا بغربته وبحزنه وبقهره.

وها أنا ذا اليوم، في غربة أخرى وبحزن وبقهر آخر.. ولكن بربع قرن إضافي، كان لي فيه كثير من الخيبات والهزائم الذاتية.. وقليل من الانتصارات الاستثنائية.

ها أنا اليوم أحد كبار الرّسّامين الجزائريّين، وربما كنت أكبرهم على الإطلاق؛ كما تشهد بذلك أقوال النقاد الغربيّين الذين نقلت شهادتهم بحروف بارزة على بطاقات دعوة الافتتاح.

ها أنا اليوم... نبيّ صغير نزل عليه الوحي ذات خريف في غرفة صغيرة بائسة، في شارع «باب سوقة» بتونس.
ها أنا نبيّ خارج وطنه كالعادة.. وكيف لا ولا كرامة لنبيّ في وطنه؟

ها أنا «ظاهرة فنيّة»، كيف لا وقد رذّي العامة أن يكون «ظاهرة» وأن يكون جباراً ولو بفنّه؟

ها أنا ذا . .

فأين هو ذلك الطبيب الذي نصحني بالرسم ذات مرة؟ والذي صدقت نبوءته ولم أعد أحتاج إليه بعد ذلك اليوم؟ إنه الغائب الوحيد في هذه القاعة الشاسعة التي لم يسبق لأي عربي أن عرض فيها لوحاته قبلي. أين هو الدكتور «كابوتسكي» ليرى ماذا فعلت بيدي واحدة . . ذلك الذي لم أسأله يوماً ماذا فعل بيدي الأخرى!

وها هي «حنين» لوحتي الأولى، وجوار تاريخ رسمها (تونس ٥٧) توقيع الذي وضعته لأول مرة أسفل لوحة. تماماً كما وضعته أسفل اسمك، وتاريخ ميلادك الجديد، ذات خريف من سنة ١٩٥٧، وأنا أسجلك في دار البلدية لأول مرة . .

من منكما طفليتي . . ومن منكما حبيبي؟ سؤال لم يخطر على بالي ذلك اليوم، وأنا أراك تقفين أمام تلك اللوحة لأول مرة . . لوحة في عمرك . . تكبرينها - رسمياً - ببضعة أيام . . وتصغرك في الواقع ببضعة أشهر لا غير.

لوحة كانت بدايتي مرتين . . مرة يوم أمسكت بفرشاة لأبدأ معها مغامرة الرسم . . ومرة يوم وقفت أنت أمامها، وإذا بي أدخل في مغامرة مع القدر . .

على مفكرة ملأى بمواعيد وعناوين لا أهمية لها، وضعت دائرة حول تاريخ ذلك اليوم: نيسان ١٩٨١، وكأنني أريد أن أميزه عن بقية الأيام. قبل ذلك اليوم، لم أجد في سنواتي الماضية ما يستحق التميز. فقد كانت أيامي مثل أوراق مفكرتي ملأى بمسودات لا تستحق الذكر. وكنت أملاها غالباً كي لا أتركها بيضاء، فقد كان اللون الأبيض يخيفني دائماً عندما يكون على مساحة ورق.

ثماني مفكرات لثماني سنوات، لم يكن فيها ما يستحق الدهشة. جميعها صفحة واحدة لمفكرة واحدة لا تاريخ لها سوى الغربية. غربة كنت أحاول أن أختصرها بعملية حسابية كاذبة، تتحول فيها السنوات إلى ثماني مفكرات لا غير، مازالت مكدسة في خزانتي الواحدة فوق الأخرى... مسجلة لا حسب تواريخها الميلادية أو الهجرية... إنما حسب أرقام سنوات هجري الاختيارية.

أضع دائرة حول تاريخ ذلك اليوم، وكأنني أغلق عليك داخل تلك الدائرة. كأنني أطوقك وأطارد ذكراك لتدخلني دائرة ضوئي إلى الأبد.

كنت أنصرف عن حدس مسبق، وكأن هذا التاريخ سيكون منعطفاً للذاكرة؛ كأنه سيكون ميلادي الآخر على يدك. وكنت أعني وقتها تماماً أن الولادة على يدك كالوصول إليك أمر لن يكون سهلاً.

يشهد على ذلك غياب رقمك الهاتفية وعنوانك من تلك الصفحة التي لم تكن تحمل في النهاية سوى تاريخ لقائك. فهل كان من

المنطقي أن أطلب منك رقم هاتفك في لقائنا الأول أو صدفتنا الأولى
تلك.. وبأي مبرر وبأيّة حجة سأفعل ذلك، وكلّ الأسباب تبدو
ملفّقة عندما يطلب رجل من فتاة جميلة رقم هاتفها؟

كنت أشعر برغبة في الجلوس إليك.. في التحدّث والاستماع
إليك.. عساقي أتعرف على النسخة الأخرى لذاكرتي. ولكن كيف
أقنعك بذلك؟ كيف أشرح لك في لحظات أني أعرف الكثير عنك،
أنا الرجل الذي تقابلينه لأول مرة، والذي تتحدّثين إليه كما تتحدّث
بالفرنسيّة للغرباء بضمير الجمع.. فلا أملك إلا أن أجيبك بنفس
كلام الغرباء بالجمع..

كانت الكلمات تتعزّ يومها على لساني، وكأنني أتحدّث لك بلغة لا
أعرفها.. بلغة لا تعرف شيئاً عنها. أيعقل بعد عشرين سنة أن
أصافحك وأسالك بلغة فرنسيّة محايدة..

- Mais comment allez-vous mademoiselle?

فتردّين عليّ بنفس المسافة اللغويّة:

- Bien.. je vous remercie..

وتكاد تجهش الذاكرة بالبكاء.. تلك التي عرفتك طفلة تجبو.
تكاد ترتعش ذراعي الوحيدة وهي تقاوم رغبة جامحة لاحتضانك،
وسؤالك بلهجة قسنطينيّة افتقدتها..

- واشك..؟

آه واشك.. أيتها الصغيرة التي كبرت في غفلة مني.. كيف أنت
أيتها الزائرة الغريبة التي لم تعد تعرفني. يا طفلة تلبس ذاكرتي،
وتحمل في معصمها سواراً كان لأمي؟

دعيني أضمّ كلّ من أحببتهم فيك. أناملك وأستعيد ملامح (سي

الظاهر في ابتسامتك ولون عينيك . فما أجل أن يعود الشهداء هكذا
في طلتك . ما أجل أن تعود أمي في سوار بمعصمك ؛ ويعود الوطن
اليوم في مقدمك . وما أجل أن تكوني أنت . . هي أنت !
أتدري . .

(إذا صادف الإنسان شيء جميل مفرط في الجمال . . رغب في
البكاء . .)

ومصادفتك أجل ما حلّ بي منذ عمر .
كيف أشرح لك كلّ هذا مرّة واحدة . . ونحن وقوف تتقاسمنا
الأعين والأسماع ؟
كيف أشرح لك أنني كنت مشتاقاً إليك دون أن أدري . . أنني
كنت أنتظرِكَ دون أن أصدّق ذلك ؟
وأنّه لا بدّ أن نلتقي .

أجمع حصيلة ذلك اللقاء الأوّل . .
ربع ساعة من الحديث أو أكثر . تحدّثت فيها أنا أكثر ممّا تحدّثت
أنت . حماقة ندمت عليها فيما بعد . كنت في الواقع أحاول أن
استبقيك بالكلمات . نسيت أن أمنحك فرصة أكثر للحديث .
كنت سعيداً وأنا أكتشف شغفك بالفنّ . . كنت على استعداد
لمناقشتي طويلاً في كلّ لوحة ، كان كلّ شيء معك قابلاً للجدل .
وأما أنا فكنت لحظتها لا أرغب سوى في الحديث عنك . وحده
وجودك كان يثير شهيتي للكلام .

ولأنّه لم يكن في الوقت متسع لأسرد عليك فصول قصّتي المتقاطعة
مع قصّتك ، اكتفيت بجملتين أو ثلاث عن علاقتي القديمة بأبيك . .
وعن طفولتك الأولى . . وعن لوحة قلت إنّك أحببتها ، وقلت لك . .
إنّها توأمك !

اخترت جملي بكثير من الاقتضاب.. وكثير من الذكاء. تركت بين الكلمات كثيراً من نقط الانقطاع.. لإشعارك بثقل الصمت الذي لم تملأه الكلمات.

لم أكن أريد أن أنفق ورقتي الوحيدة معك في يوم واحد على عجل.

كنت أريد أن أوقف فضولك لمعرفة أكثر، لكي أضمن عودتك لي ثانية. وعندما سألتني «هل ستكون موجوداً هنا طوال فترة المعرض؟» أدركت أنني نجحت في أول امتحان معك، وأنا أجعلك تفكرين في لقائي مرة ثانية. ولكنني قلت بصوت طبيعي لا علاقة له بزلزلي الداخلية:

«سأكون هنا بعد الظهر في أغلب الأحيان..» ثم أضفت وأنا أكتشف أن جوابي قد لا يشجعك على زيارة قد أكون غائباً عنها: «ومن الأرجح أن أكون هنا كل يوم، فستكون لي مواعيد كثيرة مع الصحافيين والأصدقاء..».

كان في ذلك الكلام شيء من الحقيقة. ولكنني لم أكن في الواقع مضطراً للبقاء طوال الوقت في المعرض. كنت فقط أحاول ألا أجعلك تعودين عن قرارك لسبب ما.

قلت وأنت تتحدثين لي فجأة بطريقة الأصدقاء القدامى: «قد أعود لزيارة المعرض يوم الاثنين القادم.. إنه اليوم الذي لا دروس لي فيه. في الحقيقة أنا حضرت اليوم عن فضول فقط.. ويسعدني أن أتحدث إليك أكثر..».

تدخلت ابنة عمك، وكأنها تعتذر، وربما تتحسر لأنها لن تكون طرفاً في ذلك اللقاء:

«خسارة.. إنه اليوم الأكثر مشاغل بالنسبة لي.. لن يمكنني أن أرافقك، ولكن قد أعود أنا أيضاً في يوم آخر.» ثم التفتت نحوي سائلة:

«متى ينتهي المرض؟»

قلت:

«في ٢٥ نيسان.. أي بعد عشرة أيام..»

صاحت:

«عظيم.. سأجد فرصة للعودة لمرة أخرى..»

تنفست الصعداء.

المهم أن أراك مرة واحدة على انفراد، وبعدها سيصبح كل شيء أسهل.

تزودت منك بآخر نظرة، وأنت تصافحيني قبل أن تنسحبي.

كان في عينيك دعوة لشيء ما..

كان فيهما وعد غامض بقصة ما..

كان فيهما شيء من الغرق اللذيذ المحبب.. وربما نظرة اعتذار مسبقاً عن كل ما سيحلّ بي من كوارث بعد ذلك بسببهما.

وكنت أعني في تلك اللحظة، وذلك اللون الأبيض يوليني ظهره ملتقاً بشال شعره الأسود.. وبيتعد عني تدريجياً ليختلط بأكثر من لون، أنني سواء رأيتك أم لم أرك بعد اليوم، فقد أحبيتك.. وانتهى الأمر.

غادرت القاعة إذن مثلما جئت.. ضوءاً يشق الطريق انبهاراً عند مروره.. متألقاً في انسحابه كما في قدومه.

يجرّ خلفه أكثر من قوس قزح.. وذيلًا من مشاريع الأحلام.

ما الذي أعرفه عنك؟

شيئان أو ثلاثة. . أعدتها على نفسي بعد ذلك عدة مرّات، لأتبع نفسي أنك لم تكوني «نجماً مذنباً» عابراً كذاك الذي يضيء في الأمسيات الصيفية، ويختفي قبل أن يتمكن الفلكيون من مطاردته بمظارهم، والذي يسمونه في قواميس الفلك. . «النجم الهارب»!

لا. . لن تهربي مني، وتختفي في شوارع باريس وأزقتها المشعبة بهذه السهولة. أعرف على الأقل أنك تعدين شهادة ما في المدرسة العليا للدراسات، وأنك في السنة الأخيرة للدراسة، وأنك في باريس منذ أربع سنوات، وتقيمين عند عمك منذ عيّني في باريس أي منذ ستين. معلومات قد تكون هزيلة، ولكنها تكفي للعشور عليك بأية طريقة.

كانت الأيام الفاصلة بين يوم الجمعة ويوم الاثنين تبدو طويلة وكأنها لا تنتهي. وكنت بدأت في العدّ العكسي منذ تلك اللحظة التي غادرت فيها القاعة، رحت أعدّ الأيام الفاصلة بين يوم الجمعة ويوم الاثنين. تارة أعدّها فتبدو لي أربعة أيام، ثم أعود وأختصر الجمعة الذي كان على وشك أن ينتهي، والاثنين الذي سأراك فيه، فتبدو لي المسافة أقصر وأبدو أنا أقدر على التحمّل، إنها يومان فقط هما السبت والأحد.

ثم أعود فأعدّ الليالي. . فتبدو لي ثلاث ليالٍ كاملة، هي الجمعة والسبت والأحد، أتساءل وأنا أتوقّع مسبقاً طولها، كيف سأقضيها؟ ويحضرني ذلك البيت الشعري القديم الذي لم أصدقه من قبل:

أعدّ الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرًا لا أعد الليالي
تري أهكذا يبدأ الحبّ دائماً، عندما نبدأ في استبدال مقاييسنا

الخاصة، بالمقاييس المتفق عليها، وإذا بالزمن فترة من العمر، لا علاقة لها بالوقت؟

في ذلك اليوم، سعدت وأنا أرى «كاترين» تدخل القاعة. جاءت متأخرة كما كنت أتوقع. أنيقة كما كنت أتوقع. داخل فستان أصفر ناعم، تطير داخله كفراشة. قالت وهي تضع قبلة على خدي:

- لقد وصلت متأخرة.. كان هناك ازدحام في الطريق كالعادة في مثل هذا الوقت.

كانت كاترين تسكن الضاحية الجنوبية لباريس. وكانت المواصلات تتضاعف في نهاية الأسبوع، في تلك الطرقات الرابطة بين باريس وضواحيها، والتي يسلكها الباريسيون لقضاء الأسبوع في بيوتهم الريفية. ولكن لم يكن ذلك السبب الوحيد لتأخرها. كنت أعرف أنها تكره اللقاءات العامة، أو تكره كما استنتجت أن تظهر معي في الأماكن العامة. ربما كانت تخجل أن يراها بعض معارفها وهي مع رجل عربي، يكبرها بعشر سنوات، وينقصها بذراع!

كانت تحب أن تلتقي بي، ولكن دائماً في بيتي أو بيتها، بعيداً عن الأضواء، وبعيداً عن العيون، هنالك فقط كانت تبدو تلقائية في مرحها وفي تصرفاتها معي. ويكفي أن ننزل معاً لتناول وجبة غداء في المطعم المجاور، ليبدو عليها شيء من الارتباك والتصنع، ويصبح همها الوحيد أن نعود إلى البيت.

وهكذا تعودت عندما تحضر أن أشتري مسبقاً ما يكفي من الأكل لقضاء يوم أو يومين معاً. لم أعد أناقشها ولا أقترح عليها شيئاً. كان ذلك أوفر وأكثر راحة لي، فلماذا كل هذا الجدل؟

قالت كاترين بصوت أعلى من العادة وهي تمسك بذراعي وتلقي
نظرة على اللوحات المعلقة التي كانت تعرفها جميعاً:
- برافو خالد، أهنتك.. رائع كل هذا.. أيها العزيز.

تعجبت شيئاً ما، كانت تتحدث هذه المرة وكأنها تريد أن يعرف
الآخرون أنها صديقتي أو حبيبتي.. أو أي شيء من هذا القبيل.

ما الذي غير سلوكها فجأة، هل منظر ذلك الحشد من
الشخصيات الفنية والصحافيين الذين حضروا الافتتاح.. أم أنها
اكتشفت في هذا المكان، أنها كانت منذ سنتين تضاجع عبقرياً دون
أن تدري، وأن ذراعي الناقصة التي كانت تضايقها في ظروف
أخرى، تأخذ هنا بعداً فنياً فريداً لا علاقة له بالمقاييس الجمالية؟

اكتشفت لحظتها، أنني خلال الخمس والعشرين سنة التي عشتها
بذراع واحدة، لم يحدث أنني نسيت عاهتي إلا في قاعات العرض.

في تلك اللحظات التي كانت فيها العيون تنظر إلى اللوحات،
وتنسى أن تنظر إلى ذراعي. أو ربما في السنوات الأولى للاستقلال..
وقتها كان للمحارب هيئته، ولمعطوي الحروب شيء من القداسة بين
الناس. كانوا يوحون بالاحترام أكثر مما يوحون بالشفقة. ولم تكن
مطالباً بتقديم أي شرح ولا أي سرد لقصتك.

كنت تحمل ذاكرتك على جسدك، ولم يكن ذلك يتطلب أي
تفسير.

اليوم بعد ربع قرن..، أنت تخجل من ذراع بدلتك الفارغ الذي
تحفيه بحياء في جيب سترتك، وكأنك تخفي ذاكرتك الشخصية،
وتعتذر عن ماضيك لكل من لا ماضي لهم.

يدك الناقصة تزعجهم . تفسد على البعض راحتهم . تفقدهم
شهيتهم .

ليس هذا الزمن لك ، إنه زمن لما بعد الحرب .
للبدلات الأنيقة والسيارات الفخمة . . والبطون المتنفخة . ولذا
كثيراً ما نخجل من ذراعك وهي ترافقك في الميترو وفي المطعم وفي
المقهى وفي الطائرة وفي حفل تدعى إليه . تشعر أن الناس ينتظرون
منك في كل مرة أن تسرد عليهم قصتك .
كلّ العيون المستديرة دهشة ، تسألك سؤالاً واحداً نخجل الشفاه
من طرحه : «كيف حدث هذا؟» .

ويحدث أن نخزن ، وأنت تأخذ الميترو وتمسك بيدك القريدة
الذراع المعلقة للركاب . ثم تقرأ على بعض الكراسي تلك العبارة :
«أماكن محجوزة لمعطوي الحرب والحوامل . .» .
لا ليست هذه الأماكن لك . شيء من العزة ، من بقايا شهامة ،
تجعلك تفضل البقاء واقفاً معلقاً بيد واحدة .
إنها أماكن محجوزة لمحاربين غيرك ، حاربهم لم تكن حريك ،
وجراحهم ربما كانت على يدك .
أما جراحك أنت . . فغير معترف بها هنا .
ها أنت أمام جدلية عجيبة . .

تعيش في بلد يحترم موهبتك ويرفض جُروحك . وتنتمي لوطن ،
يحترم جراحك ويرفضك أنت . فأيتها تختار . . وأنت الرجل والجرح في
آن واحد . . وأنت الذاكرة المعطوبة التي ليس هذا الجسد المعطوب
سوى واجهة لها؟

أسئلة لم أكن أطرحها على نفسي في السابق . كنت أهرب منها

بالعمل فقط، والخلق المتواصل، وذلك الأرق الداخلي الدائم.

كان داخلي شيء لا ينام، شيء يواصل الرسم دائماً وكأنه يواصل الركض بي ليوصلني إلى هذه القاعة، حيث سأعيش لأيام رجلاً عادياً بذراعين، أو بالأحرى رجلاً فوق العادة..

رجلاً يسخر من هذا العالم بيد واحدة. ويعيد عجن تضاريس الأشياء بيد واحدة.

ها أنا ذا في هذه القاعة إذن.. وها هوذا جنوني معلق للفرجة على الجدران. تتفحصه العيون وتفسره الأفواه كيفما شاءت..

ولا أملك إلا أن أبتسم، وبعض تلك التعليقات المتناقضة تصل مسمي. وأتذكر قولاً ساخراً لـ «كونكور»:

«لا شيء يسمع الحماقات الأكثر في العالم.. مثل لوحة في متحف!».

جاء صوت كاترين خافتاً وكأنها تتحدث لي وحدي هذه المرة:

- عجيب.. إنني أرى هذه اللوحات وكأنني لا أعرفها، إنها هنا تبدو مختلفة..

كدت أجيها وأنا أواصل فكرة سابقة:

«إنّ للوحات مزاجها وعواطفها أيضاً.. إنها تماماً مثل الأشخاص. إنهم يتغيرون أول ما تضعينهم في قاعة تحت الأضواء!»

ولكنني لم أقل لها هذا.

قلت لها فقط:

- اللوحة أنثى كذلك.. تحب الأضواء وتتجمل لها، تحب أن ندللها ونمسح الغبار عنها، أن نرفعها عن الأرض ونرفع عنها اللحاف

الذي نعطىها به... تحب أن نعلقها في قاعة لتقاسمها الاعين حتى
ولو لم تكن معجبة بها..

إنها تكره في الواقع أن تعامل بتجاهل لا غير..
قالت وهي تفكر:

- صحيح ما تقوله.. من أين تأتي هذه الأفكار؟ أتدري أنني
أحب الاستماع إليك؟ لا أفهم كيف لا نجد أبداً وقتاً للحديث
عندما نلتقي.

وقبل أن أعلق على سؤالها بجواب مقنع جداً.. أضافت بنوايا
أعرفها وهي تضحك..

- متى ستعاملني أخيراً كلوحة؟
قلت وأنا أضحك لسرعة بدايتها.. ولشهيتها التي لا تشبع:
- هذا المساء إذا شئت..

وعندها أخذت كاترين مني مفاتيح البيت، وطارت كفراشة داخل
فستانها الأصفر نحو الباب.

قالت وكأنها شعرت فجأة بالفيرة من كل تلك اللوحات المعلقة
بعناية على الجدران، والتي مازال بعض الزوار يتأملونها:
- أنا متعبة بعض الشيء.. سأسبقك.

أكانت حقاً متعبة إلى هذا الحد، أم أصبحت فجأة تغار عليّ أو
تغار مني.. أم جاءتني بجوع مسبق؟. كالعادة، لم أحاول أن أتعمق
في فهمها.

كنت أريد فقط أن أستعين بها لأنسى. كنت سعيداً أن أختصر
معها يوماً أو يومين من الانتظار.. انتظارك أنت! وكنت في حاجة إلى

ليلة حبّ بعد شهر من الوحدة، والركض لإعداد كلّ تفاصيل هذا
المعرض.

لحقت بكاترين بعد ساعة.

كنت متعباً لأسباب كثيرة. أحدها لقائي العجيب بك وكلّ ما
عشته من هزّات نفسية ذلك اليوم.

قالت وهي تفتح لي الباب:

- إنك لم تتأخّر كثيراً..

قلت وأنا أداعبها:

- كان في ذهني مشروع لوحة.. فعدت مسرعاً إلى البيت..

الوحي لا يتظر كثيراً كما تعلمين!

ضحكنا..

كان بيننا تواطؤ جسدي ما، يشيع بيننا تلك البهجة الثنائية، تلك

السعادة السرية التي غارسها دون قيود.. بشرعية الجنون!

ولكن شعرت لحظتها وهي جالسة في الأريكة المقابلة لي تشاهد

الأخبار، وتلتهم (سندويتشاً) أحضرته معها، أنها امرأة كانت دائماً

على وشك أن تكون حبيبي، وأنها هذه المرة - كذلك - لن تكونها!

إنّ امرأة تعيش على «السندويشات» هي امرأة تعاني من عجز

عاطفي، ومن فائض في الأنانية.. ولذا لا يمكنها أن تهب رجلاً ما

يلزمه من أمان.

لبلتها، ادّعت أنني لست جائعاً.

في الحقيقة كنت رافضاً وربما عاجزاً عن الانتشاء لسزمن

«السندويشات».

وبرغم ذلك..

حاولت ألا أتوقف عند تلك التفاصيل التي كانت تستفز بدائقي في أول الأمر.

تعودت منذ تعرفت على كاترين ألا أبحث كثيراً عن أوجه الاختلاف بيننا. أن أحترم طريقتها في الحياة، ولا أحاول أن أصنع منها نسخة مني. بل إنني ربما كنت أحبها لأنها تختلف عني حدّ التناقض أحياناً.

فلا أجل من أن نلتقي بضدّك، فذلك وحده قادر على أن يجعلك تكتشف نفسك. وأعترف أنني مدين لكاترين بكثير من اكتشافاتي، فلا شيء كان يجمعني بهذه المرأة في النهاية، سوى شهوتنا المشتركة وحبنا المشترك للفن.

وكان كافياً لنكون سعيدين معاً.

تعودنا مع مرور الزمن ألا نزعج بعضنا بالأسئلة ولا بالتساؤلات. في البدء تأقلمت بصعوبة على هذا النمط العاطفي الذي لا مكان فيه للغيرة ولا للامتلاك.

ثم وجدت فيه حسنات كثيرة، أهمها الحرية.. وعدم الالتزام بشيء تجاه أحد..

كان يحدث أن نلتقي مرة في الأسبوع، كما يحدث أن تمرّ عذّة أسابيع قبل أن نلتقي.. ولكن كنّا نلتقي دائماً بشوق وبرغبة مشتركة.

كانت كاترين تقول «ينبغي ألا نقتل علاقتنا بالعادة»، ولهذا أجهدت نفسي حتى لا أعود عليها، وأن أكفي بأن أكون سعيداً عندما تأتي، وأن أنسى أنها مرّت من هنا عندما ترحل.

في تلك المرة حاولت أن أستبقها لقضاء كل نهاية الأسبوع معي،
وسعدت أن تقبل عرضي بحماس.

كنت في الواقع أخاف أن أبقى وحيداً مع ساعتي الجدارية في
انتظار يوم الاثنين.

ورغم أن كاترين ظلت معي حتى عشيّة الأحد، فإنّ الوقت بدا لي
طويلاً، وربما بدا لي طويلاً أكثر لأنها كانت معي. فقد بدأت فجأة
استعجل ذهابها وكأنني سأخلو بك عند ذلك.
كانت أفكاري تدور حول سؤال واحد.

ماذا أقول لك لو انفردت بك يوم الاثنين؟ من أين أبداً معك
الحديث. . وكيف أقصّ عليك تلك القصة العجيبة، قصّتنا؟
كيف أغريك بالعودة من جديد لساع بقيتها؟

صباح الاثنين، لبست بدلتي الأجل لموعدنا المحتمل. اخترت
بذوق ربطة عنقي. وضعت عطري المفضل، وأنجّمت نحو قاعة
المعرض نحو الساعة العاشرة.

كان أمامي متسع من الوقت لأشرب قهوتي الصباحية في مقهى
مجاور. فلم يكن يعقل أن تأتي قبل تلك الساعة، وحتى القاعة نفسها
لم تكن تفتح أبوابها قبل العاشرة.

عندما دخلت القاعة، كنت أوّل من يطأها في ذلك الصباح. كان
في الجوّ شحنة غامضة من الكآبة. لم يكن هناك من أضواء موجهة
نحو اللوحات، ولا أيّ ضوء كهربائي يضيء السقف.
ألقيت نظرة خاطفة على الجدران.

ها هي لوحاتي تستيقظ كامرأة، بتلك الحقيقة الصباحية العارية
دون زينة ولا مساحيق ولا «رتوش».

ها هي امرأة تتأهب على الجدران بعد أمسية صاخبة .
انجّمت نحو لوحتي الصغيرة «حنين» أنفقَها وكأنني أنفقَdk .
«صباح الخير قسطنطينة . . كيف أنت يا جصري المعلق . . يا حزني
المعلق منذ ربع قرن؟» .

ردّت عليّ اللوحة بصمتها المعتاد، ولكن بغمزة صغيرة هذه المرة .
فابتسمت لها بتواطؤ .

إننا نفهم بعضنا أنا وهذه اللوحة «البلدي يفهم من غمزة!»
وكانت لوحة بلدية مكابرة مثل صاحبها، عريقة مثله، تفهم
بنصف غمزة!

رحت بعدها أتلهّى ببعض المشاغل التي كانت مؤجلة منذ
البارحة . طريقة مثل أخرى لكسب الوقت، والتفرّغ لك فيما بعد .
وكان صوت داخليّ يلاحقني أثناء ذلك، ليذكّرني أنك ستأتين،
ويعني من التركيز على أيّ شيء .

ستأتي . .

ستأتي . . ردّد الصوت ساعة وساعتين وأكثر . . ومرّ صبح ومرّ
مساء ولم تأت .

حاولت أن أنشغل بلقاءات وتفاصيل يومية كثيرة، حاولت أن
أنسى أنني هنا لانتظارك . .

قابلت صحافياً وتحدّثت لآخر دون أن تفارق عيناى الباب . كنت
أترقبك في كلّ خطوة . .

وكلما تقدّم الوقت زاد يأسى .

وفجأة فتح الباب ليدخل منه . . سي الشريف!

نهضت إليه مسلماً وأنا أخفي عنه دهشتي . تذكّرت أغنية فرنسية

يقول مطلعها «أردت أن أرى أختك . . فرايت أملك كالعادة . .» .

- ع السلامة يا سيدي . . غاش من شافك!

قالها وهو يحتضني ويسلم عليّ بحرارة . وأعترف برغم خيبي أنه لم يحدث أن شعرت بسعادة وأنا أسلم عليه مثل تلك المرة .

وقبل أن أسأله عن أخباره قال وهو يقدم لي ذلك الصديق المشترك الذي كان يرافقه :

- شفت شكون جيتلك معاي؟

صحت وأنا أنقل من دهشة إلى أخرى :

- أهلاً سي مصطفى واش راك . . واش هاذ الطلة . .

قال بمودة وهو يحتضني بدوره :

- واش آسيدي . . لو كان ما نجيوكش ما نشوفوكش وإلا

كيفاش؟

رحت أجامله . . وأسأله بدوري عن أخباره وإن كنت أدري أن في مرافقة سي الشريف له وفي مبالغته في تكريره دليلاً على أنه مرشح لمنصب وزاري ما كما تقول الإشاعات .

عاتبني سي الشريف بوّة أحسنه صادقاً :

- يا أخي . . أيعقل أن نسكن هذه المدينة معاً دون أن تفكر في زيارتي مرة واحدة؟ . أنا هنا منذ مستين وعنواني معروف عندك .

تدخل سي مصطفى ليضيف بتلميح سياسي بين المزاح والجد :

- واش راك مقاطعنا . . وإلا كيفاش هاذ الغيبة . .؟

أجبتة بصدق :

- لا أبداً . . ولكن ليس من السهل على شخص سكنته الغربة أن يجمع أشياءه هكذا ويعود . . في الحقيقة «المنفى عادة سيئة يتخذها

الإنسان» وقد أصبحت لي أكثر من عادة سيئة هنا . .

ضحكنا . . وتشعب بنا الحديث في مواضيع أخرى تطرقنا إليها عبوراً ومجاملة فقط . .

وكان لا بد أن يتوقفنا بعد ذلك أمام إحدى اللوحات وهما يقومان بجولة لمشاهدة المعرض . لأفهم سرّ زيارة سي مصطفى لمعرضي، والتي تعود لكونه يريد أن يشتري لوحة أو لوحتين مني . قال :
- أريد أن أحفظ منك شيء للذكرى . . ألا تذكر أنك بدأت الرسم يوم كنا معاً في تونس؟ مازلت أذكر حتى لوحاتك الأولى . .
لقد كنت أول من أريته لوحاتك وقتها . . هل نسيت؟

لا لم أنس . . وكم كنت أتمنى لحظتها لو أستطيع ذلك . شعرت بشيء من الإحراج وهو يستدرجني لتلك الفترة . .

كان سي مصطفى صديقاً مشتركاً لي ولسي الشريف منذ أيام التحرير . فقد كان ضمن المجموعة التي كانت تعمل تحت قيادة سي الطاهر . بل، وكان واحداً من الجرحى الذين نقلوا معي للعلاج إلى تونس، حيث قضى ثلاثة أشهر في المستشفى عاد بعدها إلى الجبهة، ليبقى حتى الاستقلال في صفوف جيش التحرير، ويعود برتبة رائد .

كان يوماً بشهامة وأخلاق نضالية عالية . وكنت في الماضي أكنُّ له احتراماً ووداً كبيرين . ثم تلاشى تدريجياً رصيده عندي . . كلما امتلأ رصيده الآخر بأكثر من طريقة وأكثر من عملة، مثله مثل من سبقوه إلى تلك المناصب الحلوب التي تناوب عليها البعض بتقسيم مدروس للوليمة . .

ولكن كان أمره هو بالذات يعنيني ويحزنني . فقد كان رفيق سلاحني لستين كاملتين . . وكان بيننا تفاصيل صغيرة جمعتنا في

الماضي ولا يمكن للذاكرة رغم كل شيء أن تتجاهلها.
لعل أكثر تلك التفاصيل تأثيراً، تلك المصادفة التي جعلت الممرضة
في تونس تعطيني وأنا أغادر المستشفى ثيابه التي وصل بها، والتي جفّ
عليها دمه منذ عدّة أيام.

كان في جيب سترته يومها بطاقة تعريفه التي تكاد لا تقرأ، من آثار
بقع الدم عليها. والتي احتفظت بها لأعيدها إليه فيها بعد... ولكنه
عاد بعد ذلك إلى الجبهة دون أن يدري حتى أنها كانت في حوزتي،
وربما دون أن يسأل عنها. فقد كان ذاهباً إلى مكان لا يحتاج فيه إلى
بطاقة تعريف.

سنة ١٩٧٣ عثرت مصادفة على تلك البطاقة ضمن أوراق
القديمة. وكنت آنذاك أجمع أشتاتي استعداداً للرحيل...
تردّدت بين أن أحتفظ بها أو أعيدها إليه، فقد كنت أدري أنّ
تلك الهوية لم تعد في الواقع هويته. ولكنني كنت أريد أن أواجهه
بالذاكرة... دون أيّ تعليق.

وربما كنت أريد كذلك وأنا على أبواب المنفى أن أنهي علاقاتي
بتلك البطاقة التي رافقتني منذ ١٩٥٧ من بلد إلى آخر، وكأنني أنهي
علاقاتي بالوطن، وأضعه أخيراً هو وأشياءه خارج الذاكرة...
يومها دهش سي مصطفى وأنا أخرج من جيب سترتي تلك البطاقة
وأضعها أمامه، بعد ست عشرة سنة.

أهو الذي ارتبك لحظتها... أم أنا؟
شعرت فجأة وأنا انفصل عنها أنني أعطيته شيئاً كان ملتصقاً
بصدري؛ شيئاً مني، ربّما ذراعي الأخرى، أو أيّ شيء كان لي...
كان أنا!

ولكنني وجدت آنذاك في فرحته عزائي . . وفي احتضانه لي بذلك
العنفوان الأول الذي جمعنا يوماً، مكافأة للذاكرة وهماً ما بإمكانية
إيقاظ ذلك الرجل الآخر داخله .

ها هو سي مصطفى بعد سنوات، يتأمل لوحة لي وأنامله . لقد
مات فيه الرجل «الآخر» . . فكيف راهنت يوماً عليه؟

في هذه اللحظة، لا شيء يعنيه سوى امتلاك لوحة لي؛ وربما كان
مستعداً أن يدفع أي ثمن مقابلها. فمن المعروف عنه أنه لا يحسب
كثيراً في هذه الحالات، مثله مثل بعض السياسيين والأثرياء
الجزائريين الجدد الذين شاعت وسطهم عدوى اقتناء اللوحات
الفنية، لأسباب لا علاقة لها غالباً بالفن، وإنما بعقلية جديدة للنهب
الفني أيضاً . . وبهاجس الانتساب للنخبة .

وربما كان أكثر سخاءً معي أنا بالذات، للأسباب نفسها التي
تجعلني اليوم أكثر رفضاً له .

لقد قرر أن يستبدل بتلك البطاقة المهترئة، لوحة (أكواريل) يفاخر
بها . . فهل يتساوى الدم بالألوان المائية . . ولو بعد ربع قرن!

سعدت بعدها وأنا أتخلص منه ومن سي الشريف دون أن يأخذنا
على خاطرهما . . ودون أن أتنازل عن ذلك المبدأ الذي حدث أن
جعت بسببه . فلا يمكن لي أن أكل من الخبز الملوّث . هناك من
يولدون هكذا بهذه الحساسية التي لا شفاء منها تجاه كل ما هو قذراً!

كنت في الواقع على عجل . أريد أن أنتهي منها بسرعة . . خشية
أن تأتي في تلك اللحظة ويكونا هناك .

وكنت قلقاً ومبعثراً بين الأحاسيس التي استدرجني إليها سي
مصطفى بعد كل تلك السنوات . . وبين هاجس قدومك، الذي

أرهمقني انتظاره منذ أيام . ولكنك لم تأتي . . لا أثناء ذلك ولا بعده .

من أين هجمت عليّ كل تلك الكآبة بعد ذلك؟

وإذا بقدمي تقوداني بخطى مثقلة، محبطة، إلى البيت، بعدما كانتا قد حملتاني إلى هنا، على أجنحة الشوق الجارف .

ماذا لو لم أرك مرة أخرى . . لو انتهى ذلك المعرض ولم تعودني؟ .
ماذا لو كان حديثك عن زيارتك المحتملة مجرد مجاملة، أخذتها أنا
مأخذ الجد؟

كيف يمكن لي وقتها أن أطارد نجمك المذنب الهارب؟

وحدها تلك البطاقة التي أعطاني إياها سي الشريف وهو يودعني
كانت تبعث شيئاً من الأمل في نفسي . فقد كنت أعرف أخيراً الأرقام
السريّة التي توصلني إليك، فتمت وأنا أخطّط لمبرّر هاتفي قد يجمعني
بك . ولكن الحبّ عندما يأتي لا يبحث له عن مبرّر، ولا يأخذ له
موعداً . . ولذا ما كدت في اليوم التالي أدخل القاعة وأجلس في الصالون
لأطالع جريدتي، حتّى رأيتك تدخلين .

كنت تتقدّمين نحوي، وكان الزمن يتوقّف انبهاراً بك .

وكان الحبّ الذي تجاهلني كثيراً قبل ذلك اليوم . . قد قرّر أخيراً
أن ينهي أكثر قصصه جنوناً . .

الفصل الثالث

التقينا إذن . .

قالت :

- مرحباً . . آسفة، أتيت متأخرة عن موعدنا اليوم . .

قلت :

- لا تأسفي . . قد جئت متأخرة عن العمر بعمر .

قالت :

- كم يلزمي إذن لتغفر لي ؟

قلت :

- ما يعادل ذلك العمر من عمراً !

وجلس الياسمين مقابلاً لي .

يا ياسمينه تفتّحت على عجل . . عطراً أقلّ حبيبي . . عطراً أقل !

لم أكن أعرف أنّ للذاكرة عطراً أيضاً . . هو عطر الوطن .

مرتبكاً جلس الوطن وقال بخجل :

- عندك كأس ماء . . يعيشك ؟

وتفجّرت قسنطينة ينابيع داخلي .

ارتوي من ذاكرتي سيّدت . . فكلّ هذا الحنين لك . . ودعي لي

مكاناً هنا مقابلاً لك . .

أحسبك كما تُحسّي ، على مهل ، قهوة قسنطينية .

أمام فنجان قهوة.. وزجاجة كوكا جلسنا. لم يكن لنا النظماً
نفسه.. ولكن كانت لنا الرغبة نفسها في الحديث.

قلت معذرة:

- أنا لم أحضر البارحة، لأنني سمعت عمي يتحدث لشخص على
الهاتف ويتفق معه على زيارتك، ففضلت أن أؤجل زيارتي لك إلى
اليوم حتى لا ألتقي بهما..

أجبتك وأنا أتأملك بسعادة من يرى نجمة الهارب أخيراً أمامه:
- خفت ألا تأتي أبداً..

ثم أضفت:

- أما الآن فيسعدني أنني انتظرتك يوماً آخر، إن الأشياء التي
نريدها تأتي متأخرة دائماً!

تراني قلت وقتها أكثر مما يجب قوله؟

ساد شيء من الصمت بيننا وارتباك الاعتراف الأول.. عندما
قلت وكأنك تريد كسر الصمت، أو إثارة فضولي:

- أتدري أنني أعرف الكثير عنك؟

قلت سعيداً ومتعجباً:

- وماذا تعرفين مثلاً؟

أجبت بطريقة أستاذ يريد أن يغير تلميذه:

- أشياء كثيرة قد تكون نسيته أنت..

قلت لك بمسحة حزن:

- لا أعتقد أن أكون نسيته شيئاً. مشكلتي في الواقع أنني لا

أنسى!

أجبتني بصوت بريء، وباعتراف لم أعِ ساعتها كل عواقبه القادمة

علي:

- أمّا أنا فمشكلتي أنني أنسى .. أنسى كلّ شيء .. تصوّر ..
البارحة مثلاً نسيت بطاقة الميتر في حقيبة يدي الأخرى . ومنذ أسبوع
نسيت مفتاح البيت داخل البيت ، وانتظرت ساعتين قبل أن يحضر
أحد ليفتح لي الباب .. إنها كارثة .

قلت ساخراً :

- شكراً إذن لأنك تذكرت موعدنا هذا!

أجبت باللهجة الساخرة نفسها :

- لم يكن موعداً .. كان احتمال موعد فقط .. لا بدّ أن تعلم أنني
أكره اليقين في كلّ شيء .. أكره أن أجزم بشيء أو ألزم به .. الأشياء
الأجل ، تولد احتمالاً .. وربما تبقى كذلك .

سألتك :

- لماذا جئت إذن ؟

تأملني .. وراحت عيناك تتسكّعان في ملامح وجهي ، وكأنهما
تبحثان عن جواب لسؤال مفاجئ .. ثم قلت في نظرة مثقلة بالوعود
والإغراء ..

- لأنك قد تكون يقيني المحتمل!

ضحكت لهذه الجملة التي تحمل تناقضاً أنشويّاً صارخاً - لم أكن
أعرف بعد أنه سمّتك - وقلت وقد ملأتني عيناك غروراً وزهواً
رجالياً :

- أمّا أنا فأكره الاحتمالات .. ولذا أجزم أنني سأكون يقينك .

قلت بإصرار أنني على قول الكلمة الأخيرة :

- إنه افتراض .. محتمل كذلك!

وضحكنا كثيراً .

كنت سعيداً وكأنني أضحك لأول مرة منذ سنوات . كنت أتوقع لنا بدايات أخرى ، وكنت قد أعددت جملاً ومواقف كثيرة لمبادرتك في هذا اللقاء الأول . ولكن اعترف أنني لم أكن أتوقع لنا بداية كهذه . فقد تلاشى كل ما أعددتَه ساعة قدومك . . . وتبعثرت لغني أمام لغتك التي لم أكن أدري من أين تأتين بها .

كان في حضورك شيء من المرح والشاعرية معاً . كان هناك تلقائية وبساطة تكاد تجاور الطفولة ، دون أن تلغي ذلك الحضور الأنثوي الدائم . . . وكنت تملكين تلك القدرة الخارقة على مساواة عمري بعمرِكَ ، في جلسة واحدة . وكأن فتوتك وحيويتك قد انتقلتا إليّ عن طريق العدوى . كنت ما أزال تحت وقع تصريحاتك تلك ، عندما فاجأني كلامك :

- في الواقع . . . كنت أريد أن أرى لوحاتك بتأنٍ أكثر ، لم أكن أريد أن أتقاسمها في ذلك اليوم مع ذلك الحشد من الناس . . . عندما أحب شيئاً . . . أفضل أن أنفرد به !

كانت هذه أجمل شهادة إعجاب يمكن أن تقولها زائرة لرسام . . . وأجمل ما يمكن أن تقوله لي أنت ذلك اليوم . وقبل أن أذهب بعيداً في فرحتي أو أشكرك أضفت :

- ما عدا هذا . . . كنت أود أن أتعرف عليك منذ زمن بعيد . لقد كانت جدتي تحدّثني أحياناً عنك عندما تذكر أبي . يبدو أنها كانت تحبّك كثيراً . . .

سألتك بلهفة :

- وكيف هي (أُمّ الزهرة) ؟ إنني لم أرها منذ زمان .

قلت بمسحة حزن:

- لقد توفيت منذ أربع سنوات، وبعد وفاتها انتقلت أمي لتعيش مع أخي ناصر في العاصمة. وجئت أنا إلى باريس لمتابعة دراستي. لقد غير موتها حياتنا بعض الشيء.. فهي التي ربّتنا في الواقع..

حاولت أن أنسى ذلك الخبر. كان موتها شوكة أخرى انغrust في قلبي يومها. فقد كان فيها شيء من (أما)، من عطرها السري، من طريقتها في تعصيب رأسها على جنب بالمحارم الحريرية، وإخفاء علبة «النفّة» الفضيّة في صدرها الممتلئ. وكانت لها تلك الحرارة التلقائية التي تفيض بها الأمّهات عندنا، تلك الكلمات التي تعطيك في جملة واحدة ما يكفيك من الحنان لعمر بأكمله.

ولكن الوقت لم يكن للحزن. كنت معي أخيراً، وكان على الزمن أن يكون للفرح فقط.

قلت لك:

- رحمها الله.. لقد كنت أنا أيضاً أحبّها كثيراً..

تراك أردت عندئذ، أن تضعي نهاية لموجة الحزن التي فاجأتني. خشية أن نحرفنا معاً نحو ذاكرة لم نكن مهياين بعد لتصفّحها. أم فقط كنت تريد أن تطبّقي برنامج زيارتك عندما نهضت فجأة وقلت:

- أيمكنني أن ألقي نظرة على لوحاتك؟

وقفت لمرافقتك.

رحت أشرح لك بعضها والمناسبات التي رسمتها فيها عندما قلت وأنت تنقلين فجأة عينيك من اللوحات إليّ:

- أتدري أنني أحبّ طريقتك في الرسم؟. أنا لا أقول لك هذا

مجاملة، ولكن أعتقد أنني لو كنت أرسم لرسمت هكذا مثلك . .
أشعر أننا نحن الاثنين نرى الأشياء بإحساس واحد . . وقل ما
أحسست بهذا تجاه إنتاج جزائري .

ما الذي أربكني الأكثر لحظتها؟ . أترى عيناك اللتان أصبح لهما
فجأة لون آخر تحت الضوء، واللتان كانتا تتأملان فجأة ملاحي
وكأنهما تتأملان لوحة أخرى لي . . أم ما قلته قبل ذلك والذي شعرت
أنه تصریح عاطفي وليس أنطباعاً فنيّاً؛ أو هكذا تمنيت أو خيل لي .
توقّف سمعي عند كلمة «نحن الاثنين» . إنها بالفرنسية تأخذ بعداً
موسيقياً عاطفياً فريداً . . حتى إنها عنوان لمجلة عاطفية تصدر لمن
تبقى من زومطيقين في فرنسا (Nous deux) .

أخفيت ارتباكِي بسؤال ساذج :

- وهل ترسمين؟

قلت :

- لا أنا أكتب .

- وماذا تكتبين؟

- أكتب قصصاً وروايات؟!

- قصصاً وروايات . . . !

ردّدتها وكأنني لا أصدّق ما أسمع . . فقلت وكأنك شعرت بإهانة
من مسحة العجب أو الشك في صوفي :

- لقد صدرت لي أوّل رواية منذ سنتين . .

سألتك وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى :

- وبأيّ لغة تكتبين؟

قلت

- بالعربية ..

- بالعربية؟!

استفزتك دهشتي، وربما أسأت فهمها حين قلت:

- كان يمكن أن أكتب بالفرنسية، ولكن العربية هي لغة قلبي ..

ولا يمكن أن أكتب إلا بها .. نحن نكتب باللغة التي نحس بها الأشياء ..

- ولكنك لا تتحدثين بغير الفرنسية ..

- إنها العادة ..

قلتها ثم واصلت تأمل اللوحات قبل أن تضيفي:

- المهم .. اللغة التي نتحدث بها لأنفسنا وليست تلك التي

نتحدث بها للآخرين!

رحت أناملك مدهوشاً، وأنا أحاول أن أضع شيئاً من الترتيب في

أفكاري ..

يمكن أن تجمع كل هذه المصادفات، في مصادفة واحدة؟ وكلّ

هذه الأشياء التي كانت قناعاتي الثابتة .. وأحلامي الوطنية الأولى، في

امرأة واحدة .. وأن تكون هذه المرأة هي أنت .. ابنة سي الطاهر لا

غير؟ لو تصوّرت لقاء مدهشاً في حياتي، لما تصوّرت أكثر إدهاشاً من هذا ..

إنها أكثر من مصادفة، إنه قدر عجيب، أن تتقاطع طرقنا على هذا النحو،

بعد ربع قرن ..

أعادني صوتك إلى الواقع وأنت تتوقفين عند إحدى اللوحات:

- أنت قلّ ما ترسم وجوهاً، أليس كذلك؟

وقبل أن أجيبك قلت:

- اسمعي .. لن نتحدّث إلى بعض إلا بالعربية .. سأغيّر عاداتك

بعد اليوم ..

سألتني بالعربية:

- هل ستقدر؟

أجبتك:

- سأقدر.. لأنني سأغير أيضاً عاداتي معك..

أجبتني عندئذ بفرح سرّي لامرأة اكتشفت فيما بعد أنها تحبّ
الأوامر:

- سأطيعك.. فانا أحبّ هذه اللغة.. وأحبّ إصرارك. ذكرني
فقط لو حدث ونسيت.

قلت:

- لن أذكرك.. لأنك لن تنسي ذلك!

وكنت أرتكب لحظتها أجل الحماقات. وأنا أجعل تلك اللغة التي
كان لي معها أكثر من صلة عشقية، طرفاً آخر في قصّتنا المعقدة..
عدت لأسألك بالعربية:

- عمّ كنت تتحدّثين منذ قليل؟

قلت:

- كنت أعجب ألا يوجد في معرضك سوى هذه اللوحة التي تمثّل
وجهاً نسائياً.. ألا ترسم وجوهاً؟

قلت:

- كنت في فترة أرسم وجوهاً ثمّ انتقلت إلى موضوعات أخرى. في
الرسم، كلّما تقدّم عمر الفنّان وتجربته، ضاقت به المساحات الصغيرة
ويبحث عن طرق أخرى للتعبير.

في الحقيقة أنا لا أرسم الوجوه التي أحبّها حقاً.. أرسم فقط شيئاً
يوحي بها.. طلّتها.. تماوج شعرها.. طرفاً من ثوب امرأة.. أو

قطعة من حليها. تلك التفاصيل التي تعلق في الذاكرة بعدما نفارقها. تلك التي تؤدّي إليها دون أن تفضحها تماماً. . فالرُسام ليس مصوّراً فوتوغرافياً بطارد الواقع. . إنّ آلة تصويره توجد داخله، مخفية في مكان يجهره هو نفسه، ولهذا هو لا يرسم بعينيه، وإنّما بذكرته وخياله. . وبأشياء أخرى.

قلت وعيناك تنظران لامرأة يطغى شقار شعرها على اللوحة ولا يترك مجالاً للون آخر سوى حمرة شفيتها غير البريتين:

- وهذه المرأة إذن. . لماذا رسمت لها لوحة واقعية إلى هذا الحد؟ ضحكت وقلت:

- هذه امرأة لا ترسم إلّا بواقعية. .

- ولماذا أسميت لوحتها «اعتذار»؟

- لأنني رسمتها اعتذاراً لصاحبها. .

قلت فجأة بلهجة فرنسية وكأن غضبك أو غيرتك السرية قد ألغت اتفاقنا السابق:

- أتمنى أن يكون قد أقنعها هذا الاعتذار. . فاللوحة جميلة حقاً.

ثم أضفت بشيء من الفضول النسائي:

- ولكن هذا يعود إلى نوع الذنب الذي اقترفته في حقها!

لم أكن أشعر بأية رغبة في أن أقصّ عليك قصّة تلك اللوحة، في لقائنا الأول. كنت أخاف أن يكون لتلك القصّة تأثير سلبي على علاقتنا، أو على نظرتك لي. فحاولت أن أتهرّب من تعليقك الذي يستدرجني بحيلة إلى مزيد من التوضيح، واتجاهل عنادك في الوقوف طويلاً أمام تلك اللوحة بالذات.

ولكن. . هل يمكن أن تقاوم فضول أنثى تصرّ على معرفة شيء؟

أجبتك :

- هذه اللوحة قصّة طريفة شيئاً ما، تكشف عن جانب من عقدي ورواسي القديمة، وهي هنا ربّما لهذا السبب.

ورحت أقصّ لأوّل مرّة قصّة تلك اللوحة التي رسمتها ذات يوم، بعدما حضرت مرّة، كما أفعل بين الحين والآخر، إحدى جلسات الرسم في مدرسة الفنون الجميلة، حيث يدعوني هناك بعض أصدقائي الأساتذة، كما يفعلون عادة مع بعض الرّسّامين، لألتقي بالطلبة والرّسّامين الهواة.

كان الموضوع ذلك اليوم هو رسم موديل نسائي عاري. وبينما كان جميع الطلبة متفرّعين لرسم ذلك الجسد من زواياه المختلفة، كنت أنا أفكر مدهوشاً في قدرة هؤلاء على رسم جسد امرأة بحياد جنسيّ، وبمنظرة جماليّة لا غير، وكأنّهم يرسمون منظرًا طبيعيًا أو مزهريّة على طاولة، أو تمثالاً في ساحة.

من الواضح، أنّي كنت الوحيد المرتبك في تلك الجلسة. فقد كنت أرى، لأوّل مرّة، امرأة عارية هكذا تحت الضوء تغير أوضاعها، تعرض جسدها بتلقائيّة، ودون حرج أمام عشرات العيون؛ وربّما في محاولة لإخفاء ارتباكِي رحت أرسم أيضاً. ولكن ريشتي التي تحمل رواسب عقد رجل من جيلي، رفضت أن ترسم ذلك الجسد، خجلاً أو كبرياء لا أدري. . بل راحت ترسم شيئاً آخر، لم يكن في النهاية سوى وجه تلك الفتاة كما يبدو من زاويتي. . وعندما انتهت تلك الجلسة، وارتدت تلك الفتاة التي لم تكن سوى إحدى الطالبات ثيابها، وقامت بجولة كما هي العادة لترى كيف رسمها كلّ واحد، فوجئت وهي تقف أمام لوحتي، بأنّني لم أرسم سوى وجهها. قالت

بلهجة فيها شيء من العتاب وكأنها ترى في تلك اللوحة إهانة لأنوثتها: «أهذا كل ما ألهمتك إياه؟» فقلت مجاملاً: «لا، لقد ألهمتني كثيراً من الدهشة، ولكني أنا أنتمي لمجتمع لم يدخل الكهرباء بعد إلى دهاليز نفسه. أنت أول امرأة أشاهدها عارية هكذا تحت الضوء، رغم أنني رجل يحترف الرسم.. فاعذريني. إن فرشتاتي تشبهني، لأنها تكره أيضاً أن تتقاسم مع الآخرين امرأة عارية.. حتى في جلسة رسم!».

كنت تستمعين إليّ مدهوثة، وكأنك تكتشفين في فجأة رجلاً آخر لم تحدثك عنه جدّتك. كان في عينيك فجأة شيء جديد، نظرة غامضة ما، شيء من الإغراء المتعمّد، ربّما سببه غيرة نسائية من امرأة مجهولة، سرقت في يوم ما اهتمام رجل لم يكن حتى الآن مهمّاً بالنسبة إليك.

رحت أتلذذ بذلك الموقف العجيب الذي لم أتعمّده. كنت سعيداً أن تثير فيك الغيرة هذا الصمت المفاجئ، وهذه الحمرة الخفيفة التي علت وجنتيك، وجعلت عينيك تتسعان بغضب مكبوت. فاحتفظت لنفسي ببقية القصة.. لم أخبرك أنّ هذه الحادثة تعود لستين، وأنّ صاحبته ليست سوى كاترين، وأنّه كان عليّ فيما بعد أن أقدم لجسدها اعتذاراً آخر.. يبدو أنّه كان مقنعاً لدرجة أنّها لم تفارقني منذ ذلك الحين!

أذكر اليوم بشيء من السخرية، ذلك المنعطف الذي أخذته علاقتنا فجأة بعدما حدثتلك عن تلك اللوحة.. عجيب هو عالم النساء حقاً! كنت أتوقّع أن تقعي في حبي، وأنت تكتشفي تلك العلاقة السريّة التي تربطك بلوحتي الأولى «حنين». لوحة في عمرك

وفي هويتك. وإذا بك تتعلقين بي بسبب لوحة أخرى لامرأة أخرى،
تعبير الذاكرة خطأ!

انتهى موعدنا الأول عند الظهر.

كان عندي إحساس ما أنني سأراك مرة أخرى.. ربما غداً. كنت
أشعر أننا في بداية شيء ما، وأننا كلينا على عجل. كان هناك كثير من
الأمور التي لم نقلها بعد، بل إننا لم نقل شيئاً في النهاية. نحن أغربنا
بعضنا فقط بحديث محتمل. كنا، عن سذاجة أو عن ذكاء، غارس
اللعبة نفسها معاً، ولذا لم أتعجب كثيراً عندما سألتني وأنت
تودعيني:

- هل ستكون هنا غداً صباحاً؟

قلت لك بسعادة من ربح الرهان:

- طبعاً.

قلت:

- سأعود إذن غداً في الوقت نفسه تقريباً، سيكون لنا متسع أكثر
للحديث. لقد مرّ الوقت بسرعة اليوم دون أن ننتبه لذلك..

لم أعلق على كلامك. كنت أدري أن لا مقياس للوقت سوى
قلبي. ولذا فالوقت لا يركض بنا إلا عندما يركض بنا القلب لاهثاً
أيضاً من فرحة إلى أخرى، ومن دهشة إلى أخرى.. ولذا وجدت في
كلامك اعترافاً بفرح مشترك سرّي.. توقعت أن يتكرر.

أذكر أنني قلت لك يومها وأنا أودّعك عند باب القاعة:

- لا تنسي كتابك غداً.. أريد أن أقرأك.

قلت متعجبة:

- أتتقن العربية؟

قلت:

- طبعاً.. سرورن ذلك ينفسك.

قلت:

- سأحضره إذن..

ثم أضفت بابتسامة لا تخلو من كيد نسائي محيٍب:

- قدأمنت نصراً على معرفتي.. لن أحرمك من هذه المتعة!

وانغلق الباب خلف ابتسامتك تلك، دون أن أفهم ما كنت تعنيه بالحدود.
ذهبت بالغبوض الضبابي الذي جئت به.. نفسي.. وبقيت عند عتبة ذلك
الباب الزجاجي، أتأملك تدجين غفلى المارّة وتخبين موه أخرى كنجم
هارب.. وأنا أسأل بشيء من الذهول.. توأنا الثقبنا حقاً؟!

القبنا إذن..

الذين قالوا "الجبال وحدها لا تنقي"..أخطأوا

والذين يتوأ بيتها جسوراً، لتصافح دون أن تنحي أو تنازل عن سموها
لا يفهمون سناً في قوانين الطبيعة.

الجبال لا تنقي إلا في التلازل و الهزات الأرضية الكبرى، وعندما لا
تصافح، وإنما تتحول إلى نواب واحد.
القبنا إذن.

وحدثت الهزة الأرضية التي لم تكن متوقّعة، فقد كان أحدها يركّنا، وكنت أنا
الضحية.

يا امرأة تحترف الخرافة.. وما جيلنا يركّنا جوف كل شيء في طريقه، وأحرف
آخر ما تمسّكت به.

من أين أنت بكل تلك الأمواج المحرقة من النار؟ وكيف لم أحذر تربتك
الحسومة، كسقي عاشقة غجرية.

كيف لم أحذر بساطتك وتواضعك الكاذب، وأتذكر درسا قدغة في
الجغرافيا: "الجبال البركانية لا قسم لها، إنما جبال في نواضع حصبه." فقبل
يمكن للهضاب أن تفعل كل هذا؟

كل الأمتدة السعيدة نحدرتنا من ذلك النهر المسالم الذي يخذلنا هدوءه فتعبره،
وإذا به يتلعبنا، وذلك العود الصغير الذي لا تخطأ له.. وإذا به يعيننا.

أكثر من مثل يقول لن بأكثر من لمجة "توخذ الحذر من مأمته". ولكن كل
تعديراتها لن تمنعنا من ارتكاب المزيد من الحماقات، فلا منطلق للعشق خارج
الحماقات والجنون. وكلما ازدادنا عشقا كثرت حماقاتنا.

ألم نقل (برنارد شو) "تعرف أنك عاشق عندما تبدأ في الصرف عند
مصاحبتك الشخص؟"

وكانت حماقتي الأولى، أنني تصرفت معك مثل سائح يزور ضفدعه لأول مرة،
فركض نحو بركان (إتنا)، وعضني لستسقط البركان التام بعين واحدة من
نومه، ونفوق الجزيرة تاراً، على مرأى من السواح الغمليين بالآلاف
الغورغرافية.. والدخشة.

وتسجدت تحت السواح التي تقولت إلى يواب أسود أنه لا أجمل من بركان
بشابه، ويهدف ما في جوفه من نيران وأحجار، ويتبع المساحات السامعة
في بضع لحظات.

وَأَنْ الْمُفْرَجَ عَمَّا، يَصَابُ دَائِمًا بِمُؤَذِّبَةٍ مُعَاظِلِسَةٍ مَا... بِسَيِّءٍ سَبَبٍ بِسَبْوَةٍ
النَّهْبِ، سَدَّهَ لِنَدِّكَ السَّيُولَ النَّارِيَّةَ، قَبْضُكَ مَتَبَعًا أَمَامِيًّا، بِحَاوِلٍ أَنْ تَذْكُرَ فِي
ذَهْوِلٍ كُلِّ مَا قَرَأَ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَبَسَى بِخِصَابَةِ عَاسِيٍّ، أَنَّهُ بِسَبْدٍ
بِسَاعَتِهِ... قِيَامِ سَاعَتِهِ.

بَسْبَدِ الدَّمَارِ حَوْلِي الْيَوْمَ، أُنِّي أَحْبَبْتُكَ حَتَّى الْهَلَاكِ، وَأَسْتَهْجِكَ... خَيِّ
الْأَحْبَاقِ الْآخِرِ، رَصَدْتُ جَانِكَ بِرَبْلِ عِنْدَمَا قُلْتُ "هَنَّاكَ أَرْضَ مَحْرُوقَةٍ،
تَحْنُكَ مِنَ الْقَمَحِ مَا لَا تَحْنُكَ نَبَاتٍ فِي أَرْجِ عَطَانِهِ". وَرَاحَتْ عَلَيَّ رِبْعُ
هَذِهِ الْعَبْرِ الْقَاحِلِ، وَنَبَاتُ هَذِهِ السَّوَابِ الْعَجَافِ.

بِ بَرَكَاتِ جَرَفٍ مِنْ حَوْلِي كُلِّ شَيْءٍ... أَلَمْ يَكُنْ جَنُونَ أَنْ أَزِيدَ عَلَيَّ جَنُونَ
السَّوَابِ وَالْعَاسِيَّ، وَكُلَّ مَنْ أَحْبَبْتُكَ قَبْلِي، فَأَنْفَلَ بَنِي عِنْدَ سَفْحَتِكَ، وَأَضَعُ
فَاكُورِي عِنْدَ أَقْدَامِ بَرَاكِيكَ، وَأَجْنِسُ بَعْدَهُ وَسَطَ الْحَرَاتِ... لِأَرْسَلِكَ.

أَلَمْ يَكُنْ جَنُونَ... أَنْ أَرَفَقْتُ الْأَسْعَانَةَ بِنَبَاتِ الْأَرْضَادِ الْجَوِيَّةِ، وَالْكَوَارِثِ
الطَّبْعِيَّةِ، وَأَفْنَعُ نَفْسِي أُنِّي أَعْرِفُ عَنْكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُونَ نَفْسِي وَفَتِي أَنْ
الْمَنْطَلِقِ بِسَبِيحٍ حَيْثُ بَدَأَ الْحُبَّ، وَأَنْ مَا أَعْرِفُهُ عَنْكَ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالْمَنْطَلِقِ وَلَا
بِالْمَعْرِفَةِ.

أَلْقَى الْخِيَالُ إِذْنَ... وَالْقِيَامُ.

رِبْعُ قُرُونٍ مِنَ الصَّفَحَاتِ الْقَاوِعَةِ الْبَيْضَاءِ الَّتِي لَمْ تَحْنُ بِكَ.

رِبْعُ قُرُونٍ مِنَ الْأَيَّامِ الْمَسَاهِدِ الَّتِي أَنْفَقْتُهَا فِي انْتِظَارِكَ

ربع فُرن على أول لقاء بين رجل كان أنا، وطفلة تلعب على ركبي كانت
أنت.

ربع فُرن على قبلة وضعتها على حذك الطفولي، ثيابة عن والد لم ترك.
أنا الرجل المعطوب الذي ترك في المعارك المسببة ذراعاً، وفي الجن المفضلة
قديماً.

لم أكن أتوقع أن يكون المعركة التي سأترك عني حتى. والمدينة التي سأبقى
فيها ذاكري. واللوحة البيضاء التي ستسفل أمامي قمر ساي، لبقى عدواء
وجياداً مثلك. تحمل في لوفا كل الأضداد.
كيف حدث كل هذا؟ لم أعد أدري.

كان الزمن يركض بنا من موعد إلى آخر، والحب يثقلنا من سيقنا إلى آخرى،
وكنت أستمع لحبك دون جدل.

كان حين قدوي.. وربما كان حقيقي، قيل من قوة تنف في وجد القدر؟
كان لقارنا جكور كل يوم تقرباً، كنا نلقي في تلك القاعة نفسها في ساعات
مختلفة من النهار، فقد شاءت المصادفات أن يصادف معرضي عطلة الربيع
المدرسة. وكنت غلكن ما يكفي من الوقت لؤادني كل يوم فلم يكن لك
أيّ دوام جامعي.

كان عليك فقط أن سحابي على الآخرين بعض الشيء، وربما على ابنه
عبدك أكبر، حتى لا توافئك لسبب أو لآخر.

كنت أسأل كل مرة وأنا أودعك مردداً تلقائياً، "إلى القدر" ترانا يركب
أكبر الحماقات ويؤدد نعلقنا ببعض كل يوم.

وربما لأنني كنت أكوك ساء. كتب أشعر أنني تحصل وحدي مسؤوله، ذلك
الوضع العاطفي الساذق والتقدير السري والمفجع نحو الحب.
ولكن عبا كنت أحاول الوقوف في طريق ذلك السلال الذي كان يحرقني
إليك بقوة حب في الحسنيين، يجنون حب في الحسنيين، بشهية وجل لم يعرف
الحب قبل ذلك اليوم.

كان حينك يحرقني بشبابه وعنفوانه، ويتحدو بي إلى أبعد نقطة في اللامنتطق.
تلك التي يكاد يلامس فيها العنق، في آخر المطاف، الجنون أو الموت.
وكتب أشعر وأنا أتحدو معك إلى تلك المظاهرات العتيقة داخلي، إلى تلك
الدعائير السرية للحب والسيوة، وإلى تلك المساحة البعيدة الأغوار التي لم
تطأها امرأة قبلك، أتني أتزل أيضا سأم القيم بدرجتها، وأتني أتكر ذوق أن
أدري لتلك الملل التي آمنت بها بطرف، ورفضت عمرا بأكمه أن أصوم
عنها.

لقد كانت القسم بالنسبة في ساء لا سجناء، ولم يكن هناك في لاموسي من يفرق
بين الأخلاق السياسية وبقية الأخلاق. وكنت أعني أنني، معك، بدأت
أشكر لوأحدة لأفعلت بأحري.
نسألت كثيرا آنذاك:

نراي كنت أحيون الماضي، وأنا ألقود بك في جنسة فيه برنة، في قاعة تؤكها
النوحات والذاكرة؟

نراي أحيون أعز من عرفت من (جال)، وأكرهم نخوة ومروءة، وأكرهم
سجاعة ووفاء؟

نراي سأحيون سي الطاهر لانددي ورفيقي وحديق عمرو بأكمه. فادلس ذكره
وأسرق منه زهرة عبود الوحدة. ورويت: الأخيرة؟

أمكن أن العمل كل ذلك باسم الماضي، وأنا أحدثك عن الماضي ولكن.. أكنت حقاً أسرى منك حيناً، في تلك الجلسات التي كنت أحدثك فيها طويلاً عن..؟

لا.. لم يحدث هذا أبداً، كانت حياة أسماء حاضرة في ذهني دائماً. كانت تربطني بك وتفصلني عنك في الوقت نفسه. كانت جسراً وحاجزاً في الوقت نفسه..

وكانت معني الوحيدة وفيها «أن أودعك مفاتيح ذاكرتي.. أن أفتح لك دفتري الماضي المصفرة، لأقرأها أمامك صفحة.. صفحة.. وكأنني أكتبها معك وأنا أسمع لنفسي، أقصها لأول مرة

كما نكتبهم بصوت، أنا تكامل بطريقة عجيبة. كنت أنا الماضي الذي نعيشه، وكنت أنت الحاضر الذي لا ذاكرة له، والذي أحاول أن أودعه بعض ما خلتني السنوات من قلبي..

كنت فارغة، كرسيتي.. وكنت أنا عسيرة ومقلدة كبحر وحت غصنين في كل يوم أكثر..

كنت أجهل صاعيتها أنني كنت كلنا فرغت امتلأت بك أيضاً، وأنتي كلنا وحينك شيا من الماضي، حولتك إلى تسعة مني. وإذا بنا نعمل ذاكرة مسرعة، طرق رازقة مسرعة، وأفراحا وأحزاناً مسرعة كذلك. فقد كنا معاً معطلوي حرب، وضعنا الأقدار في رحابها التي لا نرحم، فخرجنا كلٌّ بمرحله.

كان جرحي واضحاً وجرحك خفياً في الأعماق. لقد يتررا ذراعني، ويخروا طفولتك. اقتنعوا من جسدي عضوا.. وأخذوا من أحشائك أيا.. كنه أصلاء حرب.. وتمايلن بمحطمين داخل أبواب أيقدة لا غير

أذكر ذلك اليوم الذي طنيت فيه متى لأول مرة أن أحدثك عن أبيك
واصبرفت بسوء من الارتباك، أنك جئت لزماي من البدء بجده النية فقط
كان في صوبك سوء من الحزن المكثير.. شي من المراقبة التي اكتسبها قبل
لأول مرة.

قلت:

— ما فائدة أن نتجاسم اسم أي لسارع كبير، وأن أحل نفل اسمه الذي يردده
أمامي المارة والغرباء عدة مرات في اليوم. ما فائدة ذلك إذا كنت لا أعرف
عنه أكثر مما يعرفون، وإذا كان لا يوجد بينهم شخص واحد قادر على أن
يحدثني عنه حقاً؟

قلت لك معجياً:

— ألم يحدثك عنه عندك مثلاً؟

قلت:

— عني لا وقت له لهذا.. وعندما تحدثت أن يذكره أمامي، يأتي كلامه وكأنه
أقرب لخطبة ثابتة يتوجه بها للغرباء يستعرض أمامهم ما أثر أحداً، ولا يتوجه
فيها إليّ ليحدثني عن رجل هو أي قبل كل شيء.. الذي أريد أن أعرفه عن
أبي، ليس تلك الجملة الجاهزة لمسجد الأبطال والشهداء، والتي يقال في كل
مناسبة عن الجسع، وكأن الموت سوى فجأة بين كل الشهداء، فأصبحوا
جميعاً نسخة طبق الأصل.

يمني أن أعرف شيئاً عن أفكاره.. بعض تفاصيل حياته.. أخطائه
وحسناته.. طموحاته السرية، هوائيه السرية.. لا أريد أن أكون الله
لأستطوره، الأساطير يدعه، بوقائه.. أريد أن أكون، الله، لرجل عادي يقوته

ويضعفه، بانتصاراته، وهزائمه. ففي حارة كل رجل عجيبة ما وهزيمة ما، ربما كانت سببا في انتصار آخر.

حلّ شيء من الضمت بيننا. كنت أناملك وأتوجس في أعناق نفسي وحت أعت عن الحد الفاصل بين هوانني وانتصاراتي. لم أكن في تلك اللحظة نبأ، ولا كنت أنت الهذع، غريفي، كنا فقط تخالين أترين فديمن محطني الأطراف، تحاولان ترميم أجزائهما بالكلمات. لمحت ألتصع إليك وأنت ترممين ما في أعينك من دمار.

قلت:

- يحدث أن اسعر أنني ابنة لرقم فقط، رقم بين مليون ونصف مليون رقم آخر، ربما كان بعضها أكثر أو أصغر، ربما كتب اسم بعضها بخط أكبر أو أصغر من خط آخر، ولكنها جميعا أرقام لمآسة ما.
راضفت:

- أن يكون أي أودني اسمنا كبيرا، هذا لا يعني شيئا. لقد أودني مآسة في نقل اسم، وأودت أخي الخوف الدائم من السقوط، والعيش مسكوتا بما جس الفصل، وهو الابن الوحيد لنظام عبد المولى الذي ليس من حقه أن يقبل في الدراسة ولا في الحياة، لأنه ليس من حق الرموز أن تحطم، والسياسة، أنه تخلى عن دراسته الجامعية وهو يكتشف عيبا تكديس الشهادات، في زمن يكثس فيه الآخرون الملايين. ربما كان على حق، فالشهادات هي آخر ما يمكن أن يوصلك اليوم إلى وظيفة محترمة.

لقد رأى أصدقاءه الذين خرجوا قبله، ينتقلون مياصرة إلى البطالة أو إلى موظفين بروتاتب وأحلام محدودة، ففروا أن ينقل إلى التجارة. ورغم أنني أتناطره رأيه، إلا أنه يخبرني أن ينحول أخي وهو في عز

شبابه، إلى تاجر صغير يدير محلاً تجارياً وشاحنة وهبتها له الجزائر
كامتياز بصفته ابن شهيد. لا أعتقد أن أبي كان يتوقع له مستقبلاً
كهذا!

قاطعتك في محاولة لتخفيف تذكرك:

- إنه لم يتوقع أيضاً لك مستقبلاً كهذا. لقد ذهبت أبعد من
أحلامه؛ إنك الوريثة لكل طموحاته ومبادئه. كان رجلاً يقْدَس العلم
والمعرفة، ويعشق العريّة، ويحلم بجزائر لا علاقة لها بالخرافات
والعادات البالية التي أرهقت جيله وقضت عليه. إنك لا تعين أن
يكون لك اليوم هذا الحظ الاستثنائي، في وطن يمنحك فرصة أن
تكوني فتاة مثقفة، يمكنها الدراسة والعمل وحتى الكتابة..

أجبت بشيء من السخرية:

- قد أكون مدينة للجزائر بثقافتي أو بعلمي، ولكن الكتابة شيء
آخر لم يَمَنْ به أحد عليّ. نحن نكتب لاستعيد ما أضعنناه وما سرق
خلصة منا.. كنت أفضل أن تكون لي طفولة عادية وحياة عادية، أن
يكون لي أب وعائلة كالآخرين؛ وليس مجموعة من الكتب وحزمة من
الدفاتر. ولكن أبي أصبح ملكاً لكل الجزائر، ووحدها الكتابة
أصبحت ملكي.. ولن يأخذها مني أحد!

أذهلني كلامك. ملأني بأحاسيس متناقضة. أحزني، ولكنه لم
يوصلني إلى حدّ الشفقة عليك. إن امرأة ذكية لا تثير الشفقة. إنها
دائماً تثير الإعجاب حتى في حزنها. وكنت معجباً بك، بجرحك
المكابر، بطريقتك الاستفزازية في تحدّي هذا الوطن. كنت تشبهيني
أنا الذي كنت أرسم بيد لاستعيد يدي الأخرى. كنت أفضل لو
بقيت رجلاً عادياً بذراعين اثنتين، لأقوم بأشياء عادية يومية، ولا

اتحول إلى عبقرى بذراع واحدة، لا تتأبط غير الرسوم واللوحات.
لم يكن حلمي أن أكون عبقرتاً ولا نبياً ولا فناناً رافضاً ومرفوضاً.
لم أجاهد من أجل هذا. كان حلمي أن تكون لي زوجة وأولاد،
ولكن القدر أراد لي حياة أخرى، فإذا بي أب لأطفال آخرين وزوج
للغربة والفرشاة.. لقد بتروا أيضاً أحلامي.

قلت لك:

- لن يأخذ أحد منك الكتابة.. إن ما في أعماقنا هو لنا ولن تطوله
يد أحد.

قلت:

- ولكن ليس في أعماقي شيء سوى الفراغات المحشوة بقصاصات
الجرائد.. بنشرات الأخبار، وبكتب ساذجة ليس بيني وبينها من
قرابة.

ثم أضفت وكأنك تودعيني سراً:

- أتدري لماذا كنت أحب جدتي أكثر من أي شخص آخر.. وأكثر
حتى من أمي؟ إنها الوحيدة التي كانت تجد متسعاً من الوقت
لتحدثني عن كل شيء.. كانت تعود إلى الماضي تلقائياً، وكأنها
ترفض الخروج منه. كانت تلبس الماضي.. تأكل الماضي.. ولا
تطرب سوى لسماح أغانيه.

كانت تحلم بالماضي في زمن كان الآخرون يحلمون فيه بالمستقبل.
ولذا كثيراً ما تحدثني عن أبي دون أن أطلب منها ذلك، فقد كان أجل
ما في ماضيها الأنثوي العابر. وكانت لا تتعب من الحديث عنه،
كأنها تستعيده بالكلمات وتستحضره. كانت تفعل ذلك بحسرة الأم
التي ترفض أن تنسى أنها فقدت بكرها إلى الأبد.. ولكنها لم تكن

تقول لي عنه أكثر مما تقوله أم عن ابنتها. كان الطاهر هو الأجل .. هو الأروع .. هو الأبن البار الذي لم يرححها يوماً بكلمة.

يوم الاستقلال بكت جدتي كما لم تبك يوماً. سألتها «أما .. لماذا تبكين وقد استقلت الجزائر؟» قالت: «كنت في الماضي أنتظر الاستقلال ليعود لي الطاهر، اليوم أدركت أنني لم أعد أنتظر شيئاً».

يوم مات أبي لم تزغرد جدتي كما في قصص الثورة الخيالية التي قرأتها فيما بعد. وقفت في وسط الدار وهي تشفق بالبكاء وتنفض عارية الرأس مرددة بحزن بدائي: «يا وخيدي .. يا سوادي .. آه الطاهر أحناني لمن خلّيتني .. نروح عليك أطراف».

وكانت أمي تبكي بصمت وهي تحاول تهدئتها، وكنت أنا أنفجج عليهما وأبكي دون أن أفهم تماماً أنني أبكي رجلاً لم أره سوى مرّات .. رجلاً كان أبي.

لماذا كان ذكرك لـ (أما الزهرة) يثير دائماً في تلك العواطف الغامضة، التي كانت جميلة ودافئة قبل ذلك اليوم، والتي أصبحت فجأة موجعة حدّ البكاء؟

مازلت أذكر ملامح تلك العجوز الطيبة التي أحبتني بقدر ما أحببتها والتي قضيت طفولتي وصباي متنقلاً بين بيتها وبيتنا. كان لتلك المرأة طريقة واحدة في الحب، اكتشفت بعدها أنها طريقة مشتركة لكل الأمهات عندنا. إنها تحبك بالأكل، فتعدّ من أجلك طبقك المفضل وتلاحقك بالأطعمة، وتحملك بالحلويات، وبالكسرة والرخسيس الذي انتهت لتوها من إعداده.

لقد كانت تنتمي لجيل من النساء نذرن حياتهنّ للمطبخ، ولذا

كنّ يعشن الأعياد والأعراس كوليمة حبّ، يهن فيها من جملة ما يهن فائض أنوثتهنّ.. وحنانهنّ وجوع سرّي لم يجد له من تعبير آخر خارج الأكل.

لقد كنّ في الواقع يطعمن كلّ يوم أكثر من مائدة.. وأكثر من «ترأس».. وينمن كلّ ليلة دون أن يتبّه أحد إلى جوعهنّ المتوارث منذ عصور.. اكتشفت هذه الحقيقة مؤخراً فقط، يوم وجدت نفسي - ربّما وفاءً لهُنّ - عاجزاً عن حبّ امرأة تعيش على الأكل الجاهز، ولا وليمة لها غير جسدها!

سألتك وأنا أهرب من تلك الذكريات هربي من خدوش طفولتي البعيدة:

- وأمك.. إنك لم تحدّثيني عنها أبداً كيف عاشت بعد وفاة سي الطاهر؟

قلت:

- لقد كانت قليلة الحديث عنه.. ربّما كانت في أعماقها تعتب على الذين زوّجوها منه، فقد كانوا يزفونها لشهيد وليس لرجل..

كانت تعرف مسبقاً نشاطه السياسي، وتدرّي أنّه سيلتحق بالجهة بعد الزواج، وسيدخل في الحياة السريّة، ولن يزورها إلّا خلصة بين الحين والآخر، وقد لا يعود إليها إلّا جنثاناً، فلماذا هذا الزواج إذن؟ ولكن كان لا بدّ لذلك الزواج أن يتمّ؛ كان في الجوّ رائحة صفقة ما. فقد كان أهلها فخورين بمصاهرة الطاهر عبد المولى، صاحب الاسم والثروة الكبيرة. ولا بأس أن تكون أمّي زواجه الثاني أو أرملته القادمة. وربّما كانت جدّتي تعرف أنّه خلق ليستشهد فراحته تزور الأولياء والصالحين متضرّعة باكية ليكون لابنها أخيراً ذريّة.. تماماً كما

كانت تزورهم سابقاً يوم كانت جبلى به طالبة آنذاك أن يكون مولودها صبيّاً . .

سألتك :

- من أين تعرفين كل هذه القصص ؟

قلت :

- منها هي . . ومن أمي أيضاً . تصوّر أنّها يوم كانت جبلى بأبي لم تفارق مزار (سيدي محمد الغراب) بقسنطينة ، حتّى إنّها كادت تلده هناك . . ولذا سُمّته (محمد الطاهر) تباركاً به . . ثمّ سمّت عمّي (محمد الشريف) تباركاً به أيضاً . بعدها عرفت أنّ نصف رجال تلك المدينة أسماؤهم هكذا . . وأنّ أهل تلك المدينة يولون اهتماماً كبيراً للأسماء ، وأنّ معظمهم يحمل أسماء الأنبياء أو الأولياء الصالحين . وهكذا كادت تسمّي «السيدة» تباركاً بالسيدة المنويّة التي كانت تزورها في تونس كلّ مرّة محمّلة بالشمع والسجاد والدعوات ، متنقّلة بين ضريحها ومزار (سيدي عمر الفايّاش) . ربّما سمعت به ، ذلك الوليّ الذي كان يعيش عارياً تماماً من كلّ شيء . . وهو ما جعل السلطات التونسية تقوم بربط قدمه إلى سلسال حديديّ حتّى لا يغادر البيت عارياً كما تعود أن يفعل . . وهكذا كان يعيش مقيداً ، يدور ويصرخ وسط غرفة فارغة ، إلّا من النساء اللاتي يتسابقن لزيارته ، بعضهنّ للتبارك به . . وأخريات لمجرّد اكتشاف رجولته المعروضة للفرجة . . ولفصول النساء الملتحفات بـ (الفساري) والمتظاهرات بالحشمة الكاذبة ! .

سألتك ضاحكاً . .

- وهل زرته أنت ؟ .

قلت:

- طبعاً.. لقد زرقته بعد ذلك مع كل واحدة منهم على انفراد؛ وزرت أيضاً «السيدة المنوبية»، المرأة التي كدت أحمل اسمها، لولا أن أمي أنقذتني من تلك الكارثة، وقررت أن تسميني «حياة» في انتظار مجيء أبي، الذي يعود إليه القرار الأخير في اختيار اسمي.

توقف القلب عند هذا الاسم.. وركضت الذاكرة إلى الوراء. تعثر اللسان وهو يلفظ هذا الاسم بعد ربع قرن تماماً وفاجأك سؤال: - هل يسعدك أن أناديك «حياة»؟

قلت متعجبة..

- لماذا.. ألا يعجبك اسمي الحقيقي.. أليس أجمل؟!

قلت:

- إنه حقاً أجمل.. حتى أنني تعجبت وقتها كيف خطر اسم كهذا في بال والدك. كنت أسمع له لأول مرة ولم يكن في حياته آنذاك ما يمكن أن يوحي باسم جميل كهذا.. وبرغم ذلك أحب أن أسميك «حياة» لأنني قد أكون الوحيد مع والدتك الذي يعرف اليوم هذا الاسم. أريد أن يكون بيننا كلمة سر، ليذكرك بعلاقتنا الاستثنائية، وبأنك أيضاً.. طفلي بطريقة ما.

ضحكت.. قلت:

- أتدري أنك لم تخرج أبداً من فترة الثورة، ولذا أنت تشعر برغبة في أن تعطيني اسماً حركياً حتى قبل أن تحبني. وكأنك ستدخلني بذلك في العمل السري.. أية مهمة تراك تعد لي؟

ضحكت بدوري لملاحظتك التي فاجأتني بواقعتها. تراك بدأت تعرفيني إلى هذا الحد؟

قلت :

- اعلمي آيتها الثورية المبتدئة أنه لا بد من أكثر من اختبار.
لنكلف أحداً بمهمة فدائية. ولذا سأبدأ في مرحلة أولى بدراستك،
ومعرفة استعداداتك الخاصة!



احسنت لحظتها، أن الوقت قد أصبح مناسباً، لأقص عليك
أخيراً قصة يومي الأخير في الجبهة، ذلك اليوم الذي لفظ فيه سي
الطاهر اسمك أمامي لأول مرة، وهو يودّعني ويكلفني إذا ما وصلت
إلى تونس على قيد الحياة أن أقوم بتسجيلك نيابة عنه.

وتلك الليلة التي عبرت فيها الحدود الجزائرية التونسية، بجسد
محموم وذراع تنزف، وأنا أردد لنفسني بهذيان الحتمى، اسمك الذي
أصبح وسط إجهادي ونزيفي، وكأنه اسم لعملية أخيرة كلفني بها سي
الطاهر، كنت أريد أن أحقق طلبه الأخير، وأطارد حلمه الهارب،
فأمنحك اسماً شرعياً رسمياً.. لا علاقة له بالخرافات والأولياء..

أذكر ذلك اليوم الذي وقفت فيه لأول مرة أدق باب بيتكم في
شارع التوفيق بتونس. أذكر تلك الزيارة بكل تفاصيلها وكأنّ ذاكرتي
كانت تقرأ مسبقاً ما سيكتب لي معك، فأفرغت مساحة كافية لها.

في ذلك اليوم الخريفى من شهر أيلول، انتظرت أمام بابكم
الحديديّ الأخضر، قبل أن تفتح (أما الزهرة) الباب بعد لحظات
بدت لي طويلة..

مازلت أذكر تلك الشهقة في نظرتها، كأنها كانت تنتظر شخصاً آخر
غيري.

توقفت مدهوشة أمامي، تفحصت معطفي الرمادي الحزين
ووجهي النحيل الشاحب. توقفت عند ذراعي الوحيدة التي تمسك
علبة الحلوى، وذراع معطفي الأخرى الفارغة التي تختبئ لأول مرة
بحياء داخل جيب معطفي.

وقبل أن أنطق بأيّة كلمة اغرورقت عيناها بالدموع، وراحت
تبكي دون أن تفكر حتى في دعوتي إلى دخول البيت.

انحنيت أقبّلها.. بشوق السنوات التي لم أرها فيها.. بالشوق
الذي حملني إياه ابنها.. وبشوق (أما) التي لم أعود بعد ستين
ونصف على فجيعتها..

- واشك أما الزهرة؟

زاد بكاءها وهي تحتضني وتساألني بدورها..

- واش راك يا ولدي..؟

أكان بكاءها فرحاً بلقائي، أم حزناً على حالتي، وعلى ذراعي التي
تراها مبتورة لأول مرة.. أكانت تبكي لأنها توقعت أن ترى ابنها
ورأتني.. أم فقط لأنّ أحداً قد دقّ هذا الباب، ودخل حاملاً في يده
البهجة، وشيئاً من الأخبار، لبيتٍ ربما لم يدخله رجل منذ شهور؟

- ع السلامة.. جوز يا ولدي جوز..

قالتها وهي تشرع باب الدار أخيراً وتمسح دموعها. ثم أعادت
وهي تسبقني «جوز.. جوز.. بصوت عالٍ كإشارة موجهة لأُمك
التي ركضت عند سماع هذه الكلمات، ولم أر غير ذيل ثوبها يسبقني،
ويجتفي خلف باب مغلق على عجل.

أحييت ذلك البيت.. بدوالي العنب التي تتسلق جدران حديقته
الصغيرة، وتمتدّ لتدلى عناقيد ثريّات سوداء على وسط الدار.

شجرة الياسمين التي ترنمي وتطلّ من السور الخارجي، كامرأة فضولية ضاقت ذرعاً بجدران بيتها، وراحت تتفوّج على ما يحدث في الخارج، لتفري المارة بقطف زهرها.. أو جمع ما تبعثر من الياسمين أرضاً.. ورائحة الطعام التي تنبعث منه، فتبعث معها الطمانينة، ودفع غامض يستبقيك هناك.

سبقتني (أما الزهرة) إلى غرفة تطلّ على وسط الدار مرّدة:

- اقعد يا ولدي.. اقعد..

قالتها وهي تأخذ مني علبة الحلوى وتضعها على الصينية النحاسية المستديرة والموضوعة على مائدة خشبية.

وما كدت أجلس أرضاً على ذلك المطرح الصوفي حتى ظهرت أنت في طرف الغرفة صغيرة كدمية، وجبوت مسرعة نحو العلبة البيضاء تحاولين سحبها إلى الأرض وفتحها. وقبل أن أتدخل أنا كانت (أما الزهرة) قد أخذت منك العلبة وذهبت بها إلى مكان آخر وهي تقول: «يعطيك الصحة يا ولدي.. وعلاش عيت روحك يا خالدا يا بني.. وجهك يكفيننا..».

ثمّ عادت ونهرتك، وأنت تتجهين نحو الشّياحة الخشبية، الموضوعة على شكل قبة صغيرة فوق كانون، والتي كانت ثيابك الصغيرة البيضاء منثورة فوقها كي تحفّ.. وعندها جرت نحوي في خطوتين متردّتين، ويداك الصغيرتان أمامك تستنجدان بي.

لحظتها شعرت بهول ما حلّ بي، وأنا أمدّ نحوك يدي الفريدة في محاولة للإمساك بك. لقد كنت عاجزاً عن التقاطك بيدي الوحيدة المرتبكة، ووضعك في حجري للماعتك دون أن تقلّني مني.

أليس عجيباً أن يكون لقائي الأوّل بك هو امتحاني الأوّل وعقدتي

الأولى، وأن أنهزم على يدك في أصعب تجربة مررت بها منذ أصبحت رجل الذراع الواحدة.. منذ عشرة أيام لا أكثر..!

عادت (أما الزهرة) بصينية القهوة وبصحن «الطمينة»:

- قل لي يا خالد يا ابني وراسك.. واش راه الطاهر؟

قالتها قبل أن تجلس حتى على المطرح.. كان في سؤالها مذاق الدمع. وفي حلقها غصة السؤال الذي يخاف الجواب.. فرحت أطمئنها. أحبرتها أنني كنت تحت قيادته وأنه الآن في منطقة الحدود وأن صحته جيدة ولكنه لا يستطيع الحضور هذه الأيام، لصعوبة الأوضاع ومسؤولياته الكثيرة.

لم أخبرها أن المعارك تشتد كل يوم، وأن العدو قرّر أن يطوق المناطق الجبلية، ويحرق كل الغابات، حتى تتمكن طائراته من مراقبة تحركاتنا.. وأنه تم إلقاء القبض على مصطفى بن بولعيد، ومعه مجموعة من كبار القادة والمجاهدين، وأن ثلاثين منهم قد صدر في حقهم الحكم بالإعدام، وأني أتيت للعلاج مع مجموعة من الجرحى والمشوهين الذين مات اثنان منهم قبل أن يصلوا..

لقد قال لها منظري أكثر مما تتحمّله امرأة في سنّها، فرحت أغير مجرى الحديث.. أمددتها بتلك الأوراق النقدية التي أرسلها معي سي الطاهر، وطلبت منها حسب وصيته أن تشتري لك بها هدية، ووعدتها أن أعود قريباً لتسجيلك، بذلك الاسم الذي اختاره لك، والذي ردّته أما الزهرة بصعوبة، وبشيء من الدهشة، ولكن دون تعليق. فقد كان لما يقوله سي الطاهر بالنسبة لها صفة القداسة.

وكأنك انتهيت فجأة أن الحديث يعينك، فتسلّقت ركبتي وجئت فجأة لتجلسي في حجري بتلقائية طفولية، ولم أتمالك لحظتها من

احتضانك بيدي الوحيدة . . ضممتك إليّ، وكأني أضمت الحلم الذي أضعت من أجله ذراعي الثانية؛ كأني أخاف أن يهرب مني وتهرب معه أحلام ذلك الرجل الذي لم يسعد بعد باحتضانك .

رحت أقبلك وسط دموعي وفرحتي وألمي وكلّ تناقضي، نيابة عن سي طاهر وعن رفاق لم يروا أولادهم منذ التحقوا بالجبهة، ونيابة عن آخرين، ماتوا وهم يحلمون بلحظة بسيطة كهذه، يحتضنون فيها بدل البنادق، أطفالهم الذين ولدوا وكبروا في غفلة منهم .

نسيت يومها أن أقبلك نيابة عني . . وأن أبكي أمامك نيابة عني . نيابة عن الرجل الذي سأتحول إليه على يدك بعد ربع قرن . نسيت أن أسجل حوار اسمك اسمي مسبقاً . . وأن أطلب ذاكرتك مسبقاً . . وأعوامك القادمة مسبقاً . . أن أحجز عمرك، وأوقف عداد السنوات الذي كان يركض بي نحو السابعة والعشرين . . وأنت تدخلين شهرك السابع !

نسيت أن أستبقيك هكذا على حجري إلى الأبد، تلعبين وتعبئين بأشيائي، وتقولين لي كلاماً لا أفهمه . . ولا تفهمينه .

لم تقاطعيني مرة واحدة، وأنا أقصّ عليك تلك القصة بإيجاز متعمّد، وأترك تفاصيلها المتشعبة لي .

توقّفت فقط عند ذلك اليوم ١٥ أيلول ١٩٥٧ الذي وقفت فيه لأكتب على سجل رسمي اسمك النهائي .

لم تسأليني أيّ سؤال توضيحي، ولا علّقت يومها بكلمة واحدة، على قصة لم يقصّها عليك أحد قبلي . ربّما لأنّ لا أحد وجد في تلك القصة ما يستحقّ التوقّف .

استمعت إليّ بذهول، وبصمت خفيف . وراحت غيوم مكابرة

تُحجب نظرتك عني.. كنت تكيين أمامي لأول مرة، أنت التي ضحكت معي في ذلك المكان نفسه كثيراً.

ترانا أدركنّا لحظتها، أننا كنّا نضحك لتحايل على الحقيقة الموجهة، على شيء ما كنّا نبحث عنه، ونؤجله في الوقت نفسه؟

نظرت إليك خلف ضباب الدمع.. كنت أودّ لحظتها، لو احتضنتك بذراعي الوحيدة، كما لم أحضن امرأة، كما لم أحضن حلماً. ولكنني بقيت في مكاني، وبقيت في مكانك، متقابلين هكذا.. جبلين مكابرين، بينهما جسر سرّي من الحنين والشوق.. وكثير من الغيوم التي لم تمطر.

استوقفتني كلمة جسر، وتذكّرت تلك اللوحة، وكأنني تذكّرت الفصل الأهمّ من قصّة، كنت أروها لك وربّما أروها لنفسيّ أيضاً، عساني أصدّق غرابتها. وقفت وقلت:
- تعالي سأريك شيئاً.

تبعني دون سؤال.

وقفت أمام تلك اللوحة. قلت لك وأنت تنتظرين مدهوشة ما سأقوله:

- أتدرين.. يوم رأيته تقفين أمام هذه اللوحة، في ذلك اليوم الأول، سرت قشعريرة في جسدي. شعرت أنّ بينك وبين هذه اللوحة قرابة ما أجهلها. ولكنني كنت متأكّداً منها، ولذا أتيت لأسلم عليك عساني أكتشف خطأ حدسي.. أو صوابه.

قلت متعجّبة:

- وهل كنت مصيّباً في حدسك؟

قلت:

- ألم تلاحظي التاريخ المكتوب على هذه اللوحة؟

أجبت وأنت تبحثين عنه أسفلها .

- لا .

قلت :

- إنه قريب من تاريخ ميلادك الرسمي . أنت تكبرين هذه اللوحة

بأسبوعين فقط . إنها توأمك إذا شئت !

قلت مذهولة :

- عجيب . . عجيب كل هذا !

نظرت إلى اللوحة وكأنك تبحثين فيها عن نفسك ، قلت :

- أليست هذه قنطرة الجبال؟

أجبتك :

- إنها أكثر من قنطرة . . إنها قسنطينة . وهذه هي القرابة الأخرى

التي تربطك بهذه اللوحة .

يوم دخلت هذه القاعة ، دخلت قسنطينة معك .

دَخَلْتُ في طَلَّتِكَ . . في مشيتك . . في لهجتك . . وفي سوار كنت

تلبسينه .

فكُرت قليلاً ثم قلت :

- آ . . . تعني «المقياس» . . يحدث أحياناً أن ألبسه في بعض

المناسبات . . ولكنه ثقيل يوجع معصمي .

قلت :

- لأنّ الذاكرة ثقيلة دائماً . لقد لبسته «أماً» عدّة سنوات متتالية ،

ولم تشك من ثقله . ماتت وهو في معصمها . . إنها العادة فقط !

لم أعتب عليك . كان في صوتي حسرة ، ولكن لم أقل لك شيئاً .

كنت تتمنين لجيل يثقل عليه حمل أيّ شيء . ولذا اختصر الأنثواب

العربية القديمة بأثواب عصرية من قطعة أو قطعتين. واختصر الصيغة والحلي القديمة، بحلي خفيفة تلبس وتخلع على عجل. واختصر التاريخ والذاكرة كلها بصفحة أو صفحتين في كتب مدرسية، واسم أو اسمين في الشعر العربي..

لن أعتب عليك، نحن ننتمي لأوطان لا تلبس ذاكرتها إلا في المناسبات، بين نشرة أخبار وأخرى. وسرعان ما تخلعها عندما تطفأ الأضواء، وينسحب المصورون، كما تخلع امرأة أثواب زيتها. قلت وكأنك تعتذرين عن خطأ لم تتعمديه:

- إذا شئت سألبس ذلك السوار من أجلك.. أيسعدك هذا؟ فاجأني كلامك. كان الموقف حزينا شيئاً ما، رغم تلقائيته، وربما كان مضحكاً بحزن.

كنت هنا أعرض عليك أبوتي، وكنت تعرضين علي أمومتك. أنت الفتاة التي كان يمكن أن تكون ابنتي، والتي أصبحت دون أن تدري.. أمي!

وكان يمكن أن أجيبك لحظتها بكلمة واحدة، اختصر فيها كل تناقضات موقفنا ذلك، وأختصر فيها كل ما أشعر به تجاهك من عواطف متطرفة.. وجاجة. ولكنني قلت شيئاً آخر. قلت:

- يسعدني ذلك، ويسعدني أيضاً أن تلبسيه من أجلك أنت. لا بد أن تعي أنك لن تفهمي شيئاً من الماضي الذي تبحثين عنه، ولا من ذاكرة أب لم تعرفه، إذا لم تفهمي قسطنطين بعاداتها وتلحيمي بها. إننا لا نكتشف ذاكرتنا ونحن نتفرج على بطاقة بريدية.. أو لوحة زيتية كهذه.

نحن نكتشفها عندما نلمسها، عندما نلبسها ونعيش بها .
هذا السوار مثلاً، لقد أصبحت علاقتي به فجأة علاقة عاطفية .
لقد كان في ذاكرتي رمزاً للأُمومة دون أن أدري . اكتشفت هذا يوم
رأيتك تلبسينه، وكان يمكن ألا تلبسينه . وتظل كل تلك الأحاسيس
التي فجّرها داخلي نائمة في دهاليز النسيان . هل تفهمين الآن . . أن
الذاكرة أيضاً في حاجة إلى أن نوقظها أحياناً؟

كم كنت أحمق . . كنت دون أن أدري، أوقظ داخلي مارداً كان
نائماً منذ سنين . وكنت أحولك في حمي جنوني من فتاة إلى مدينة .
وكنت تستمعين لي بانبهار تلميذة، وتلقين كلماتي كما يتلقى شخص
في جلسة تنويم مغنطيسي، تعاليمه وأوامره من منوم يفعل به ما
يشاء .

اكتشفت يومها قدرتي على ترويضك، وعلى السيطرة على نارك
المحرقة .

وقرّرت في سري أن أحولك إلى مدينة شاهقة . . شاحخة،
عريقة . . عميقة، لن يطاها الأقدام ولا القراصنة .
حكمت عليك أن تكوني قسنطينة ما . .
وكنت أحكم على نفسي بالجنون .

* * *

قضينا معاً وقتاً أطول ذلك اليوم . . وافترقنا مثقلين بالهزّات
النفسية، مشحونين بالانفعالات المتطرفة، التي عشناها خلال أربع
ساعات من الحديث المستمر . قلنا الكثير، وسط دموعنا المكابرة
أحياناً، ووسط صمتنا المخيف أحياناً أخرى .

كنت سعيداً ربّما لأنني رأيتك تبكين لأول مرة . كنت أحتقر الناس

الذين لا دموع لهم، فهم إمّا جبابرة.. أو منافقون. وفي الحالتين هم لا يستحقّون الاحترام.

كنت المرأة التي كنت أريد أن أضحك وأبكي معها.
وكان هذا أروع ما اكتشفته ذلك اليوم.

تذكّرت لقاءنا الأول، الذي بدأناه دون تخطيط بالتعليقات الساخرة. يومها تذكّرت مثلاً فرنسياً يقول: «أقصر طريق لأن تربح امرأة هو أن تضحكها»، وقلت ها أنذا ربحتها دون جهد..

اليوم اكتشفت حماسة ذلك المثل الذي يشجّع على الريح السريع، وعلى المغامرات العابرة التي لا يهم أن تبكي بعدها المرأة التي قد ضحكت في البداية.

لم أربحك بعد نوبة ضحك..

ربحتك يوم بكيت أمامي وأنت تستمعين إلى قصّتك التي كانت قصّتي أيضاً. ثمّ في تلك اللحظة التي تأملت فيها تلك اللوحة بتأثر واضح. وكنت ربما على وشك أن تضعي قبلة على خدي، أو تحضيني في لحظة حنان مفاجئ.. ولكنك لم تفعلي.

وافترقنا مثل العادة، ونحن نتصافح، وكأننا نخاف أن تتحوّل تلك القبلة العابرة على الخدّ، إلى فتيلة تشعل الراكين النائمة.

كنّا نفهم بعضنا بصمت متواطئ. كان حضورك يوقظ رجولي.
كان عطرك يستفزّي ويستدرجني إلى الجنون. وعيناك كانتا تجرّداني من سلاحي حتّى عندما تمطران حزناً.

وصوتك.. آه صوتك كم كنت أحبه.. من أين جئت به؟ أيّ لغة كانت لغتك؟ أيّ موسيقى كانت موسيقاك..

كنت دهشتي الدائمة، وهزيعتي المؤكّدة، فهل كان يمكن أن تكوني

ابنتي، أنت التي لم يكن يمكن في المنطق أن تكوني شيئاً آخر غير ذاك
بالنسبة لي.

ورحت أقاومك بحواجز وهمية أضعتها بيننا كل مرة، كما نوضع
حواجز في ساحة سباق، ولكنك كنت فرساً خلقت للتحدي وريح
الرهان. كنت تقفز عليهما جميعاً مرة واحدة، بنظرة واحدة.

كانت نظراتك تتسكع فوقني، تتوقف أحياناً هنا. . وأحياناً هناك،
لتنتهي عند عينيّ أو زرّ قميصي المفتوح كالعادة.
قلت مرة وأنت تتألميني أكثر:

- فيك شيء من زوربا. شيء من قامته. . من سمرة. . وشعره
الفوضويّ المسنق. ربما كنت فقط أكثر وسامة منه.
أجبتك:

- يمكن أن تضيفي كذلك، أنني في سنّه، وفي جنونه وتطرفه، وأنّ
في أعماقي شيئاً من وحدته. . من حزنه ومن انتصاراته التي تتحوّل
دائماً إلى هزائم.
قلت متعجّبة:

- أتعرف عنه كلّ هذا. . . المحبّه؟

أجبت:

- ربما. .

قلت:

- أتدري أنّه الرجل الذي أثر أكثر في حياتي؟
أدهشني اعترافك. فكّرت إمّا أنّك لم تعرفي كثيراً من الرجال. . أو
لم تقرّني كثيراً من الكتب. وقبل أن أقول شيئاً واصلت بحماسة:
- يعجبني جنونه وتصرفاته غير المتوقعة. . علاقته العجيبة بتلك
المراة. . فلسفته في الحبّ والزواج. . في الحرب وفي العبادة،

وتعجني أكثر طريقته في أن يصل بأحاسيسه إلى ضدها. أتذكر قصة الكرز، يوم كان يحب الكرز كثيراً وقرر أن يشفى من ولعه به بأن يأكل منه كثيراً. كثيراً حتى يتقيأه. بعد ذلك أصبح يعامله كفاكهة عادية. كانت تلك طريقته في أن يشفى من الأشياء التي يشعر أنها تستعبده.

قلت:

- لا أذكر هذه القصة..

قلت:

- وهل تذكر رقصته تلك وسط ما يسميه بالخراب الجميل؟ إنه شيء مذهش أن يصل الإنسان بخيبته وفجائعه حد الرقص. إنه تميز في الهزائم أيضاً، فليست كل الهزائم في متناول الجميع. فلا بد أن تكون لك أحلام فوق العادة، وأفراح وطموحات فوق العادة، لتصل بعواطفك تلك إلى ضدها بهذه الطريقة..

كنت أستمع إليك بانبهار وممتعة. وبدل أن أجد في ذلك «الخراب الجميل» الذي كنت تصفيه لي بحماسة، ما يمكن أن يثير مخاوفي من نزعة سادية، أو مازوشية ما قد تسكنك، رحت أنقاد لجمال فكرتك فقط، وأقول دون كثير من التفكير:

- صحيح.. جميل ما تقولين.. ثم أضيف.. لم أكن أدري أنك

تحيين زوربا إلى هذا الحد!

قلت ضاحكة:

- سأعترف لك بشيء.. لقد أربكتني هذه القصة كثيراً. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معاً. كنت أريد أن أحب رجلاً كهذا.. أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكناً، ولهذا ستطاردني هذه القصة حتى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.

قلت ساخراً:

- يسعدني إذن أن تجدي شيئاً من الشبه بيني وبينه، فقد تحققين
الأمنتين معاً .

تأملتي بشيء من الشيطنة المحببة وقلت:

- معك أريد أن أحقق إحدى الأمنتين فقط .

وأضفت قبل أن أسألك أيهما:

- لن أكتب عنك شيئاً .

- آ . . لماذا . ؟

- لأنني لا أريد قتلك، أنا سعيدة بك . . نحن نكتب الروايات

لنقتل الأشخاص الذين أصبح وجودهم عبئاً علينا . . نحن نكتب
لنتهي منهم . .

يومها ناقشتك طويلاً في نظرتك «الإجرامية» للأدب وقلت لك

ونحن نفرق:

- أيمكنني أخيراً أن أطلع على روايتك الأولى . . . أو «جريمتك

الأولى»؟!

ضحكت وأجبت:

- طبعاً . . شرط ألا تتحول إلى محقق جنائي أو طرفٍ في تلك

القصة!

تراك كنت تنبئين بما ينتظرنني، وتدرين مسبقاً أنني لن أكون معك

قارئاً محايداً بعد الآن .

في اليوم التالي أحضرت لي تلك الرواية . قلت وأنت تمدين نحوي

الكتاب:

- أتمنى أن تجد شيئاً من المتعة في قراءتها .

قلت مازحاً:

- واعتني ألا يفسد عدد ضحاياك متعني!

أجبت باللهجة نفسها:

- لا.. اطمئن.. فأنا أكره المقابر الجماعية!

كيف نسيت هذه الجملة الأخيرة..

عندما أتذكرها الآن، أقتنع أن قصتك الجديدة هذه، التي تروج لها المجلات والجرائد، لن تكون سوى ضريح فردي لبطل واحد ربما كان زياد.. وربما كان أنا.. فمن ترى المحظوظ منا بمئة كهذه؟! وحده كتابك قد يحمل جواباً على هذا السؤال، وعلى أسئلة أخرى تطاردني.

ولكن.. لماذا يشر كل ما تكتبينه لدي أكثر من سؤال؟ ولماذا أشعر أنني طرف في كل قصصك الواقعية والوهمية، حتى تلك التي كتبها قبلي؟

ترى لأنني أتوهم أن لي حقاً تاريخياً عليك، أو لأنك يوم أهديتني كتابك الأول ذاك، لم تضعي عليه أي إهداء، وقلت ذلك التعليق المدهش الذي لم أنسه:

«إننا نخطئ إهداء للغرباء فقط.. وأما الذين نحبهم فمكانهم ليس في الصفحة البيضاء الأولى، وإنما في صفحات الكتاب..».

يومها أسرعرت إلى ذلك الكتاب ألتهمة في سهرتين. رحت أركض لاهثاً من صفحة إلى أخرى، وكأنني أبحث عن شيء ما غير الذي أقرأه. عن شيء قد تكونين كتبه لي مسبقاً مثلاً حتى قبل أن نلتقي. عن شيء ما قد يكون يربطنا من خلال قصة لم تكن قصتنا.

أدري أن ذلك كان جنوناً، ولكن ليس في الحياة مصادفات مدهشة كتلك اللوحة التي رسمتها ذات أيلول من سنة ١٩٥٧،

وبقيت تنتظرك ربع قرن دون أن أدري أنها كانت لك. . بل إنها كانت أنت؟

وكان ذلك محض أوهام. . لم تحبّي لي في كتابك ذاك، سوى مرارة وألم وغيرة حمقاء، ذقت نارها لأول مرة. غيرة جنونية من رجل من ورق، قد يكون مرّ بحياتك حقاً. . وقد يكون مخلوقاً خيالياً، أثبت به فراغ أيامك وبياض الصفحات فقط.

ولكن أين هو الحدّ الفاصل بين الوهم والواقع؟ لم تحبيني مرة واحدة عن ذلك السؤال. . رحبت تعمّقين حيرتي بأجوبة أكثر غموضاً. . قلت:

- إنّ المهمّ في كلّ ما نكتبه. . هو ما نكتبه لا غير، فوحدها الكتابة هي الأدب. . وهي التي ستبقى، وأمّا الذين كتبنا عنهم فهم حادثة سير. . أناس توقفنا أمامهم ذات يوم لسبب أو لآخر. . ثمّ واصلنا الطريق معهم أو بدونهم.

قلت:

- ولكن لا يمكن أن تكون علاقة الكاتب بملهمه مسّطة إلى هذا الحدّ. إنّ الكاتب لا شيء دون من يلهمه. . إنه مدين له بشيء. . قاطعتني. .

- مدين له بماذا. .؟. . إنّ ما كتبه «أراغون» عن عيون «إلزا» هو أجمل من عيون «إلزا» التي ستشيخ وتذبل. . وما كتبه نزار قبّاني عن صفائر «بلقيس» أجمل بالتأكيد من شعر غزير كان محكوماً عليه أن يبيض ويتساقط. . وما رسمه ليونارد ديفانشي في ابتسامة واحدة للجوكاندا، أخذ قيمته ليس في ابتسامة ساذجة للمونوليزا، وأمّا في قدرة ذلك الفنّان المذهلة على نقل أحاسيس متناقضة، وابتسامة

غامضة تجمع بين الحزن والفرح في آن واحد . فمن هو المدين
للآخر بالمجد إذن؟

كان حديثنا يأخذ منحى آخر ربّما أردته أنت في محاولة للهرب من
الحقيقة . فأعدت عليك السؤال بصيغة أكثر مباشرة :
- هل مرّ هذا الرجل بحياتك . . أم لا ؟
ضحكت . . وقلت :

- عجب . . إن في روايات «أغاثا كريستي» أكثر من ٦٠ جريمة .
وفي روايات كاتبات أخريات أكثر من هذا العدد من القتل . ولم يرفع
أيّ مرّة قارئ صوته ليحاكمهنّ على كلّ تلك الجرائم ، أو يطالب
بسجنهنّ . وبكفي كاتبة أن تكتب قصّة حبّ واحدة ، لتجّه كلّ
أصابع الاتهام نحوها ، وليجد أكثر من محقّق جنائي أكثر من دليل على
أنّها قصّتها . اعتقد أنّه لا بدّ للنقاد من أن يحسموا يوماً هذه القضية
نهائياً ، فلمّا أن يعترفوا أنّ للمرأة خيالاً يفوق خيال الرجال ، ولمّا أن
يحكمونا جميعاً !

ضحكت لحجّتك التي أدهشتني ولم تقنعني . قلت :

- في انتظار أن يحسم النقاد هذه القضية ، دعيني أكرّر عليك سؤالاً
لم تحييني عنه . . هل مرّ هذا الرجل بحياتك حقّاً؟

قلت وأنت تعبين بأعصابي :

- المهم أنّه مات بعد هذا الكتاب . .

- آ . . لأنك قادرة على أن تقتلي الماضي هكذا بجرّة قلم؟

قلت وأنت تواصلين مراوغتك :

- أيّ ماضٍ؟ . . نحن قد نكتب أيضاً لنصنع أضرحة لأحلامنا لا

غير . .

كان في أعماقي شعور ما بأن تلك القصة كانت قصتك، وأن ذلك الرجل قد مرّ بحياتك.. وربما بجسدك أيضاً.

كنت أكاد أشم بين السطور رائحة تبغ. أكاد أكتشف أشياء مبعثرة بين صفحات كتابك. في كل فقرة شيء منه.. من سمرته.. من مذاق قبلته.. من ضحكته.. من أنفاسه.. ومن اشتهايك الفاضح له..

تراه أبدع في حبك حقاً.. أم أنت التي أبدعت في وصفه؟ أم تراه محض اختراع نسائي، كسته لغتك رجولة وأحلاماً، صنعت لها بعد ذلك ضريحاً جليلاً.. على مفاصده. وأنا، بأي منطق رحت أطلع ذلك الكتاب، في زني عاشق متكرر ببدلة شرطي أخلاق. وإذا بي أنقب بين الكلمات وأبحث بين الفواصل، عساني أكتشفك متلبسة بقبلة ما.. هنا، أو أكتشف الأحرف الأولى من اسمه هناك.

ذهب تفكيري بعيداً.. تذكّرت أنك في باريس منذ أربع سنوات، وأنت تقطين عند عمك منذ عُين في باريس، أي منذ سنتين فقط. فماذا تراك فعلت قبل ذلك في كل الفترة التي كنت فيها بمفردك؟

أرهقني كتابك ذاك، كان ممتعاً ومتعباً مثلك.. اعترفت لك في ما بعد، أن علاقتي بك قد تغيرت منذ قرأتك وأني أشك في أن أكون قادراً على الصمود بعد اليوم.. فأنا لم أكن مهياً لسلح الكلمات.

قلت فقط وكأن الأمر لا يعنيك تماماً:

.. كان عليك ألا تقرأني إذن!

أحبتك بحماقة:

- ولكنني أحب أن أقرأك . ثم أنا لا أملك طريقة أخرى لفهمك . .

أجبت :

- مخطئ . . أنت لن تفهم شيئاً هكذا . . الكاتب إنسان يعيش على حافة الحقيقة ، ولكنه لا يحترفها بالضرورة . ذلك اختصاص المؤرخين لا غير . . لأنه في الحقيقة يحترف الحلم . . أي يحترف نوعاً من الكذب المهذب . والروائي الناجح هو رجل يكذب بصدق مذهش ، أو هو كاذب يقول أشياء حقيقية .

ثم أضفت بعد شيء من التفكير : أعتقد أن هذا هو الأصح . !

آه . . أيتها الكاذبة الصغيرة . . أعذب الكذب كان كذبك ، وأكثره ألماً كذلك . قررت يومها ألا أنقب بعد ذلك في ذاكرتك . أنت لن تبوح لي بشيء . ربما لأنك أنشئ تحترف المراوغة . وربما لأنه ليس هناك من شيء يستحق الاعتراف .

كنت تريدني فقط أن توهميني أنك لم تعودتي تلك الطفلة التي عرفتني . في الواقع . . كنت فارغة ، وكان كذبك في مساحة فراغك . وإلا ما سرّ تعلّقك بي ، ولماذا كنت تطاردني ذاكرتي بالأسئلة ، وتسدرجيني للحديث عن كلّ شيء ؟ لماذا كلّ تلك الشراهة للمعرفة ، كلّ تلك الرغبة في مقاسمتي ذاكرتي وكلّ ما أحببت وما كرهت من أشياء . . أكانت الذاكرة عقدتك ؟



كان لا بدّ لمعرضي أن ينتهي ، لتنتبه أننا نعرف بعضنا منذ أسبوعين فقط ، وليس منذ أشهر كما كان يبدو لنا . فكيف فرغنا من

ذاكرتنا في بضعة أيام؟ كيف تعلّمنا في بضع ساعات قضيناها معاً،
أن نحزن ونفرح ونحلم بتوقيت واحد؟

كيف أصبحنا نسخة من بعضنا . . وكيف يمكن لنا أن نغادر هذا
المكان، الذي أصبح جزءاً من ذاكرتنا؟ كيف . . ؟ وهو الذي وضعنا
لعدة أيام، خارج حدود الزمان والمكان، في قاعة شاسعة، يسكنها
الصمت ويؤثثها الفن، وربيع قرن من المعاناة والجنون؟
كنا لوحة وسط عدة لوحات أخرى.

كنا لوحة متقلّبة الأطوار، متعدّدة الألوان، رسمتها المصادفة يوماً
ثمّ واصلت رسمها يد الأقدار. وكنت أتلذذ بوضعي الجديد ذاك وأنا
أتحوّل من صاحب ذلك المعرض، إلى لوحة من لوحاته لا أكثر.

لم يحدث، مثل تلك المرّة، أن شعرت بحزن وأنا أرفع تلك
اللوحات المعلّقة على الجدران، لوحة بعد أخرى، وأجمعها في
الصناديق لأترك القاعة فارغة لرسم آخر، سيأتي بلوحاته . . بحزنه
وبفرحه وبقصص أخرى لا تشبه قصّتي.
كنت أشعر أنني أجمع أيامي معك.

فجأة، توقفت يدي وهي على وشك أن ترفع تلك اللوحة التي
تركتها للآخر.

تأملتها مرّة أخرى، شعرت أنها ناقصة. لم يكن على مساحتها
سوى جسر يعبرها من طرف إلى آخر، معلق نحو الأعلى بجبال من
طرفيه كأرجوحة حزن.

وتحت الأرجوحة الحديدية هوة صخرية صاربة في العمق تعلن
تناقضها الصارخ مع المزاج الصافي لسماء استفرازية الهدوء والزرقة.

لم أشعر، قبل تلك اللحظة، أن هذه اللوحة في حاجة إلى تفاصيل

جديدة، تكسر هذا التضاد، وتؤثت عري اللونين اللذين ينفردان بها.

في الواقع، لم تكن «حنين» لوحة. كانت رؤوس أقلام ومشاريع أحلام تجاوزتها الأحداث بخمس عشرة سنة من الحنين والدهشة، وليس فقط بربع قرن من الزمن.

حملتها تحت إبطي، وكأني أميزها عن الآخرين. كنت فجأة على عجل. أريد أن أجلس أمامها بعد كل تلك السنوات، محملاً بفرشاة وألوان أخرى، لأنفخ الحياة والضجيج فيها، وأنقل إليها أخيراً حجارة «قطرة الحبال» حجراً.. حجراً. ولكن كان في ذهني المبعثر لحظتها هاجس آخر يطغى على كل شيء: كيف يمكن أن نلتقي بعد الآن... وأين؟

انتهت عطلتك الجامعية مع نهاية معرضي تقريباً. وها نحن محاصران بكلّ مستحيلات الزمان والمكان. ملاحقان بكلّ العيون التي قد تسرق سرنا. بكلّ أولئك الذين لا نعرفهم.. ويعرفوننا. أي جنون.. وأي قدر كان قدري معك! ولماذا وحدي تفضحني عاهتي؟ ولماذا كلّ هذا الحذر.. ولماذا أنت بالذات؟ كان مجرد احتمال لقائي بسي الشريف ذات يوم وأنا بصحبتك، يجعلني أعدل عن هذه الفكرة، وأشعر فجأة بحرج الموقف، وبذلك الارتباك الذي سيفضحني لا محالة.

اتفقنا على أن نطلبيني هاتفياً، وأن نتفق على برنامج جديد.

كان ذلك هو الحلّ الوحيد. فلم يكن ممكناً أن أزورك في حيّك الجامعي. فقد كانت ابنة عمك تتابع دراستها معك في الجامعة نفسها.

أكان يمكن لنا أن نجد ظروفًا أكثر تعقيداً من هذه؟.

أطول نهاية أسبوع على الإطلاق، كانت تلك التي قضيتها في انتظار هاتفك صباح الاثنين.

يوم الأحد دقّ الهاتف.

أسرعت إليه وأنا أراهن أنك أنت. فربما نجحت في سرقة لحظات تحدّثيني فيها. . . ولو قليلاً. كانت كاترين على الخط. أخفيت عنها خيبيتي. ورحت أستمع لها وهي تثرثر حول مشاغلها اليومية، ومشروع سفرها القادم إلى لندن. . . ثم سألتني عن أخبار المعرض وقالت وهي تنتقل من موضوع إلى آخر:

- لقد قرأت مقالاً جيداً عن معرضك في مجلة أسبوعية. . . من المؤكد أنك اطلعت عليه. . . إنه بقلم روجيه نقّاش، يبدو أنه يعرفك. . . أو يعرف لوحاتك جيداً.

لم أكن أشعر برغبة في الحديث. . . قلت لها باقتضاب:

- نعم، إنه صديق قديم. . .

تخلّصت منها بلباقة.

لم أكن أشعر بأية رغبة في لقائها ذلك اليوم. ربّما كانت حاجتي للرسم يومها، تفوق حاجاتي الجسدية الأخرى. . . وربّما كنت فقط ممتلئاً بك.

عدت إلى مرسمي مثقل الخطى.

كنت شرعت في إعداد تشكيلة من الألوان، لأبدأ في وضع لمسات على تلك اللوحة.

ولكنني ارتبكت. تحولت أمامها إلى ذلك الرسام المبتدئ الذي كنته منذ خمس وعشرين سنة.

ترى قرابتها الجديدة بك، هي التي أضفت عليها هذه الصبغة المربكة؟

أم تراني كنت مرتبكاً لأنني كنت أجلس أمام الماضي لا غير.. لأضفي على الذاكرة - وليس على لوحة - بعض «الرتوشات»؟ كنت أشعر أنني على وشك أن أرتكب حماقة. وأدري - رغم رغبتني المضادة للمنطق - أنه لا ينبغي أبداً العبث بالماضي، وأن أية محاولة لتجميله، ليست سوى محاولة لتشويهه.

كنت أدرك هذا.. ولكن هذه اللوحة أصبحت تضايقني فجأة هكذا.. كان كل شيء فيها مبسطاً حدّ السذاجة، فلماذا لا أواصل رسمها اليوم، ولماذا لا أعاملها بمنطق فني لا أكثر؟

ألم يقض (شاغال) خمس عشرة سنة في رسم إحدى لوحاته؟ كان يعود إليها دائماً بين لوحة وأخرى ليضيف شيئاً أو وجهاً جديداً عليها، بعدما أصرّ على أن يجمع فيها كل الوجوه والأشياء التي أحبها منذ طفولته؟

أليس من حقّي أيضاً أن أعود إلى هذه اللوحة، أن أضع على هذا الجسر بعض خطى العابرين، وأرشد على جانبيه بعض البيوت المعلقة فوق الصخور، وأسفله شيئاً من ذلك النهر الذي يشق المدينة، بخيلاً أحياناً، وقرقافاً زبدياً أحياناً أخرى.. ألم يعد ضرورياً أن أضع عليها بصمات ذاكرتي الأولى، التي كنت عاجزاً عن نقلها في السابق، يوم كنت رسّاماً مبتدئاً وهاوياً لا غير؟

لا أدري كيف تذكّرت لحظتها روجيه نقاش، صديق طفولتي.. وصديق غربتي.

ذكرت ولعه بقسطنطينة، وتعلقه بذكرها، هو الذي لم يعد إليها أبداً منذ غادرها سنة ١٩٥٩ مع أهله، ومع فوج من الجالية اليهودية التي كانت تريد أن تبني لها مستقبلاً آمناً في بلد آخر.

لم يحدث أن زرتة مرة في بيته، دون أن يصرّ على أن اسمعني شربطاً جديداً للمطربة اليهودية «سيمون تمار» وهي تغني المألوف والموشحات القسطنطينية بأداء وبصوت مدهش، مرتدية ذلك الثوب القسطنطيني الفاخر، الذي أهدوها إياه في أول عودة لها هناك.. والذي يزين غلاف شريطها.

منذ بضعة أشهر أخبرني روجيه أن سيمون ماتت مقتولة على يد زوجها في إحدى نوبات غيبتها، فقد كان يتهمها بحب رجل عربي. سألته إن كان ذلك حقاً.. أجابني.. «لا أدري..» ثم أضاف بمرارة ما.. «أدري أنها كانت تحب قسطنطينة».

وروجيه أيضاً كان يحبها.. وكان حلمه السري أن يعود إليها ولو مرة واحدة، أو يأتيه أحد على الأقل بثمرة واحدة من شجرة التين التي كانت تطل نافذة غرفته والتي كانت في حديقة بيته منذ أجيال.

وكنت أشعر بمزيج من السعادة والإحراج معاً وأنا أستمع إليه، يقصّ عليّ بلهجته القسطنطينية المحببة التي لم يطمس ربع قرن من البعد أي نبرة فيها، شوقه إلى تلك المدينة.. القاتلة!

وكان يزيد إحراجي كل ما قام به روجيه لمساعدتي منذ سنوات، عندما وصلت إلى باريس لأستقرّ فيها. فقد كان له من الصداقات والوساطات، ما يمكن أن يسهل عليّ - دون أن أطلب منه ذلك - كثيراً من المعاملات والمشكلات التي تواجه رجلاً في وضعي.

ذات مرة سألته «لماذا لم تعد ولو مرة واحدة لزيارة قسطنطينة؟ أنا

لا أفهم خوفك، إنَّ الناس مازالوا يعرفون أهلك في ذلك الحيِّ
ويذكرونهم بالخير. . . أذكر وقتها أنَّه قال لي «ما يخيفني ليس ألاَّ
يعرفني الناس هناك، بل ألاَّ أعرف أنا تلك المدينة. . . وتلك الأزقة. . .
وذلك البيت الذي لم يعد بيتي منذ عشرات السنين. . .».

ثمَّ أضاف: «دعني أتوهم أنَّ تلك الشجرة مازالت هناك. . . وأنها
تعطي تيناً كلَّ سنة، وأنَّ ذلك الشبَّاك مازال يطلُّ على ناسٍ كنت
أحبهم. . . وذلك الزقاق الضيق مازال يؤدِّي إلى أمَّاكن كنت
أعرفها. . . أتدري. . . إنَّ أصعب شيء على الإطلاق هو مواجهة
الذاكرة بواقع مناقض لها. . .»

كان في عينيه يومها لمعة دموع مكابرة، فأضاف بشيء من المزاح
«لو حدث وغيَّرت رأيي، سأعود إلى تلك المدينة معك، أخاف أن
أواجه ذاكرتي وحدي. . .».

اليوم، وبعد عدَّة سنوات، أذكر كلامه فجأة - هو الذي لم يطرح
معي ذلك الموضوع بعد ذلك أبداً -

تراه نجح حقاً في التحايل على ذاكرته؟

وماذا لو كان على حق؟ يجب أن نحفظ بذكرياتنا في قالها الأوَّل
وصورتها الأوَّل ولا نبحث لها عن مواجهة اصطدامية مع الواقع
يتحطَّم بعدها كلُّ شيء داخلنا كواجهة زجاجية. . . المهم في هذه
الحالات إنقاذ الذاكرة.

أقنعي ذلك المنطق، وشعرت أنَّ هاتف كاترين أنقذني بطريقة غير
مباشرة من حاقة كنت على وشك ارتكابها.

لن يكون لتلك اللوحة أيَّة قيمة تأريخية بعد اليوم، إذا أضفت
إليها شيئاً هنا، أو طمست فيها شيئاً هناك. . . ستصبح لوحة لقيطة

لذاكرة مزورة . . وهل بهم عندئذ أن تكون أجمل؟

نظرت إلى خشبة الألوان التي كانت بيدي . فكّرت أنه رغم ذلك لا بد أن أفعل شيئاً بهذه الألوان . وبهذه الفرشاة العصبية التي كانت تتربّ مثل لحظة الخلق الحاسمة .

وفجأة وجدت الحلّ في فكرة بسيطة ومنطقية لم تخطر ببالي .

رفعت تلك اللوحة عن خشبات الرسم ، ووضعت أمامها لوحة بيضاء جديدة ، ورحت أرسم دون تفكير، قنطرة أخرى، بسماء أخرى، بواذٍ آخر وبيوت وعابرين .

رحت هذه المرة، أتوقّف عند كلّ تفاصيل اللوحة، أدرس كلّ جزء فيها، وكأنه لوحة على حدة .

بل إنني فاجأت نفسي، أركض إلى تلك التفاصيل وأكاد أبدأ بها، وكأن أمر الجسر لم يعد يعني في النهاية، بقدر ما تعني الحجارة والصخور التي يقف عليها . وتلك النباتات التي تبعثرت أسفله، مستفيدة من رطوبة (أو عفونة) الأعماق . وتلك الممرات السرية التي حفرتها خطى الإنسان وسط المسالك الصخرية . منذ أيام (ماسينيسا) وحتى اليوم، في غفلة من الجسر العجوز الذي لا يمكن له في شموخه الشاهق، أن يرى ما يحدث على علوّ ٧٠٠ متر من أقدامه!

أليس التحايل على الجسور هو الهدف الأزلي الأوّل للإنسان الذي يولد بين المنحدرات . . . والقمم؟

أدهشتني هذه الفكرة التي ولدت في ذهني مصادفة؛ وأدهشتني أكثر، كون هذه التفاصيل التي تشغلني اليوم بالبحاح، لم تكن تلفت انتباهي منذ ربع قرن، يوم رسمت هذا الجسر نفسه لأول مرة .

ترى لأنني كنت في بدايتي الأولى، محكوماً بالخطوط العريضة

للأشياء كأي مبتدئ، وأن طموحي آنذاك، لم يكن يتجاوز رغبتني في إدهاش ذلك الدكتور - أو إدهاش نفسي - ورفع أثقال التحدي بيد واحدة؟

وإنني اليوم بعد ذلك العمر . . لم يعد يعني أن أثبت شيئاً لأحد .
أريد فقط أن أعيش أحلامي السريّة، وأن أنفق ما بقي لي من وقت في طرح أسئلة . . كان الجواب عليها في الماضي ترفاً . . ليس في تناول الشباب . ولا في تناول . . ذلك المناضل أو المجاهد المعطوب الذي كنته . .

ربما لأنّ الوقت آنذاك لم يكن للتفاصيل، بل كان وقتاً جماعياً نعيشه بالجملة، وننفقه بالجملة .

كان وقتاً للقضايا الكبرى . . والشعارات الكبرى . . والتضحيات الكبرى . ولم يكن لأحد الرغبة في مناقشة الهوامش أو الوقوف عند التفاصيل الصغيرة .

تراها حماقة الشباب . . أم حماقة الثورات !

أخذت مني تلك اللوحة، كلّ أمسية الأحد، وقسماً كبيراً من الليل . ولكنني كنت سعيداً وأنا أرسم، وكأنني كنت أسمع صوت الدكتور «كابوتسكي» يعود ليقول لي بعد ذلك العمر «ارسم أحب شيء إلى نفسك» .

وها أنا أطيعه وأرسم اللوحة نفسها، بالارتباك نفسه .

ولكن ما رسمته هذه المرّة، لم يكن تمريناً في الرسم . كان تمريناً في الحب .

كنت أشعر أنني أرسمك أنت لا غير . أنت بكلّ تناقضك . أرسم

نسخة أخرى عنك أكثر نضجاً.. أكثر تعاريج. نسخة أخرى من
لوحة أخرى كبرت معك.

كنت أرسم تلك اللوحة بشهية مذهشة للرسم. بل وربما بشهوة
ورغبة سرية ما..

فهل بدأت شهوتك تتسلل يومها إلى فرشاتي، دون أن أدري؟!

في اليوم التالي، فاجأني صوتك في الساعة التاسعة تماماً.
جاء شلال فرح، وشجرة ياسمين تساقطت أزهارها على وسادتي.
كنت أكتشف صوتك على الهاتف، وأنا في فراشي بعد ليلة مرهقة
من العمل. شعرت أنه يشرع نوافذ غرفتي، ويقبلي قبله صباحية.
- هل أيقظتك؟

- لا أنت لم توقظيني.. أنت منعتني البارحة من النوم لا أكثر!
قلت بلهجة جزائرية بين المزاح والجد:
- علاش.. إن شاء الله خير..

قلت:

- لأنني رسمت حتى ساعة متأخرة من الليل..
- وما ذنبي أنا؟

- لا ذنب لك سوى ذنب الملهم.. يا ملهمي!

صحت فجأة بالفرنسية كعادتك عندما تفقد السيطرة على
أعصابك:

- ah.. non!

ثم أضفت:

- أتمنى أنك لم ترسمي.. يا لها من كارثة معك!

- وأين هي الكارثة إن كنت قد رسمتك؟

واصلت بصوت عصبي :

- أأنت مجنون؟ تريد أن تحوّلني إلى لوحة تدور بها القاعات من مدينة إلى أخرى، يتفرّج عليها كل من يعرفني؟!!

كنت أشعر برغبة صباحية في مشاكستك، ربّما من فرط سعادتي، وربّما لأنّني مجنون حقاً، ولا أعرف كيف أكون سعيداً مثل الآخرين.

قلت لك :

- أما قلب مرّة... إنّ الناس الذين يلهموننا هم أناس توقّفنا أمامهم ذات يوم لسبب أو لآخر، وأنهم ليسوا سوى حادثة سير. فإن أكون رسمتك لا يعني شيئاً، سوى أنّني صادفتك يوماً في طريقي لا غير!

صحت :

- أأنت أحمق؟. تريد أن تقنع عمي وتقنع الآخرين أنّك رسمتني بعدما صادفتني مرّة على رصيف، واقفة مثلاً أمام ضوء أحمر... إنّنا لا نرسم سوى ما يثيرنا... أو ما نجبه... هذا معروف!

تراك كنت تستدرجيني إلى ذلك الاعتراف، وتدورين حوله، أم كنت من الحمافة لتصدّقي زعمي بأنّني لا أدري ذلك. لكنّني وجدت في تلك الفرصة الصباحية، وفي ذلك الخط الهاتفي الذي كان يفصلني ويقربني منك في آن واحد... مناسبة لمصارحتك.

قلت :

- لنفترض إذن أنّني أحبك.!

كنت أنتظر وقع تلك الكلمات عليك، وأتوقّع عدّة أجوبة لكلامي. ولكنك قلت بعد لحظة صمت :

- ولنفترض إذن.. أنني لم أسمع.!

أدهشتني..

لم أفهم تماماً إذا كنت تجددين ذلك «التصريح» أقلّ أو أكثر مما ترقّعت، أم أنك كعادتك تتلاعبين بالكلمات بمتعة مدهشة، وأنت تدرين أنك تلعبين بأعصابي لا غير. وتقذفيني من سؤال.. إلى تساؤل آخر.

- أين نلتقي؟

كان هذا هو السؤال الأهمّ الذي قرّرنا أن نجيب عليه بجديّة. تناقشنا طويلاً في عنوان مكان آمن يمكن أن نشرب فيه قهوة، أو نتناول فيه وجبة الغداء معاً.

ولكن باريس ضاقت بنا.

كنت لا تعرفين غير الأماكن التي يرتادها الطلبة. وكنت لا أرتاد غير المقاهي القريبة من حيي. قرّرنا أن نلتقي في أحد المقاهي المجاورة لبيتي والتي تقدّم وجبات غداء. وكنت أقترف إحدى حماقاتي الكبرى.

لم أكن أعرف وقتها أنني اختار عنواناً لذاكرتي مجاوراً تماماً لعنوان بيتي، وأني بذلك سأمنح الذكريات حقّ مطاردتي.

لم أعد أذكر الآن، كيف أصبح ذلك المقهى العنوان الدائم لجنوننا. وكيف أصبح تدريجياً يشبهنا، بعدما تعود أن يختار لنا زاوية جديدة كلّ مرّة، تتلاءم مع مزاجنا المتقلّب، خلال شهرين من السعادة المسروقة..

كنّا نلتقي هناك في أوقات مختلفة من النهار، حسب ساعات دراستك وبرنامج أعمالي.

تعوّدت أن تطلبيني هاتفياً كلّ صباح في الساعة التاسعة، وأنت في طريقك إلى الجامعة. وتنفق كلّ صباح على برنامج ذلك اليوم، الذي لم يعد لنا فيه في النهاية من برنامج سوانا.

كنت أتدحرج يوماً بعد آخر نحو هاوية حبّك، أصطدم بالحجارة والصخور، وكلّ ما في طريقي من مستحيلات. ولكنني كنت أحبك. ولا أنتبه إلى آثار الجراح على قدمي، ولا إلى آثار الخدوش على ضميري الذي كان قبلك إناء بلّور لا يقبل الخدش. وكنت أواصل نزولي معك بسرعة مذهلة نحو أبعد نقطة في العشق الجنوني. وكنت أشعر أنني غير مذبذب في حبّك. على الأقلّ حتّى تلك الفترة التي كنت مكتفياً فيها بحبك، بعدما أقنعت نفسي أنني لا أسيء إلى أحد بهذا الحبّ.

وقتها لم أكن أجروء على أن أحلم بأكثر من هذا. كانت تكفيني تلك العاطفة الجارفة التي تعبرني لأوّل مرّة، بسعادتها المتطرّفة أحياناً، وحزنها المتطرّف أحياناً أخرى.. . كان يكفيني الحبّ.

متى بدأ جنوني بك؟

يحدث أن أبحث عن ذلك التاريخ وأتساءل.. . ترى أفي ذلك اليوم الذي رأيتك فيه لأوّل مرّة؟ أم في ذلك اليوم الذي انفردت بك فيه لأوّل مرّة؟ أم في ذلك اليوم الذي قرأتك فيه لأوّل مرّة؟ أم ترى يوم وقفت فيه بعد عمر من الغربة، لأرسم فيه قسنطينة.. . كأوّل مرّة!

ترى يوم ضحكيت أم يوم بكيت.

أعندما تحدّثت.. . أم عندما صمت.

أعندما أصبحت ابنتي.. . أم لحظة توهمت أنك أُمّي؟!

أني امرأة فيك هي التي أوقعني؟
كنت معك في دهشة دائمة. فقد كنت شبيهة بتلك الدمية
الروسية الخشبية التي تخفي داخلها دمية أخرى. وهذه تخفي دمية
أصغر، وهكذا تكون سبع دمي داخل واحدة!

كنت كل مرة أفاجا بامرأة أخرى داخلك. وإذا بك تأخذين في
بضعة أيام ملامح كل النساء. وإذا بي محاط بأكثر من امرأة، يتناوبن
علي في حضورك وفي غيابك، فأقع في حبهن جميعاً.
أكان يمكن لي إذن أن أحبك بطريقة واحدة؟
لم تكوني امرأة. . كنت مدينة.

مدينة بنساء متناقضات. مختلفات في أعمارهن وفي ملامحهن؛ في
ثيابهن وفي عطرهن؛ في خجلهن وفي جرأتهن؛ نساء من قبل جيل
أمي إلى أيامك أنت.
نساء كلهن أنت.

عرفت ذلك بعد فوات الأوان. بعدما ابتعلتي كما تبتلع المدن
المغلقة أولادها.

كنت أشهد تحولك التدريجي إلى مدينة تسكني منذ الأزل. .
كنت أشهد تغيرك المفاجئ، وأنت تأخذين يوماً بعد يوم ملامح
قسطنطينة، تلبسين تضاريسها، تسكنين كهوفها وذاكرتها ومغاراتها
السرية، تزورين أولياءها، تتعطرين ببخورها، ترتدين قندورة عتابي
من القטיפ، في لون ثياب «أما»، تمشين وتعودين على جسورها،
فأكاد أسمع وقع خلخالك الذهبي يرن في كهوف الذاكرة.
أكاد ألمح آثار الحناء على كعب قدميك المهيأتين للأعياد.

وكنّت أنا أستعيد لهجتي القديمة معك . كنت أُلْفِظُ التّاء «تساء» على الطريقة القسطنطينيّة .

كنّت أناديك مدلّلاً «يالاً» كما لم يعد الرجال ينادون النساء في قسطنطينة .

كنّت أناديك بحنين «يا أميمة» بذلك النداء الذي ورثته قسطنطينة دون غيرها، عن أهل قرش منذ عصور .

وكنّت، كنت عندما يجرّدني عشقك من سلاحني الأخير، أعترف لك مهزوماً على طريقة عشاقنا «نشتيك» . . . يعن بُورَينِكَ! .

تلك الكلمة التي كان أصلها «أشتهيك» والتي اختصروها منذ زمان لتخفي معناها الأصلي، وتحوّل إلى كلمة ودّ لا غير .

فقسطنطينة مدينة منافقة، لا تعترف بالشهوة ولا تجيز الشوق؛ إنّما تأخذ خلسة كلّ شيء، حرصاً على صيتها، كما تفعل المدن العريقة .

ولذا فهي تبارك مع أوليائها الصالحين . . الزائنين أيضاً . . والسراق! ولم أكن سارقاً، ولا كنت ولياً، ولا شيخاً يدّعي البركات، لتباركني قسطنطينة .

كنّت فقط، رجلاً عاشقاً، أحبّك بجنون رسّام؛ بتطرّف وحماسة رسام، خلّقت هكذا كما يخلّق الجاهليّون آلهتهم بيدهم، ثمّ يجلسون لعبادتها، وتقديم القرابين لها .

وربّما كان هذا، أكثر ما كنت تحبّه في حبي!

ذات يوم قلت لي :

كنّت أحلم أن يحبّني رسّام . قرأت عن الرسّامين قصصاً مذهشة . إنّهم الأكثر جنوناً بين كلّ المبدعين . إنّ جنونهم متطرّف . . مفاجئ وخفيف . لا يشبه في شيء ما يُقال عن الشعراء مثلاً أو عن

الموسيقين . لقد قرأت حياة فان غوغ . . دولاكروا . . غوغان . .
دالي . . سيزان . . بيكاسو وآخرين كثيرين لم يبلغوا هذه الشهرة . أنا
لا أتعب من قراءة سيرة الرسّامين .

في الواقع شهرتهم لا تعني بقدر ما يعني تقلّبهم وتطوّرفهم .
تمنّي تلك اللحظة الفاصلة بين الإبداع والجنون . عندما يعلنون
فجأة خروجهم عن المنطق واحتقارهم له . وحدها تلك اللحظة
تستحق التأمل والانبهار أحياناً ، فهم يفعلون ذلك لمجرد تحدينا
وتعجيزنا بلوحة ليست سوى حياتهم .

هنالك مبدعون ، يكتفون بوضع عبقريتهم في إنتاجهم . وهنالك
آخرون ، يصرون على توقيع حياتهم أيضاً ، بنفس العبقرية ، فيتركون
لنا سيرة فريدة ، غير قابلة للتكرار أو التزوير . .

أعتقد أنّ مثل هذا الجنون ينفرد به الرسّامون . ولا أظنّ أنّ شاعراً
يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه فان غوغ مثلاً في لحظة يأس واحتقار
للعالم ، عندما قطع أذنه ليهدبها إلى غانية . .

أو ما فعله ذلك الرسّام المجهول الذي لم أعد أذكر اسمه ، والذي
شنق نفسه ، بعدما علّق في سقف غرفته ، لوحة المرأة التي أحبّها والتي
قضى أياماً في رسمها . وهكذا توخّد معها على طريقته . . ووقع لوحته
وحياته معاً مرة واحدة .

قلتُ :

- إن ما يعجبك في النهاية ، هو قدرة الرسّامين الخارقة على تعذيب
أنفسهم ، أو على التمثيل بها . . أليس كذلك ؟ .

أجبتُ :

- لا . . ولكن هنالك لعنة ما تلاحق الرسّامين دون غيرهم ؛

وهناك جدلية لا تنطبق إلا عليهم . فكلمًا زاد عذابهم وجوعهم
وجنونهم ، زاد ثمن لوحاتهم . حتى إن موتهم يوصلها إلى أسعار
خيالية ، وكأن عليهم أن ينسحبوا لتحل هي مكانهم .
لم أناقشك في رأيك .

رحت أستمع إليك وأنت ترددين كلاماً أعرفه ، ولكن فاجأني
منك .

لم أتساءل يومها ، إن كنت تحبيني لاحتمال جنوني ، أو لشيء آخر .
ولا أن تكون نيتك اللاشعورية تحويلي إلى لوحة ثمينة أَدفع ثمنها من
حطامي .

هل سيزيد عذابي حقاً ، من قيمة آية لوحة سأرسمها كيفما كان ،
تحت تأثير جوعي أو نوبة جنوني ؟

اكتفيت بالتساؤل . . أين يبدأ الفن ترى ؟ . . وأين تبدأ النزعة
السادية عند الآخرين ؟

كنت أعتقد أن هذه الجدلية لا علاقة لها بالإبداع ولا بالفن ،
وإنما بطبع الإنسان لا أكثر .

نحن ساديون بفطرتنا . يحلو لنا أن نسمع عذابات الآخرين ،
ونعتقد ، عن أنانية ، أن الفنان مسيح آخر جاء ليصلب مكاننا .

عذابه يحزننا ويسعدنا في آن واحد . قصته قد تبكىنا ، ولكنها لن
تمنعنا من النوم ، ولن تدفعنا إلى إطعام فنان آخر ، يموت جوعاً أو قهراً
أمامنا . بل إننا نجد من الطبيعي أن تتحول جراح الآخرين إلى
قصيدة نغنيها ، أو لوحة نحفظ بها ، وقد نتاجر بها ، للسبب نفسه .
فهل الجنون قصر حقاً على الرُسامين دون غيرهم ؟

أليس هو قاسماً مشتركاً بين كلِّ المبدعين، وكلِّ المسكونين بهذه
الرغبة المرضية في الخلق؟

فالذي يخلق لا يمكن بحكم منطق الإبداع نفسه، أن يكون إنساناً
عاديّاً، بأطوار عادية وبحزن وفرح عاديّ. بمقاييس عادية للكسب
والخسارة. . . للسعادة والتعاسة.

إنّه إنسان متقلب، مفاجئ، لن يفهمه أحد ولن يجد أحد مبرراً
لسلوكه.

كان ذلك أوّل يوم حدثت فيه عن زياد.

قلت:

- لقد عرفت شاعراً فلسطينياً كان يدرّس في الجزائر. كان سعيداً
بحزنه وبوحده؛ مكتفياً بدخله البسيط كأستاذ للأدب العربي،
وبغرفته الجامعية الصغيرة، وبديوانين شعريّين. حتّى ذلك اليوم الذي
تحسّنت أحواله المادية، وحصل على شقّة وكان على وشك الزواج من
إحدى طالباته التي أحبّها بجنون، والتي قبل أهلها أخيراً تزويجها
منه.

عندما قرّر فجأة أن يتخلّى عن كلّ شيء، ويعود إلى بيروت
ليلتحق بالعمل الفدائيّ. . .

عشاً حاولت إقناعه بالبقاء. لم أكن أفهم حماقته تلك، وإصراره
على الرحيل عندما أوّشك أخيراً أن يحقّق أحلامه. وكان يجيب ساخراً
«أيّ أحلام. . . أنا لا أريد أن أقتل داخليّ ذلك الفلسطينيّ المشرّد. .
فعندها لن يكون لأيّ شيء أمتلكه من قيمة. . .».

ويضيف وهو ينفث دخانه على مهل وكأنّه يخنفي خلفه كي يسبح
لي بسرّ: «ثمّ. . . لا أريد أن أنتمي لامرأة. . . أو إذا شئت لا أريد أن

أقيم فيها . . أخاف السعادة عندما تصبح إقامة جبرية . هنالك
سجون لم تخلق للشعراء . . »

وكانت الفتاة التي أحبتّه تزورني راجية أن أقنعه بالبقاء، وأنه
مجنون ذاهب إلى الموت وإلى حتفه المؤكد. ولكن عبثاً، لم تكن هناك
حجة واحدة لإغرائه بالبقاء . . بل إنه في نظره المفاجئ، أصبح يجد
في حججي ما يزيده إغراء بالرحيل .

أذكر أنّه قال لي يوماً بشيء من السخرية، وكأنّه يعطيني درساً في
الحياة :

« هناك عظمة ما، في أن نغادر المكان ونحن في قمة نجاحنا . إنه
الفرق بين عامة الناس . . والرجال الاستثنائيين ! »

سألتك إن كنت تعتقدين أنّ شاعراً كهذا، هو أقلّ جنوناً من
رسام قطع أذنه؟

لقد استبدل براحته شقاء لم يكن مرغماً عليه . واستبدل بحياته
موتاً، دون أن يكون مجبراً عليه .

لقد أراد أن يذهب إلى الموت مكابراً وليس مهزوماً ومكرهاً . إنها
طريقته في أن يهزم مسبقاً شيئاً لا يُهزم، وهو الموت .

سألّني بلهفة :

- هل مات؟

قلت لك :

- لا . . . إنه لم يمت . . أو على الأقلّ مازال على قيد الحياة حتّى
تاريخ بطاقته الأخيرة التي بعث إليّ بها في رأس السنة، أي منذ ستة
أشهر تقريباً .

ساد بيننا شيء من الصمت، وكأنّ أفكارنا معاً ذهبت إليه . .

قلت لك :

- أتدرين أنه كان سبباً غير مباشر في مغادرتي الجزائر؟ معه تعلّمت أنه لا يمكن أن نتصالح مع كلّ الأشخاص الذين يسكنوننا، وأنه لا بدّ أن نضحّي بأحدهم ليعيش الآخر. وأمام هذا الاختبار فقط نكتشف طبيئتنا الأولى، لأننا نحاوّر تلقائياً إلى ما نعتقد أنه الأهمّ . . وأنه نحن لا غير.

قلت وأنت تقاطعيني :

- صحيح . . نسيت أن أسألك لماذا جئت إلى فرنسا؟

أجبتك وتنهيدة تسبقني، وكأني فتحت أبواب صدر أوصدته الحيات :

- قد لا تقنعك أسبابي . . ولكنني مثل ذلك الصديق، أكره الجلوس على القمم التي يسهل السقوط منها. وأكره خاصّة أن يحولني مجرد كرسيّ أجلس عليه إلى شخص آخر لا يشبهني.

لقد كنت بعد الاستقلال أهرب من المناصب السياسيّة التي عرضت عليّ، والتي كان الجميع يلهثون للوصول إليها.

كنت أحلم بمنصب في الظلّ يمكن أن أقوم فيه بشيء من التغيّرات دون كثير من الضجيج ودون كثير من المتاعب. ولذا عندما عيّنت كمسؤول عن النشر والمطبوعات في الجزائر، شعرت أنني خلقت لذلك المنصب. فقد قضيت كلّ سنوات إقامتي في تونس في تعلّم العربيّة والتعمّق فيها، وتجاوز عقديّ القديمة كجزائري لا يتقن بالدرجة الأولى سوى الفرنسيّة. وأصبحت، في بضع سنوات، مزدوج الثقافة، لا أنام قبل أن أبتلع وجبتني من القراءة بإحدى اللغتين.

كنت أعيش بالكتب ومع الكتب. حتّى إنني كدت في فترة ما أنتقل

من الرسم إلى الكتابة، خاصة أن الرسم، كان في نظر البعض آنذاك، شبيهاً بالشذوذ الثقافي، وعلامة من علامات الترف الفني، التي لا علاقة لها بظروف التحرير.

عندما عدت إلى الجزائر بعدها، كنت ممتلئاً بالكلمات. ولأنّ الكلمات ليست محايدة، فقد كنت ممتكاً كذلك بالمثل والقيم، ورغبة في تغيير العقليات والقيام بثورة داخل العقل الجزائري الذي لم يغير فيه الهزات التاريخية شيئاً. ولم يكن الوقت مناسباً لحلمي الكبير الذي لا أريد أن أسميه «الثورة الثقافية». بعدها لم تعد هاتان الكلمتان مجتمعتين أو متفرقتين تعنيان شيئاً عندنا.

كانت هناك أخطاء كبرى تُرتكب عن حسن نية. فلقد بدأت التغييرات بالمصانع، والقرى الفلاحية والمباني والمنشآت الضخمة، وترك الإنسان إلى الأخير.

فكيف يمكن لإنسان بائس فارغ، وغارق في مشكلات يومية نافهة، ذي عقلية متخلّفة عن العالم بعشرات السنين، أن يبني وطناً، أو يقوم بآية ثورة صناعية أو زراعية، أو أية ثورة أخرى؟

لقد بدأت كلّ الثورات الصناعية في العالم من الإنسان نفسه، ولذا أصبح اليابان (ياباناً) وأصبحت أوروبا ما هي عليه اليوم.

وحدهم العرب راحوا يبنون المباني ويسمّون الجدران ثورة. ويأخذون الأرض من هذا ويعطونها لذاك، ويسمّون هذا ثورة.

الثورة عندما لا نكون في حاجة إلى أن نستورد حتى أكلنا من الخارج. . الثورة عندما يصل المواطن إلى مستوى الآلة التي يسيّرها.

كان صوتي يأخذ فجأة نبرة جديدة، فيها كثير من المرارة والحيرة

التي تراكمت منذ سنين . وكنت تنظرين إلى بشيء من الدهشة وربما من الإعجاب الصامت ، وأنا أحدثك لأول مرة عن شجون السياسة .

سألتني :

- أهذا جئت إلى فرنسا إذن؟

قلت :

- لا . . ولكنني جئت ربما بسبب أوضاع هي نتيجة أخطاء كهذه ، لأنني ذات يوم قرّرت أن أخرج من الرداءة ، من تلك الكتب الساذجة التي كنت مضطراً إلى قراءتها ونشرها باسم الأدب والثقافة ، ليلتھمها شعب جائع إلى العلم .

كنت أشعر أنني أبيع معلّبات فاسدة مرّ وقت استهلاكها . كنت أشعر أنني مسؤول بطريقة أو بأخرى عن تدهور صحته الفكرية ، وأنا ألقنه الأكاذيب بعدما تحوّلت من مثقف إلى شرطيّ حقير ، يتجسّس على الحروف والنقاط ، ليحذف كلمة هنا وأخرى هناك . . فقد كنت أحمّل وحدي مسؤولية ما يكتبه الآخرون .

كنت أشعر بالخجل وأنا أدعو أحدهم إلى مكتبي لإقناعه بحذف فكرة أو رأي كنت أشاركه فيه .

ذات يوم ، زارني زياد . . ذلك الشاعر الفلسطيني الذي حدّثتك عنه ، والذي لم أكن التقيت به من قبل .

وكنت اتصلت به لأطلب منه حذف أو تغيير بعض الكلمات التي جاءت في ديوانه ، والتي كانت تبدو لي قاسية تجاه بعض الأنظمة . . وبعض الحكّام العرب بالذات ، والذين كان يشير إليهم بتلميح واضح ، ناعثاً إياهم بكلّ الألقاب .

لم أنسَ أبداً نظرتَه ذلك اليوم .
توقَّفت عيناه عند ذراعي المتبورة لحظة، ثم رفع عينيه نحوي في
نظرة مهينة وقال :

« لا تبتَر قصائدي سيدي . . ردّي ديواني، سأنشره في بيروت » .
شعرت أنّ الدم الجزائري يستيقظ في عروقي، وأنّني على وشك
أن أنهض من مكاني لأصفعه . ثم هدأت من روحي، وحاولت أن
أتجاهل نظرتَه وكلماته الاستفزازيّة .
ما الذي شفع له عندي في تلك اللحظة؟

ترى هويّته الفلسطينيّة، أو تلك الشجاعة التي لم يواجهني بها
كاتب قبله، أم ترى عبقرية الشعرية؟ فقد كان ديوانه أروع ما قرأت
من الشعر في ذلك الزمن الرديء . وكنت أوّمن في أعماقي أنّ الشعراء
كالأنبياء هم دائماً على حقّ .

تلقيت كلماته كصفعة أعادتني إلى الواقع، وأيقظتني بخجل . لقد
كان ذلك الشاعر على حقّ، كيف لم أكتشف أنّني لم أكن أفعل شيئاً
منذ سنوات سوى تحويل ما يوضع أمامي من إنتاج إلى نسخة مبتورة
مشوّهة مثلي؟

قلت له متحدّياً، وأنا ألقى نظرة غائبة على غلاف تلك
المخطوطة : « سأنشره لك حرقاً » .

كان في موقفٍ شيء من « الرجولة »، تلك الرجولة أو الشجاعة
التي لا يمكن لموظّف مهما كان منصبه أن يتحلّى بها، دون أن يفاخر
بوظيفته، لأنّ الموظّف في النهاية هو رجل استبدل برجلته كرسياً!

سبّب لي ديوانه عند صدوره بعض المتاعب . شعرت أنّ هناك شيئاً
من الزيف الذي لم أعد أحمّله .

ما الذي يعني من فضح أنظمة دموية قذرة، مازلنا باسم الصمود
ووحدة الصف، نصمت على جرائمها؟ ولماذا من حقنا أن نتنقد
أنظمة دون أخرى حسب النشرات الجوية، والرياح التي يركبها
قبطان بواخرنا؟

بدأ شيء من اليأس والمرارة يملأني تدريجياً. هل أغير وظيفتي
لأستبدل بمشكلاتي مشاكل أخرى، وأصبح هذه المرة طرفاً في لعبة
أخرى؟

ماذا أفعل بكل ما كدست وجمعت من أحلام طوال سنوات غربتي
ونضالي، وماذا أفعل بسنواتي الأربعين، وبذراعي المتبورة، وبذراعي
الأخرى؟

ماذا أفعل بهذا الرجل المكابر العنيد الذي يسكنني، ويرفض أن
يساوم على حريته، وبذلك الرجل الآخر الذي لا بد أن يعيش
ويتعلم الجلوس على المبادئ.. ويتأقلم مع كل كرسي.

كان لا بد أن أقتل أحدهما ليحيا الآخر.. وقد اخترت.

كان لقائي بزياد منعطفاً في حياتي.

اكتشفت بعدها أن قصص الصداقة القوية، كقصص الحب
العنيفة، كثيراً ما تبدأ بالمواجهة والاستفزاز واختبار القوى.

فلا يمكن لرجلين يتمتع كلاهما بشخصية قوية وبذكاء وحساسية
مفرطة، رجلين هملا السلاح في فترات من حياتهما.. وتعودا على لغة
العنف والمواجهة، أن يلتقيا دون تصادم.

وكان لا بد لنا من ذلك الاصطدام الأول.. وذلك التحدي
المتبادل لنفهم أننا من طينة واحدة.

بعدها أصبح زياد تدريجياً صديقي الوحيد الذي أرتاح إليه حقاً.

كنا نلتقي عدّة مرّات في الأسبوع، نسهو ونسكّر معاً، نتحدّث طويلاً عن السياسة، وكثيراً عن الفنّ، نشتم الجميع ونفترق سعيدين بجنوننا.

كناً في سنة ١٩٧٣. كان عمره ثلاثين سنة، وديوانين، ما يقارب السّتين قصيدة، وما يعادلها من الأحلام المبعثرة. وكان عمري بعض اللوحات، قليلاً من الفرح وكثيراً من الحيات، وكرسيتين أو ثلاثاً، تنقّلت بينها منذ الاستقلال، بشيء من الوجاهة، بسائق وسيّارة. . وبمذاق غامض للمرارة.

ذات يوم، رحل زياد بعد حرب أكتوبر بشهرين أو ثلاثة. عاد إلى بيروت لينضمّ إلى الجبهة الشعبيّة التي كان منخرطاً فيها قبل قدومه إلى الجزائر.

ترك لي كلّ كتبه المفضّلة والتي كان ينقلها من بلد إلى آخر. ترك لي فلسفته في الحياة، وشيئاً من الذكريات، وتلك الصديقة التي كانت تزورني أحياناً لتسأل عن أخباره، تلك التي كان يرفض أن يكتب لها، وكانت ترفض أن تنساه.

قلت وأنت تخرجين من صمتك الطويل:

- ولماذا لم يكتب لها؟

قلت:

- ربّما لأنّه كان يكره التحرشّ بالماضي. . وربّما كان يريد أن تنساه وتزوّج بسرعة، كان يريد لها قدراً آخر غير قدره.

سألني:

- وهل تزوّجت؟

قلت:

- لا أدري.. لقد فقدت أخبارها منذ عدة سنوات، ومن الأرجح أن تكون تزوجت. لقد كانت على قدر كبير من الجمال. ولكن لا أعتقد أن تكون قد نسيته، من الصعب على امرأة عرفت رجلاً مثل زياد أن تنساه..

شعرت في تلك اللحظة، أنك ذهبت بعيداً في أفكارك.
تراك كنت قد بدأت تحلمين به؟

تراني قد بدأت يومها باقتراف حماقاتي، الواحدة تلو الأخرى، وأنا أرد بعد ذلك على أسئلتك الكثيرة حوله، بأجوبة تشير فيك فضول الأنثى والكاتبة في آن واحد؟

حدثتك عن قصائده كثيراً، وعن ديوانه الأخير، الذي كتب قصائده كما يطلق بعضهم الرصاص في الأعراس والمآتم ليشيعوا حياً أو قريباً.

كان هوشيع صديقاً قديماً اسمه الشعر، ويقسم أنه لن يكتب بعد اليوم سوى بسلاحه.

في الواقع، لم يكن ذلك الرجل يكتب. كان فقط يفرغ رثاشه المحشو غضباً وثورة في وجه الكلمات.

كان يطلق الرصاص على كل شيء حوله.. بعدما لم يعد يثق في شيء!

آخ.. كم كان زياد مدهشاً!

لا بد أن أعترف اليوم أيضاً أنه كان مدهشاً حقاً، وأني كنت أحمق. كان لا بد أن أحدثك عنه وأنا أتوهم أن الجبال لا تلتقي..

لماذا كنت أحدثك عنه بتلك الحماسة، وبتلك الشاعرية؟

أكنت أريد أن أتقرب إليك به، وأقنعك من خلاله أن لي قرابة
سابقة بالكتاب والشعراء، فأكبر بذلك في عينيك؟
أم كنت أصفه لك في صورته الأجل، لأنني كنت أعتقد حتى ذلك
اليوم أنني أشبهه، وأنني كنت أصف لك نفسي لا غير. .
ربما كان كل هذا حقاً. . ولكن. .
كنت أريد أيضاً، أن تكتشفي العروبة في رجال استثنائيين، كما لم
تنجب هذه الأمة.
رجال ولدوا في مدن عربية مختلفة، ينتمون إلى أجيال مختلفة،
وأنماهاات سياسية مختلفة، ولكنهم جميعاً لهم قرابة ما بأبيك. . بوفائه
وشهامته، بكرميائه وعرويته. .
جميعهم ماتوا أو سيموتون من أجل هذه الأمة.
كنت لا أريد أن تنغلقي في قوقعة الوطن الصغير، وأن تتحوّلي إلى
منقبة للآثار والذكريات، في مساحة مدينة واحدة.
فكل مدينة عربية اسمها قسطنطينة. وكلّ عربي ترك خلفه كل شيء
وذهب ليموت من أجل قضية، كان يمكن أن يكون اسمه الطاهر. .
وكان يمكن أن تكون لك قرابة به.
كنت أريد أن تملاي رواياتك بأبطال آخرين أكثر واقعية، أبطال
تخرجين معهم من مراهقتك السياسية، ومراهقتك العاطفية.
لم أقل لك ذلك اليوم - بحماسة - «لو عرفت رجالاً مثل زياد. . لما
أحببت بعد اليوم «زوربا» ولما كنت في حاجة إلى خلق أبطال وهميين.
هنالك في هذه الأمة أبطال جاهزون يفوقون خيال الكتاب. .»
لم أكن أتوقع يومها أن يحصل كل الذي حصل، وأن أكون أنا
الذي سيتحوّل ذات يوم إلى منقّب يبحث بين سطورك عن آثار

زياد، ويتساءل من منا أحببت أكثر، ولمن بنيت ضريحك الأخير،
وروايتك الأخيرة..

ألي.. أم له؟

في ذلك اليوم، وضعت فجأة قبلة على خدي. وقلت بلهجة
جزائرية ونحن على وشك أن نهض للذهاب:

«خالد.. انحبك..»

توقّف كل شيء لحظتها حولي، وتوقّف عمري على شفئك. وكان
يمكن وقتها أن أحضنك، أو أقبلك.. أو أردّ عليك بألف.. ألف
أحبك أخرى.

ولكنني جلست من دهشتي، وطلبت من النادل قهوة أخرى،
وقلت لك أول جملة خطرت آنذاك في ذهني:

«لماذا اليوم بالذات؟»

أجبتني بصوت خافت:

- لأنني اليوم أحترمك أكثر. إنها أول مرّة منذ ثلاثة أشهر تحدّثني
فيها عن نفسك. اكتشفت اليوم أشياء مدهشة. لم أكن
أتصوّر أنك حضرت إلى باريس لهذه الأسباب. عادة يأتي
الفنانون هنا بحثاً عن الشهرة أو الكسب لا أكثر. لم أتوقّع أن تكون
تخلّيت عن كلّ شيء هناك، لكي تبدأ من الصفر هنا..

قاطعتك مصحّحاً لكلامك:

- لم أبدأ من الصفر.. نحن لا نبدأ من الصفر أبداً عندما نسلك
طريقاً جديداً. إنّنا نبدأ من أنفسنا فقط. أنا بدأت من قناعاتي.

شعرت يومها أنّنا ندخل مرحلة أخرى من علاقتنا، وأنك عجيبة
تأخذ فجأة شكل قناعاتي، وشكل طموحاتي وأحلامي القادمة.

تذكرت جملة قرائها يوماً في كتاب عن الرسم لأحد النقاد تقول :
«إنَّ الرسَّام لا يقدِّم لنا من خلال لوحته صورة شخصيّة عن نفسه . إنّه يقدِّم لنا فقط مشروعيّاً عن نفسه ويكشف لنا الخطوط العريضة لملاحمه القادمة» .

وكتبَ أنتِ مشروعي القادم .
كنت ملاحمي القادمة ، ومدينتي القادمة . كنت أريدك الأجهل ،
أريدك الأروع .

كنت أريد لك وجهاً آخر ، ليس وجهي تماماً ، وقلباً آخر ، ليس قلبي ، وبصمات أخرى ، لا علاقة لها بما تركه الزمن على جسدي وروحي من بصمات زرقاء .

يومها عرضت عليك بعد شيء من التردد ، أن تزوري ذات يوم
برسمي ، لأريك ما رسمته في الأيام الأخيرة .
وكنت سعيداً أن تقبلي عرضي دون تردد أو خوف . فقد كنت
أحرص على ألاّ تسيئي الظنّ بي . وكنت قرّرت أن ألغي ذلك
العرض نهائياً إذا ما ضايقك .

ولكنّك فاجأتني وأنت تصيحين بفرح طفلة عُرض عليها زيارة
مدينة للألعاب :

- أو . . . رائع يسعدني حقاً أن أزوره !

في اليوم التالي ، طلبتني هاتفياً لتخبريني أن عندك ساعتين وقت
الظهر ، يمكنك أن تزوريني خلالها .

وضعت السّاعة . . ورحت أحلم ، أسبق الساعات ، وأسبق
الزمن .

أنت في بيتي . . أحقاً سيحدث هذا ؟

أحقاً ستدقّين جرس هذا الباب، ستجلسين على هذه الأريكة،
ستمشين هنا أمامي .

أنتِ . . أخيراً أنتِ؟

أخيراً سأجلس إلى جوارك، وليس مقابلاً لك . أخيراً لن يلاحقنا
نادل بطلباته وخدماته . لن تلاحقنا عيون رواد المقهى، ولا عيون
الغرباء من المارة .

أخيراً يمكننا أن نتحدّث، أن نحزن ونفرح، دون أن يكون من
شاهد على تقلّباتنا النفسيّة .

رحت من فرحي أشرع الباب لك مسبقاً، وأنا أجهل أنّي أشرع
قلبي للعواطف والزواجع .

أيّ جنون كان . . أن آتي بك إلى هنا، أن أفتح لك عالمي السريّ
الآخر، أن أحولك إلى جزء من هذا البيت .

هذا البيت الذي أصبح جنّتي في انتظارك، والذي قد يصبح
جحيمي بعدك .

أكنت عندئذٍ أعني كلّ هذا؟ أم كنت سعيداً وأحقّ كأيّ عاشقٍ لا
يرى أبعد من مواعده القادم؟

تساءلت بعدها . . إن كنت حقّاً لا أريد غير إطلاعك على لوحتي
الأخيرة . . وعلى حديقتي السريّة لنجنون .

تذكّرت كاترين، وتلك اللوحة التي رسمتها لها اعتذاراً لأنّني ذات
يوم، كنت عاجزاً عن أن أرسم شيئاً آخر غير وجهها، بينما كان
الآخرون يتسابقون في رسم جسدها العاري، المعروف للوحي في
قاعة للفنون الجميلة .

تذكّرت يوم عرضت عليها أن تزورني لأريها تلك اللوحة . .

لم أتوقع أن تكون تلك اللوحة البريئة، سبباً بعد ذلك في علاقة غير بريئة دامت سنتين.

أليس في دعوتي لك لزيارة مرسمي، شيء من قلة التعقل، ورغبة سرّية لاستدراج الظروف لأشياء أخرى؟

تراني كنت أفعل ذلك، وأنا أستعيد جملة كاترين، وهي تستسلم لي في ذلك المرسم، وسط قوضى اللوحات المرسومة، واللوحات البيضاء المتكئة على الجدران، وتقول لي بإشارة متعمدة:

- هذا مكان يغري بالحَبّ..

فأجيبها بشيء من الواقعية:

- لم أكن أعرف هذا قبل اليوم..

فهل كان مرسمي يغري بالحَبّ؟ أم أنّ في كلّ مكان للخلق جاذبية ما تغري بالجنون؟

ولكن، ورغم هذا كنت أدري أنّك لم تكوني كاترين.. ولن تكونيها. فبيتنا من الحواجز ما لن يحطّمه أيّ جنون..

اليوم، بعد ستّ سنوات على تلك الزيارة، أستعيد ذلك اليوم، وكأنّني أعيشه مرّة أخرى، بكلّ هزّاته النفسيّة المتقلّبة.

ها أنت تدخلين في فستان أبيض (لماذا أبيض؟)، يسبقك عطرك إلى الطابق العاشر. يسبقك القلب إلى المصعد ويهرول أمامك.

وتتلعثم الكلمات التي ترحب بك بالفرنسيّة (لماذا بالفرنسيّة؟)

ها أنا أكاد أضع قبلة على حدّك.. وإذا بي أصافحك (لماذا أصافحك؟).

أسألك هل وجدت البيت بسهولة فتأتي الكلمات بالفرنسيّة (لماذا

أيضاً بالفرنسية؟) تراني كنت أبحث عن حرّية أو جرأة أكثر، داخل تلك اللّغة الغريبة عن تقاليدي وحواجزي النفسيّة؟

على تلك الأريكة جلست.

قلت وأنت تلقين نظرة عامّة على غرفة الجلوس:

- لم أكن أتصوّر بيتك هكذا. إنه رائع ومؤثّر بكثير من الذوق! سألتك:

- كيف كنت تتصوّره إذن؟
أجبتني:

- بفوضى... وبأشياء أكثر.

قلت لك ضاحكاً:

- لست في حاجة إلى أن أسكن شقّة مغرّة، بأشياء كثيرة مبعثرة لأكون فناناً. إنّها فكرة أخرى خاطئة عن الرّسامين. أنا مسكون بالفوضى، ولكنّي لا أسكنها بالضرورة. إنّها طريقي الوحيدة، في وضع شيء من التّرتيب داخلي.

لقد اخترت هذه الشقّة الشاهقة، لأنّ الضوء يؤثّر فيها وهو كلّ ما يلزم للرّسام، فاللوحة مساحة لا تؤثّر بالفوضى وإنّما بالضوء ولعبة الظلّ والألوان.

فتحت نافذتي الزجاجيّة الكبيرة، ودعوتك للخروج إلى الشرفة. قلت:

- انظري هذه النافذة، إنّها الجسر الذي يربطني بهذه المدينة. من هنا، من شرفتي أتعامل مع سماء باريس المتقلّبة.

كلّ صباح تقدّم لي باريس نشرتها النفسيّة، فأجلس هنا في الشرفة لأنفّرج عليها وهي تنقلب من طور إلى آخر.

يحدث كثيراً أن أرسم أمام هذه النافذة، ويحدث أن أجلس في الخارج لا تفرج على نهر السين، وهو يتحول إلى إناء يطفح بدموع مدينة تحترف البكاء.

يحلولي الجلوس هنا على حافة المطر قريباً وعميقاً منه في آن واحد. منظر المطر يستدرجني لأحاسيس متطرفة.

«إن الإنسان ليشعر أنه في عتفوان الشباب عند نزول المطر»

عندئذ، نظرت إلى السماء وكأنك تصلين لمطر، وقلت بالعربية:
- إن المطر يغريني بالكتابة. . وأنت؟

وكنت على وشك أن أجيبك «وأنا يغريني بالحب».

نظرت طويلاً إلى السماء. كانت صافية زرقاء كسماء حزيان.
كانت زرقعتها تضايقني فجأة، ربّما لأنني تعودت أن أراها رمادية.
وربّما لأنني تمنيت في سرّي، لو أمطرت لحظتها؛ لو تواطأت معي
ورمتك إلى صدري عصفورة مبلّلة.
ولم أقل لك شيئاً من كل هذا.

نقلت نظرتي من السماء إلى عينيك.

كنت أراها لأول مرة في الضوء. شعرت أنني أتعرف عليها.
ارتبكت أمامها كأول مرة. كانتا أفتح من العادة، وربّما أجهل من
العادة.

كان فيهما شيء من العمق والسكون في آن واحد. شيء من
البراءة، والمؤامرة العشقية. .

تراني أطلت النظر إليك؟ سألتني بطريقة من يعرف الجواب
مسبقاً:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

كان صوتك بالعربية يأتي كموسيقى عزف منفرد.
وجدت الجواب في قصيدة، حفظت مطلعها ذات يوم:

عينك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

سألتني مدهوشة:

- أتعرف شعر السيّاب أيضاً؟ عجب!

قلت في جواب مزدوج:

- أعرف «أنشودة المطر».

شعرت أنك ربّما أحببتني أكثر تلك اللحظة بالذات، وكأنني
أصبحت في نظرك السيّاب أيضاً.

وككلّ مرّة أفاجئك فيها بيت شعر، أو بمقولة ما باللغة العربية،
سألتني:

- متى قرأت هذا؟

أجبتك هذه المرّة:

- أنا لم أفعل شيئاً عزيزي سوى القراءة. ثروة الآخرين نعدّ
بالأوراق النقدية، وثنوي بعناوين الكتب. أنا رجل ثريّ كما ترين..
قرأت كلّ ما وقعت عليه يدي.. تمام كما نهبوا كلّ ما وقعت عليه
يدهم!

بعدها قلت وأنت تحدّقين في ذلك الجسر الحجريّ الرماديّ، الذي
يجري تحته نهر السين بزرقة صيفيّة استثنائية:

- أنت محظوظ بهذا المنظر، جميل أن نطلّ شرفتك على نهر السين،
ما اسم هذا الجسر؟

قلت:

- إنه جسر ميرابو. اكتشفت أخيراً أن «أبولينير» قد خلد هذا الجسر في عدّة قصائد، عثرت على بعضها منذ أيام في ديوان له. يبدو أنه كان مولعاً به. إنَّ الشعراء مثل الرّسّامين لهم عادة لا تقاوم في تخليد كلّ مكان سكنوه أو عبّروه بحبّ. بعضهم خلد ضيعة مجهولة، وآخر مقهى كتب فيه يوماً، وثالث مدينة عبرها مصادفة، وإذا به يقع في حبّها إلى الأبد.

سألني:

- وهل رسمت أنت هذا الجسر؟

أجبتك متنبّهاً:

- لا.. لأننا لا نرسم بالضرورة ما نرى.. ولأنّما ما رأيناه يوماً ونخاف ألا نراه بعد ذلك أبداً. وهكذا قضى (دولاكروا) عمره في رسم مدن مغربيّة لم يسكنها سوى أيّام، وقضى (أطلان) عمره في رسم مدينة واحدة.. هي قسنطينة.

لم أكن أعي هذه الحقيقة قبل أن أقف منذ شهرين في هذه الغرفة مقابلاً لهذه النافذة، لأرسم بشيء من التوتر الاستثنائي لوحتي الأخيرة.

كانت عيناى تريان جسر ميرابو ونهر السين. ويدي ترسم جسراً آخر ووادياً آخر لمدينة أخرى.

وعندما انتهيت، كنت رسمت قنطرة سيدي راشد ووادي الرمال.. لا غير. وأدركت أنّنا في النهاية لا نرسم ما نسكنه.. ولأنّما ما يسكننا.

سألني بلهفة:

- هل يمكن أن أرى هذه اللوحة؟

قلت وأنا أقودك إلى مرسمي :
- طبعاً .

وقفت أمام تلك الغرفة الشاسعة المملأى باللوحات . رحت تنظرين إلى الجدران ، وإلى ما أتكا من اللوحات أرضاً بدهشة طفل في مدينة سحرية . ثم قلت بالانبهار نفسه :

- كم هورائع كلّ هذا . أتدري؟ لم يحدث أن زرت مرسماً قبل اليوم . .

كنت أودّ أن أقول لك «ولم يحدث أن زارته امرأة قبلك ، قبل اليوم» .

ولكن لوحة كاترين المستندة على الجدار ذكّرتني بمرور امرأة أخرى من هنا . ذهب فكري عندها بعض الوقت عندما قلبت فجأة :

- وأين هي اللوحة التي حدّثتني عنها؟

أحدتكَ إلى الطرف الآخر للقاعة ، كانت اللوحة ماتزال منتصبه على خشبات الرسم ، وكأنّها تلغي بوضعها المميّز ذاك ، كلّ اللوحات الأخرى المبعثرة حولها .

هنالك علاقة عشقيّة ما بين أيّ رسّام ولوحته الأخيرة . هنالك تواطؤ عاطفي صامت ، لن يكسره سوى دخول لوحة عذراء أخرى إلى دائرة الضوء .

فالرسّام مثل الكاتب لا يعرف كيف يقاوم النداء الموجه للون الأبيض ، واستدراجه إيّاه للجنون الإبداعي كلّما وقف أمام مساحة بيضاء .

كيف إذن ، مازلت أقاوم منذ شهرين تحديّ اللون الأبيض وإغراء كلّ اللوحات التي أشهرت في وجهي بياضها؟

ولماذا، رفضت أن أرسم شيئاً بعد لوحتي هذه، وفضّلت أن أبقّيها
هكذا على الخشبات نفسها، لأشهد لها أنّها كانت سيّدي، وسيّدة كلّ
ما حولي من لوحات، وكأنّني أرفض أن أحيلها إلى ركن أو جدار كما
تحال عشيقه عابرة.

أيمكن ذلك.. وهي التي أعطتني من النسوة، ما لم تعطنيه حتّى
النساء؟

ربّما.. لأنّه لم يحدث قبلها أن مارست الحبّ رسماً.. مع الوطن!
قلت وأنت تتأمّلينها:

- إنّها مشابهة للوحتك الأولى «حنين» ولكنّها تختلف عنها، في كثير
من التفاصيل.. وخاصّة في الألوان الترابيّة الخام التي استعملتها،
إنّها تعطيها نضجاً.. وحياة أكثر.

قلت وأنا أنقل نظري منها إليك:
- لقد بعثت فيها الحياة.. إنّها أنت.
- أنا؟

- أتذكرين يوم قلت لك على الهاتف، لقد سهرت البارحة حتّى
ساعة متأخرة من الليل لأرسمك. اتّهمتني يومها بالجنون وخفت أن
أكون قد فضحت ملاحك. لا تخافي، لن أرسمك أبداً ولن يعرف
أحد أنك عبرت حياتي ذات يوم. إنّ للفرشاة شهامة أيضاً.

وأضفت:

أنت مدينة.. ولست امرأة، وكلّما رسمت قسنطينة رسمتك أنت،
ووحّدك ستعرفين هذا..

قلت فجأة وأنت تشيرين بنظرة من عينيك إلى لوحة كاترين:
- وهي؟

كان في سؤالك شيء من عناد الأطفال وأنانيتهم، وشيء من عناد النساء وغيرتهن .

قلت وأنا أرفع تلك اللوحة من الأرض :

- هل تزعجك هذه اللوحة حقاً؟ .

أجبت بشيء من الكذب الواضح :

- لا . .

واصلت وأنا أشعر أنني قادر في تلك اللحظة على أن أرتكب أي

جنون :

- إذا شئت سأتلّفها أمامك . .

صحت :

- لا، أنت مجنون !

قلت بهدوء :

- لست مجنوناً . . وهذه اللوحة لا تعني شيئاً بالنسبة لي . إنها امرأة

عابرة، في مدينة عابرة .

قلتُ بابتسامة مريكة وأنت تتألمينها :

- إنها مدينتك الأخرى . . أليس كذلك؟

من أين جئت بتلك الرصاصة الأخيرة، لتطلقها على تلك

اللوحة؟

اعترفت لك بتلميح واضح :

- لا . . ليست مدينتي، إنها وسادتي الأخرى . . أو إذا شئت

سريري الآخر فقط !

شعرت أنّ شيئاً من الحمرة قد علا وجنتيك، وأنّ عواطف

وأحاسيس متناقضة قد عبرتك، وتركت آثارها على ملامحك التي
تغيرت في لحظات.

ثم تمتمت بهدوء وكأنك تتحدثين إلى نفسك:
- ... لا يهم!

قلت لك وأنا أمسكك من ذراعك:

- لا تغاري من هذه اللوحة. هنالك امرأة واحدة تستحق أن
تغاري منها في هذا البيت، هي هذه..

نظرت نحو المكان الذي أشرت إليه. كان ثمة تمثال ينتصب على
الأرض في حجم امرأة.

قلت بتعجب:

- هذه... لماذا هذه؟

قلت:

- لأنها المرأة الوحيدة التي ارتحت لها حتى الآن، والتي قاسمتني
معظم سنوات غربتي. كنت في السابق أملك منها نسخة مصغرة.
وقررت منذ سنتين أن أهدي نفسي تمثالها في حجمه الأكبر.

كانت تلك إحدى نوبات جنوني. ولكنني لم أندم على اقتنائها، إنها
تشبهني كثيراً. أنا بذراع واحدة وهي بلا ذراعين. لقد فقدنا أطرافنا
في أزمنة مختلفة، لأسباب مختلفة. ولكننا صامدان معاً، لن تمنعنا
عاهتنا من الخلود.

لم تعلقني على كلامي.

يبدو أنك لم تصدقي ذلك. أن يعيش رجل مع تمثال لامرأة،
ضرب من الجنون أليس كذلك؟ حتى لو كان الرجل رساماً، وكانت
المرأة فينوس لا غير!

المشكلة معك . . أنك كنت مأخوذة بالعقريّة التي تلامس الجنون . ولكنك كنت أعقل من أن تكتشفها . ولذا كلّما أردت أن أعطيك دليلاً على جنوني، لم تكوني تصدّقيني تماماً . رحبت فقط بحماة أنثى، تسترقين النظر إلى لوحة كاترين، وكأنّها وحدها تعنيك . ورحت أنا أحاول فهمك .

ما الذي كان يزعجك في تلك اللوحة؟ هل وجودها في تلك اللحظة بيننا بحضورها الصامت الذي يذكرك بمرور امرأة أخرى في حياتي؟ أم شقرة تلك المرأة، والإغراء الاستفزازي لشفتيها وعينيها المختفيتين خلف خصلات شعر فوضويّ؟

أكنت تغارين من اللوحة أم من صاحبها؟ وكيف يكون من حقك أن تعاتبيني على لوحة واحدة رسمتها لامرأة، دون أن يكون لي الحقّ في أن أحاسبك على كلّ ما كتبه قبلي، وعلى ذلك الرجل الذي عدّبتني به صدقاً أم كذباً؟

عادت عيناك إلى اللوحة الأخيرة . تأملتُها قليلاً ثمّ قلت :
- إذن هذه . . أنا !

قلت :

- ربّما لم تكوني أنت، ولكن هكذا أراك، فيك شيء من تعاريج هذه المدينة؛ من استدارة جسورها، من شموخها، من مخاطرها، من مغارات وديانها، من هذا النهر الزبديّ الذي يشطر جسدها، من أنوثتها وإغرائها السريّ ودوارها .

قاطعتني مبتسمة :

- أنت تعلم . . كيف يمكن لك أن تجد قرابة بيني وبين هذا الجسر؟

كيف خطرت فكرة كهذه بذهنك؟! أتدري أنني لا أحب سوى
الجسور الخشبية الصغيرة تلك التي نراها في بطاقات نهاية السنة،
مرشوشة بالثلج والفضة، تعبرها العربات الخرافية. وأما جسور
قسطنطينية الحديدية المعلقة في الفضاء، فهي جسور مخيفة.. حزينة. لا
أذكر أنني عبرتها مرة واحدة راجلة، أو حاولت مرة واحدة النظر منها
إلى أسفل.. إلّا شعرت بالفرع والدوار.

قلت:

- ولكن الدوار هو العشق؛ هو الوقوف على حافة السقوط الذي لا
يقاوم؛ هو التفرّج على العالم من نقطة شاهقة للخوف؛ هو شحنة من
الانفعالات والأحاسيس المتناقضة، التي تجذبك للأسفل والأعلى في
وقت واحد، لأن السقوط دائماً أسهل من الوقوف على قدمين
خائفتين! أن أرسم لك جسراً شامخاً كهذا، يعني أن اعترف لك أنك
دواري. إنه ما لم يقله لك رجلٌ قبلي.

أنا لا أفهم أن تحبّي قسطنطينية وتكرهي الجسور؛ وتبحثني عن
الإبداع، وأنت تخافين الدوار. لولا الجسور لما كانت هذه المدينة.
ولولا شهقة الدوار، لما أحب أحد.. أو أبدع.

كنت تستمعين إليّ، وكأنك تكتشفين شيئاً لم تنتهي له من قبل
برغم بساطته.

غير أنك قلت:

- ربما كنت في النهاية على حق، ولكنني كنت أفضل لو رسمتني أنا
وليس هذا الجسر. إن أي امرأة تتعرّف على رسّام، تحلم في سرّها أن
يخلدها، أن يرسمها هي.. لا أن يرسم مدينتها؛ تماماً كما أن أي
رجل يتعرّف على كاتبة، يتمنى أن تكتب عنه شيئاً، وليس عن شيء

آخِر له علاقة به . إنها الترجسِيَّة . . أو الغرور أو أشياء أخرى لا
تفسير لها .

فاجأني اعترافك . شعرت بشيء من الحية .
هل رسمت نسخة مزوَّرة عنك إذن؟ أحمق أنه ليس بينك وبين
هذا الجسر من قرابة؟ أكانت هذه اللوحة نسخة طبق الأصل عن
ذاكرتي . . وأنَّ حلمك في النهاية، أن تصبحي نسخة أخرى عن
كأثرين لا غير، أن تتحوَّلي إلى لوحة عادية، مفضوَّحة المزاج، ووجه
بكثير من المساحيق، يشبه وجهها؟

ترانا لم نَشَفْ من هذه العقدة؟

قلت لك بشيء من اليأس:

- إذا كان هذا ما تريدن . . سأرسمك .

أجبتني بصوت فيه خجل ما:

- أعترف أنني منذ البداية، كنت أحلم أن ترسمني أنا . . وأن
أحتفظ بهذه اللوحة عندي كذكرى . شرط ألا تضع عليها توقيعك إذا
أمكن . .

شعرت برغبة في الضحك، أو على الأرجح برغبة في الحزن، وأنا
أكتشف ذلك المنطق العجيب للأشياء .

كان من حقِّي إذن أن أوقع الرموز واللوحات التي ليس بينها
وبينك من شبه . وأما أنت فليس في وسعي أن أضع أسفل رسمك
توقيعي . أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها، لن يقرن اسمي بك ولو
مرة واحدة، حتى في أسفل لوحة؟

هناك إذن الذين يشترون توقيمي فقط، وليس لوحاتي . وهناك
أنت التي تريدن لوحتي دون توقيع .

وهناك أنا . المجنون العنيد الذي يرفض هذا المنطق الجديد
للأشياء، ويرفض باسم الحب أن يحولك إلى لوحة لقيطة، لا نسب
لها ولا صاحب. يمكن أن تتبناها آية ريشة وأي رسام.

حيرك صمتي . . قلت شبه معتذرة:

- هل يزعجك أن ترسمني؟

قلت ساخراً:

- لا . . كنت أكتشف فقط مرة أخرى، أنك نسخة طبق الأصل
عن وطن ما، وطن رسمت ملامحه ذات يوم. ولكن آخرين وضعوا
إمضاءهم أسفل انتصاراتي. هنالك إمضاءات جاهزة دائماً مثل هذه
المناسبات. فمنذ الأزل، كان هنالك دائماً من يكتب التاريخ،
وهناك من يوقعه، ولذا أنا أكره اللوحات الجاهزة للتزوير.

تراك فهمت كل ما قلته لك لحظتها؟

بدأت أشك فجأة في وعيك السياسي. لقد كان كل ما يهتك في
النهاية، هو موضوع لوحتك لا غير.

قلت وأنت تغادرين الرسم:

- أتدري أننا لن نلتقي لمدة شهرين؟ سأسافر الأسبوع القادم إلى
الجزائر . .

صحت وأنا أستوقفك في الممر:

- أحق ما تقولين؟

قلت:

- طبعاً أنا أقضي دائماً عطلاتي الصيفية مع والدتي في الجزائر. ولا
بد أن أعود الأسبوع القادم مع عمي وعائلته . . لن يبقى أحد هنا في
باريس.

وقفت مذهولاً وسط المشى . أمسكت بذراعك وكأني أمنعك من
الرحيل ، وسألتك بحزن :

- وأنا . ؟

- أنت . . سأشتاق إليك كثيراً . أعتقد أننا ستعذب بعض
الشيء . . إنه فراقنا الأول . ولكن سنحتال على الوقت ليمر بسرعة .

ثم أضفت بلهجة من يريد أن يحلّ مشكلة ، أو ينتهي منها
بسرعة :

- لا تحزن . . يمكنك أن تكتب لي أو تطلبني هاتفياً . . سبقى على
اتصال .

كنت على حافة البكاء .

كطفل أخبرته أمه أنها ستسافر دونه . وكنت أنت تزفّين لي ذلك
الخبر ، بشيء من السادية التي أدهشتني . وكأنّ عذابي يغريك بشيء
ما .

هل أمسك بأطراف ثوبك كطفل وأجهش بالبكاء؟

هل أتحدّث إليك ساعات ، لأقنعك أنني لن أقدر بعد اليوم على
العيش بدونك ، وأنّ الزمن بعدك لا يُقاس بالساعات ولا بالأيام ،
وأنني أدمتكَ؟

كيف أقنعك أنني أصبحت عبداً لصوتك عندما يأتي على الهاتف؟
عبداً لضحككتك ، لطلّتك ، لحضورك الأنثويّ الشهيّ ، لتناقضك
التلقائيّ في كلّ شيء وفي كلّ لحظة . عبداً لمدينة أصبحت أنت ،
لذاكرة أصبحت أنت ، لكلّ شيء لمسته أو عبرته يوماً .

كان الحزن يهجم عليّ فجأة ، وأنا واقف هكذا في ذلك الممرّ
أتأمّلك بذهول من لا يصدّق .

وكنت قريبة مني حدّ الالتصاق، كما لم يحدث أن كتته يوماً. بحثت في ملامحك عن شيء يفضح لي في تلك اللحظة عواطفك؛ لكنني لم أفهم شيئاً.

أتراه عطرك الذي كان يخترق حواسي ويشلّ عقلي، هو الذي جعلني عندئذٍ لا أتعمّق في البحث؟ كنت أعني فقط أنك بعد لحظات ستكونين بعيدة، بقدر ما كنت ساعتها قريبة.

رفعت وجهك نحوي.

كنت أريد أن أقول لك شيئاً لم أعد أذكره. ولكن قبل أن أقول أية كلمة، كانت شفّتي قد سبقتني وراحتا تلتهمان شفّتيك في قبلة محمومة مفاجئة. وكانت ذراعي الوحيدة تحيط بك كحزام، وتحولك في ضمة واحدة إلى قطعة مني.

انفضت قليلاً بين يديّ كسمكة خرجت لتوها من البحر، ثم استسلمت إليّ.

كان شعرك الطويل الحالك، ينفرط فجأة على كتفك شالاً عجرياً أسود، ويوقف رغبة قديمة لإمساكك منه، بشراسة العشق الممنوع. بينما راحت شفّتي تبحثان عن طريقة تتركان بها توقيعني على شفّتيك المرسومتين مسبقاً للحب. كان لا بد أن يحدث هذا..

أنت التي تضعين الظلال على عينيك، والحمى على شفّتيك بدل أحمر الشفاه، أكان يمكن أن أصمد طويلاً في وجه أنوثتك؟ ها هي سنواتي الخمسون تلتهم شفّتيك، وها هي الحمى تنتقل إليّ، وها أنا أذوب أخيراً في قبلة قسطنطينية المذاق، جزائرية الارتباك.

لا أجمل من حرائقك.. باردة قبل الغربة لو تدرين. باردة تلك

الشفاء الكثيرة الحمرة والقليلة الدفء . باردٌ ذلك السرير الذي لا
ذاكرة له .

دعيني أتزوّد منك لسنوات الصقيع . دعيني أختبئ رأسي في
عنقك . أختبئ طفلاً حزيناً في حضنك .

دعيني أسرق من العمر الهارب لحظة واحدة ، وأحلم أن كلّ هذه
المساحات المحرقة . . لي .

فاحرقيني عشقاً ، قسنطينة !

شهيّتين شفتاك كانتا ، كحبيبات توت نضجت على مهل . عبثاً
جسدك كان ، كشجرة ياسمين تفتّحت على عجل .

جائع أنا إليك . . عمر من الظمأ والانتظار . عمر من العقد
والحواجز والتناقضات . عمر من الرغبة ومن الخجل ، من القيم
الموروثة ، ومن الرغبات المكبوتة . عمر من الارتباك والنفاق .

على شفتيك رحت الملم شتات عمري .

في قبلة منك اجتمعت كلّ أضدادني وتناقضاتي . واستيقظ الرجل
الذي قتلته طويلاً مراعاة لرجل آخر ، كان يوماً رفيق أبيك .
رجلٌ كاد يكون أباك .

على شفتيك وُلدتُ ومُتُّ في وقتٍ واحد . قتلت رجلاً وأحييت
آخر .

هل توقّف الزمن لحظتها ؟

هل سوى أخيراً بين عمرينا ، هل ألغى ذاكرتنا بعض الوقت ؟

لا أدري . .

كلّ الذي كنت أدريه ، أنك كنت لي ، وأنني كنت أريد أن أصرخ
لحظتها كما في إحدى صرخات « غوته » على لسان فاوست « قف أيها
الزمن . . ما أجلك ! » .

ولكن الزمن لم يتوقف. كان يتربص بي كالعادة. يتأمر عليّ كالعادة. وكنت بعد لحظات تتأملين ساعتك في محاولة لإخفاء ارتباكك، وتذكيري بضرورة عودتك إلى الجامعة.

عرضت عليك فنجان قهوة في محاولة أخيرة لاستبقائك.
قلت وأنت أمام المرأة تضعين شيئاً من الترتيب في مظهرك،
وتصففين شعرك وتعيدين جمعه:
- أفضل شيئاً بارداً إذا أمكن..

تركتك في الصالون وذهبت إلى المطبخ. تعمّدت ألا أستعجل في العودة، وكأنني فجأة أصبحت أخجل من آثار قبلي على شفّيتك.

وعندما عدت بعدها، كنت أمام المكتبة تلقيين نظرة على عناوين الكتب، وتقلّبين بعضها. ثمّ سحبت من أحد الرفوف كتاباً صغيراً، سألتني وأنت تنظرين إلى غلافه:

- أليس هذا الديوان لصديقك الشاعر الذي حدّثتني عنه؟
أجبتك بسعادة وأنا أجد أخيراً في ذلك الموضوع مخرجاً لارتباكِي:
- نعم.. هناك ديوان آخر له أيضاً تجدينه على الرف نفسه.
قلت:

- هل اسمه زياد الخليل؟ لقد سمعت هذا الاسم قبل اليوم.
قلبت الكتاب. رأيتك تتأملين طويلاً صورته على ظهر الكتاب.
تقرئين بعض السطور.. ثمّ قلت:
- أيمكن لي أن أستعير منك هذين الديوانين؟. أفضل أن أقرأهما على مهل هذا الصيف، فليس لي ما أطلعه.

أجبتك بحماسة، أو بحماسة:
- طبعاً، إنّها فكرة جيّدة.. أنا واثق أنّ هذين الديوانين سيتركان

تأثيرهما على كتاباتك. ستجدين أشياء رائعة خاصة في الديوان الأخير
«مشاريع للحب القادم». إنه أجمل ما كتب زياد.

رحت بسعادة تخفين الكتابين في حقيبة يدك. كنت وقتها في سعادة
طفلة تعود إلى بيتها بلعب أحببها.

طبعاً، لم أكن أعني في ذلك الحين، أنني سأكون بعد ذلك لعبتك
الأخرى، وأن هذين الكتابين سيتركان تأثيرهما أيضاً على مجرى
قصتنا.

كنت تستعدين تدريجياً وجهك العادي وملاحك الطبيعية.
وكان زوبعة حبي لم تمر بك. فهل كان ذلك تمثيلاً أم حقيقة؟
حاولت أن أنسى خيبي معك، أمام تلك اللوحة التي كانت
السبب الأول في زيارتك. حاولت أيضاً أن أخفف من خيبتك.
قلت:

- سأرسمك، ستكون لوحتك تسليتي في هذا الصيف..
ثم أضفت دون أية نية خاصة:
- يجب أن تزوريني مرة أخرى لتجلسي أمامي، حتى أتمكن من
رسمك. أو تعطيني صورة لك أنقل عنها ملامحك.

قلت وكان الجواب كان جاهزاً لديك:
- لم يبق أمامي متسع من الوقت لأعود إليك هذه الأيام، وليس في
حوزتي أية صورة. يمكنك أن تستعين بصورتي الموجودة على ظهر
كتابي، في انتظار أن أعود.

اعترف أنني لم أفهم في ذلك الحين أيضاً، إذا كان في جوابك شيء
من التلميح لي بأنك لن تعودني إلى هذا البيت، أم أنك كنت تحببيني
بتلقائية بريئة لا أكثر؟

ألمت أنت التي كنت تلحين علي أن أرسلك؟
فلماذا حولت هذه اللوحة إلى قضية شخصية أنا وحدي معني
بها؟

لم أناقشك كثيراً. كنت أدري أنني في جميع الحالات سأرسمك.
ربما لأنني لا أعرف كيف أرفض لك طلباً، وربما لأنني لا أعرف كيف
سأقضي الصيف دون استحضارك ولو رسماً.

ذهبت ذلك اليوم بعدما وضعت قبلتين على خدي، ووعدتني بلقاء
قريب. لم يعد ممكناً بعد قبلتنا أن نتصافح..

كنت أعني أن شيئاً ما قد تغير في علاقتنا، ولم يعد ممكناً بعد اليوم
لذلك المارد الذي انطلق فجأة من أعماقنا، أن يعود إلى قلب الزجاجة
التي أغلقناها عليه لأسابيع كاملة.

كنت أعني أنني انتقل معك في بضع لحظات من الحب إلى
العشق. من العاطفة البريئة إلى الشهوة، وأنه سيكون من الصعب،
بعد اليوم، أن أنسى مذاق قبلتك، وحرارة جسدك الملتصق بي
للحظات.

كم دامت قبلتنا تلك.. دقيقتين؟ ثلاثاً؟ أم خمس دقائق للجنون
لا غير؟

أيمكن أن تفعل تلك الدقائق القليلة كل الذي حلّ بي بعد
ذلك؟

أيمكن أن تلغي خمس دقائق، خمسين سنة من عمري؟
وكيف لم أشعر بعدها بأي إحساس بالندم، بأي خجل تجاه ذكرى
سي الطاهر؟ أنا الذي كنت أقترف يومها أول خيانة بالمفهوم الأخلاقي
للخيانة.

لا.. لم يكن في قلبي سوى الحب.

كنت ممتكاً بالعشق، بالشهوة، بالجنون. كنت أخيراً سعيداً.
فلماذا أفسد سعادتي بالندم، بالتساؤلات التي ستوصلني إلى النعاسة؟

لا أذكر من قال «الندم هو الخطأ الثاني الذي نقرّفه..» ولم يكن
في القلب مساحة أخرى ولو صغيرة، يمكن أن يتسلّل منها شيء آخر
غير الحب.

ألم يكن كلّ ذلك جنوناً.

كيف سمحت لنفسي أن أكون سعيداً إلى ذلك الحدّ، وأنا أدري
أنني لم أمتلك منك شيئاً في النهاية، سوى بضع دقائق للفرح
المسروق، وأنّ أمامي متسعاً من العمر.. للعذاب؟

الفصل الرابع

كان لرحيلك مذاق الفجيعة الأولى. والوحدة التي أحالتني في أيام
إلى مرتبة لوحة يتيمة على جدار، تحضرنى جملة تبدأ بها رواية أحببتها
يوماً..

«ما أعظم الله! فهو عظيم بقدر ما أنا وحيد. إنى لأرى المؤلف فيبدولي
كلوحة..»

وكنت أنا في عزلتي ووحدتي، ذلك المؤلف وتلك اللوحة معاً. فما
أكبر وأبرد ذلك الكون الذي كنت معلقاً على جداره، في انتظارك!
كنت أدخل بعدك منحدرات الخيات النفسية والعاطفية في الوقت
نفسه. وأعيش ذلك القلق الغامض، الذي يسبق ويلى دائماً كل
معرض لي. وكنت أقوم تلقائياً بجرعة لأفراحي وخيالاتي.
انتهى معرضي إذاً. لم تهتم به غير صحافة فرنسية مختصة كالعادة.
وبعض المجلات العربية المهاجرة.

ولكن يمكن أن أقول إنه حصل على تغطية إعلامية كافية، وأن
الذين كتبوا عنه أجمعوا على أنه حدث فني عربي في باريس.
وحدها الصحافة الجزائرية تجاهلته، عن إهمال لا غير، كالعادة.
جريدة ومجلة أسبوعية واحدة، كتبنا عنه بطريقة مقتضبة. وكأنها
تعاينان فعلاً من قلة الصفحات، وليس من قلة المواد الصحفية.
بينما لم يحضر ذلك الصديق الصحفي، الذي وعدني بالحضور إلى

باريس لقضايا شخصية، ولإجراء مقابلة مطولة معي بالناسبة نفسها.
ورغم أنني رجل غير مولع بالأصواء، والجلوس لعدة ساعات إلى
صحافي للحديث عن نفسي، فلأنني كنت أتمنى أن تتم تلك المقابلة،
لأتمكن أخيراً من الحديث مطولاً إلى الشخص الوحيد الذي كان
يعتني حقاً. . القارئ الجزائري.

عبد القادر طلبني ليخبرني أنه اضطرّ للبقاء في الجزائر، لتغطية
مهرجان ما من أحد المهرجانات التي ازدهرت هذه الأيام، لأسباب
غامضة يعلمها الله. . وآخرون.

ولم أعتب عليه. ليس هناك من مقارنة بين مهرجان أو ملتقى
رسمي، يتم إعداده والإنفاق عليه بالعملة الصعبة وبين أي معرض
مهما كان اسم صاحبه، والسنوات التي أخذتها منه تلك اللوحات.
في النهاية لا يمكن حتى أن أعتب على الصحافة الجزائرية.

ماذا يمكن أن يقدم معرض للوحات الفنية من متعة أو ترفيه
للمواطن الجزائري الذي يعيش على وشك الانفجار، بل الانتحار،
ولا وقت له للتأمل أو التذوق، والذي يفضل على ذلك مهرجاناً
لأغنية (الراي). يمكن أن يرقص. . ويصرخ. . ويغني فيها حتى
الفجر، منفقاً على تلك الأغاني الشعبية المشبوهة، ما تجتمع في جيبه
من دينارات، وما تراكم في جسده من «ليبيدو»؟

تلك «الثروة» الوحيدة التي يملكها شبابنا حقاً، والتي كعملتنا لا
يدري أين ينفقها خارج الأسواق السوداء. . للبؤس.
بعضهم أدرك هذا قبل غيره.

سنة ١٩٦٩، وفي عزّ الفراغ والبؤس الثقافي الذي كان يعيشه
الوطن، اخترع أحدهم في بضعة أيام، أكبر مهرجان عرفته الجزائر
 وإفريقيا، كان اسمه «المهرجان الإفريقي الأول»، دعت إليه قارة

وقبائل إفريقية بأكملها لتغني وترقص - عارية أحياناً - في شوارع الجزائر لمدة أسبوع كامل على شرف الثورة!

كم من ملايين أنفقت وقتها، على مهرجان للفرح ظل الأول والأخير. وكانت أهم إنجازاته التعتيم على محاكمة قائد تاريخي كان أثناء ذلك، يستجوب ويعذب رجاله في الجلسات المغلقة. . باسم الثورة نفسها.

ودون أن تكون لي صداقة ما بذلك القائد، الذي كان اسمه الطاهر أيضاً، ولا أي عداة خاص لذلك الحاكم الذي كان يوماً مجاهداً وقائداً أيضاً، بدأت أعي لعبة السلطة، وشراسة الحكم. وأصبحت أحذر الأنظمة التي تكثر من المهرجانات والمؤتمرات. . إنها دائماً تخفي شيئاً ما!

فهل هي مصادفة أن تبدأ مشكلاتي منذ ذلك الحين، ويولد أول مذاق للمرارة في حلقي يومها؟

عندما التقيت بذلك الصديق بعد أشهر، اعتذر لي بأسف صادق، ووعدني ألا يفوت معرضي القادم. ربّت على كتفه ضاحكاً وقلت:

- لا يهم. . بعد أيام لن يذكر أحد اسم ذلك المهرجان. ولكن التاريخ سيذكر اسمي لا محالة ولو بعد قرن!
قال لي بمزاح لا يخلو من الجد:
- أتدري أنك مغرور؟

أجبت:

- أنا مغرور لكي لا أكون «محقوراً» فنحن لا نملك الخيار يا صاحبي. . إننا ننتمي إلى أمة لا تحترم مبدعيها وإذا فقدنا غرورنا وكبرياءنا، ستدوسنا أقدام الأميين والجهلة!

تساءلت بعدها أأكون مغروراً حقاً؟

اكتشفت بعد شيء من التفكير، أنني لا أكون مغروراً إلا لحظة أقف أمام لوحة بيضاء وأنا ممسك بفرشاة. كم يلزمني من الغرور لحظة لأهزم بياضها وأفصّ بكارتها، وأتحايل على ارتباكي بفائض رجولتي، وعنفوان فرشاتي؟ ولكن..

ما أكاد أنتهي منها، وأمسح يدي من كلّ ما علق بها من ألوان حتى أرغمي على الأريكة المجاورة، وأتأملها مدهوشاً، وأنا أكتشف أنني الوحيد الذي كان يعرق ويتزف أمامها..

وأنا أنسى عربة تتلقّى ثورتي ببرود ورائي خفيف! .. ولذا، حدث في لحظات انهماكاتي وخيالاتي الكبرى أن مرّقت إحداهنّ وألقيت بها في سلّة المهملات، بعدما أصبح وجودها يضايقني.

هنالك لوحات هي من السذاجة والبرودة بحيث تخلق عندك عقدة رجولة.. وليس فقط عقدة إبداع! ورغم ذلك، لن يعرف أحد هذا. وربما لن يتوقّع ضعفي وهزائمي السرية أحد.

فالآخرون لن يروا غير انتصاراتي، معلقة على الجدران في إطار جميل. وأما سلال المهملات، فستبقى دائماً في ركن من مرسمي وقلبي، بعيدة عن الأضواء.

فالذي يجلس أمام مساحة بيضاء للخلق، لا بدّ أن يكون إلهاً أو عليه أن يغيّر مهنته.

أأكون إلهاً؟ أنا الذي حولني حبك إلى مدينة إغريقية، لم يبق منها قائماً غير الأعمدة الشاهقة المتأكلة الأطراف؟

هل يفيد شموخي ، وملح حبك يفتت أجزائي من الداخل كل
يوم؟ شهران.. ولا شيء سوى رقم هاتفني مستحيل.. وكلمات
تركتها لي تحف لها الفرشاة.

وإذا بالصمت يصبح لوني المفضل.

كنت أدري جدلية الرسم والكتابة كما أردتها أنت.

كنت تفرغين من الأشياء كلما كتبت عنها، وكأنك تقتلينها
بالكلمات. وكنت كلما رسمت امتلأت بها أكثر، وكأنني أبعث الحياة
في تفاصيلها المنسية. وإذا بي أزداد تعلقاً بها، وأنا أعلقها من جديد
على جدران الذاكرة.

أن أرسمك، أليس يعني أن أسكنك غرف بيتي أيضاً، بعدما
أسكنتك قلبي؟

حاقة قررت في البدء ألا أرتكبها. ولكنني اكتشفت ليلاً بعد آخر
عشية قراري.

لماذا كان الليل هزيمتي؟

الآنني كلما خلوت بنفسي خلوت بك، أم لأن للفن طقوس الشهوة
السرية التي تولد غالباً ليلاً في ذلك الزمان الخارج عن الزمن..
والخارج عن القانون؟

على حافة العقل والجنون.. في ذلك الحد الذي تلغيه العتمة
والفاصل بين الممكن والمستحيل..

كنت أقترفك..

كنت أرسم بشفتي حدود جسدك.

أرسم برجولتي حدود أنوثتك.

أرسم بأصابعي كل ما لا تصله الفرشاة..

بيد واحدة كنت احتضنك . . وأزرعك وأقطعك . . وأعريك
والبسك وأغير تضاريس جسدك لتصبح على مقاييسي .
يا امرأة على شاكلة وطن . .

امنحني فرصة بطولة أخرى . دعيني بيد واحدة أغير مقاييسك
للرجولة ومقاييسك للحب . . ومقاييسك للذة ! كم من الأيدي
احتضنتك دون دفء ! كم من الأيدي تنالت عليك . . وتركت
أظافرهما على عنقك ، وإمضاءهما أسفل جرحك . وأجبتك خطأ . .
وآلتك خطأ .

أحبك السراق والقراصنة . . وقاطعو الطرق . ولم تقطع أيديهم .
ووحدهم الذين أحبك دون مقابل ، أصبحوا ذوي عاهات .
لهم كل شيء ، ولا شيء غيرك لي .
أنت لي الليلة ككل ليلة . فمن سيأخذ طيفك مني ؟ من سيصادر
جسدك من سريري ؟ من سيسرق عطرك من حواسي ؟ ومن سيمنعني
من استعادتك بيدي الثانية ؟
أنت لذتي السرية ، وجنوني السري ، ومحاولتي السرية للانقلاب
على المنطق .

كل ليلة تسقط قلاعك في يدي ، ويستسلم حراسك لي ، وتأتين في
ثياب نومك لتمددي إلى جواربي ، فأمرري يدي على شعرك الأسود الطويل
المبعثر على وسادتي ، فترتعشين كطائر بللّ القطر . ثم يستجيب جسدك
النائم لي .

كيف حدث هذا . . وما الذي أوصلني إلى هذا الجنون ؟
ترى صوتك الذي تعودت عليه حدّ الإدمان ، صوتك الذي كان
يأتي شلال حبّ وموسيقى ، فيتدحرج قطرات لذة علي ؟
حبك هاتف يسأل « واشك ؟ »

يدثرني ليلاً بلحافٍ من القبل . يترك جوارِي عينيهِ قنديل شوق،
عندما تنطفئ الأضواء .

يخاف عليّ من العتمة، يخاف عليّ من وحدتي ومن شيخوختي .
فيعيدني إلى الطفولة دون استشارتي . يقصّ عليّ قصصاً يصدّقها
الأطفال . يغني لي أغنيات ينام لسماعها الأطفال .
تُرى أكان يكذب؟ هل تكذب الأمهات أيضاً؟
هذا ما لا يصدّقه الأطفال!
ما الذي أوصلي إلى جنوني؟

تري قبلك المسروقة من المستحيل . وهل تفعل القبل كلّ هذا؟ .
أذكر أنني قرأت عن قُبُلٍ غيّرت عمراً ولم أصدّق . .

كيف يمكن لنيثشه فيلسوف القوّة والرجل الذي نظّر طويلاً
للمجبروت والتفوّق أن يقع صريع قبلة واحدة، سرقها مصادفة في
زيارة سياحية إلى معبد، صحبة «Lou» المرأة التي أحبّها أكثر من كاتب
وشاعر في عصرها . كان أحدهم «أبولينير» الذي تغزّل فيها طويلاً
وبكاها أمام هذا الجسر نفسه، واجداً في اسمها المطابق بالفرنسية تماماً
لاسم الذئب (Loup) دليلاً قاطعاً على قدره معها؟

أمّا (نيثشه) القائل «عندما تزور امرأة لا تنس أن تصحب معك
العصا» فقد كان أمامها رجلاً محطّماً، ضعيفاً، وبدون إرادة . حتّى إنّ
أمّه قالت يوماً «لم تترك هذه المرأة أمام ابني سوى اختيار من بين
ثلاثة: إمّا أن يتزوّجها . . أو يتحرر . . أو يصبح مجنوناً!» .

كان هذا حال «نيثشه» يوم أحبّ . فهل أخجل من ضعفي معك،
وأنا لست فيلسوفاً للقوّة، ولست شمشون الذي فقد شعره وقوّته
الأسطورية بسبب قبلة؟

هل أخجل من قبلتك، وهل أندم عليها، أنا الذي بدأ عمري
على شفيتك؟

لا أدري كيف شفي «نيتشه» من امرأة لم يتزوّجها. هل انتحر أم
أصبح مجنوناً؟

أدري فقط، أنني قضيت شهرين وسط تقلّبات نفسيّة متناقضة،
كدت ألامس فيها شيئاً يشبه الجنون، ذلك الجنون الذي كان يغريك،
وكنت تتغرّلين لي به كثيراً، وتعتبرينه الصلْك الوحيد الذي يشهد للفنان
بالعبريّة.

فليكن.. سأعترف لك اليوم، بعد كلّ تلك السنوات، أنني
وصلت معك يوماً إلى ذلك الحدّ المخيف من اللاّعقل.

أكان عشقاً فقط، أم لأهديك لاشعوريّاً اللّعبة التي لم تكوني قد
حصلت عليها بعد: ذلك الرجل المجنون الذي تحلمين به.

حدث كثيراً وقتها، أن استعدت قصّتي معك فصلاً فصلاً.
كنت كلّ مرّة أقع على استنتاجات متناقضة. مرّة يبدو لي حبّك
قصّة أسطوريّة أكبر منك ومني. شيئاً ربّما كان مقدراً مسبقاً منذ
قرون، منذ.. كانت قسنطينة مدينة تدعى (سيرتا).

ومرّة أتساءل، ماذا لو كنت رجلاً استوقفتك ذاكرته وأغراك جنونه
بقصّة ما؟

ماذا لو كنت مجرد ضحيّة لجريمة أدبيّة ما، تحلمين بارتكابها في
كتاب قادم؟

ثمّ فجأة تطفئ طفولتك على الجانب «الإجرامي» فيك، فأذكر
أنني كنت أيضاً نسخة عن والدك. وأنني بسبب قبلة حمقاء نسفت إلى
الأبد ذاك الجسر السريّ الذي كان يجمعنا.

آنذاك، كنت أقرّر الاعتذار منك. وأستيقظ من نومي وأُتجه إلى

مرسمي . اجلس طويلاً أمام لوحتك البيضاء وأنساءل : من أين أبدأك؟

أنأمل طويلاً صورتك ، على ظهر روايتك التي أهديتها دون إهداء . أكتشف أن وجهك لا علاقة له بالصورة . فكيف أضع عمراً لوجهك الجديد والقديم معاً . كيف أنقل عنك نسخة دون أن أخونك؟

أتذكر وسط ارتباك (ليوناردو دافنشي) ، ذلك الرسام العجيب الذي كان قادراً على أن يرسم بيده اليمنى ويده اليسرى بالإتقان نفسه . بأي يد تراه رسم (الجوكندا) ليمناها الخلود والشهرة؟ وبأي يد يجب أن أرسمك أنا؟

ماذا لو كنت المرأة التي لا ترسم إلا باليد اليسرى ، تلك التي لم تعد يدي؟

خطر ببالي مرة أن أرسمك بالقلوب . وأجلس لأتفرّج عليك عساني أكتشف أخيراً سرّك . فربما كانت هذه الطريقة الوحيدة لفهمك .

فكّرت حتى في إمكانية عرض تلك اللوحة مقلوبة في معرض . سيكون اسمها «أنت» .

سيتوقّف أمامها الكثيرون . وقد يعجبون بها ، دون أن يتعرّف أحدهم تماماً عليك .

أليس هذا ما تريدين في النهاية؟!



مرّ أكثر من أسبوع ، وأكثر من نشرة جويّة قبل أن يأتي صوتك ذات صباح دون مقدّمات :
- كيف أنت؟

اندهش القلب الذي لم يتوقع هدية صباحية كذلك. وارتبك الكلام:

- وينك؟

كان صوتك يبدو قريباً أو هكذا خيل لي. ولكنك أجبني بضحكة أعرف مراوغتها:

- حاول أن تحزرا!

أجبتك كمن يحلم:

- هل عدت إلى باريس؟

ضحكت وقلت:

- أيّ باريس.. أنا في قسنطينة. جئت هنا منذ أسبوع لأحضر زواج إحدى القريبات.. وقلت لا بدّ أن أطلبك من هنا. طمّني عنك ماذا تفعل في هذا الصيف.. ألم تسافر إلى أيّ مكان؟
اختصرت عذابي في بضع كلمات قلت:

- إني متعب.. جدّ متعب.. كيف لم تتصلي بي حتى الآن؟

فقلت وكأنك طبيب سيكتب وصفة لمريض، أو شيخ يطلب منه كتابة حجاب أو تعاويذ سحرية:

- سأكتب لك.. والله سأكتب لك قريباً.. يجب أن تعذرني.
أنت لا تدري كم الحياة هنا مزعجة وصعبة. إنّ الواحد لا يخلو لنفسه في هذه المدينة ولو لحظة. حتى الكلام على الهاتف مغامرة بوليصة..

- وماذا تفعلين؟

- لا شيء.. أنتقل من بيت إلى آخر، ومن دعوة إلى أخرى. حتى المدينة لم أتحوّل فيها على قدمي، لقد عبرتها بالسيارة فقط..

ثم أضفت وكأنك تذكرت فجأة شيئاً هاماً:

- أندري .. أنت على حق. إن أجمل ما في قسطنطينة، جسورها لا
غير. لقد ذكرتكَ وأنا أعبرها ..
كنت أودّ تلك اللحظة لو سألتكَ «هل تحبّيني؟»، ولكنني سألتكَ
بحماسة:
- هل تحبّينيها؟
أجبتني بعد شيء من الصمت، وكأنني طرحت عليك سؤالاً
يستدعي التفكير:
- ربما بدأت أحبّها ..
قلت:
- شكراً ..
ضحكت .. قلت وأنت تنهين المكالمة:
- أيّها الأحق .. لن تتغيّر!



«المرء يفتح شباكهُ لينظر إلى الخارج .. ويفتح عينه لينظر إلى
الباطن .. وما النّظر سوى تسلُّقك الجدار الفاصل بينك وبين
الحرية ..»
في ذلك الصباح، أشعلت سيجارة صباحيّة على غير عاداتي.
وجلست على شرفتي أمام فنجان قهوة، أتأمل نهر السين، وهو يتحرّك
ببطء تحت جسر ميرابو.
كانت زرقته الصفيّة الجميلة، تستفزّني ذلك الصباح دون مبرّر.
تذكرني فجأة بالعيون الزرق التي لا أحبّها.
أترى لأنّه لا نهر في قسطنطينة .. أعلنت العداء على هذا النهر؟
نهضت دون أن أكمل سيجارتي. كنت فجأة على عجل.

فليكن.. عفوك أيها النهر الحضاري. عفوك أيها الجسر التاريخي. عفوك صديقي (أبولينير). هذه المرة أيضاً سأرسم جسراً آخر غير هذا.

كنت هذه المرة ممتلئاً بك، بصوتك القادم من هناك، ليوظ من جديد تلك المدينة داخلي.

لم أكن قد لمست الفرشاة منذ ثلاثة أشهر. وكان داخلي شيء ما على وشك أن ينفجر بطريقة أو بأخرى. كل تلك الأحاسيس والعواطف المتضاربة، التي عشتها قبل رحيلك وبعده، والتي تراكمت داخلي كقنبلة موقوتة.

وكان لا بد أن أرسم لأرتاح أخيراً.

أرسم ملء يدي.. ملء أصابعي. أرسم بيدي الموجودة وبذلك المفقودة. أرسم بكلّ تقلباتي، بتناقضي وجنوني وعقلي، بذاكرتي ونسياني. حتى لا أموت قهراً ذات صيف، في مدينة فارغة إلا من السّواح والحمام.

وهكذا بدأت ذلك الصباح لوحة لقنطرة جديدة، قنطرة سيدي راشد.

لم أكن أتوقّع يومها وأنا أبدأها، أنني أبدأ أغرب تجربة رسم في حياتي، وأنها ستكون البداية لعشر لوحات أخرى، سأرسمها في شهر ونصف دون توقّف، إلا لسرقة ساعات قليلة من النوم، أنهض منها غالباً مخطوفاً بشهية جنونية للرسم.

كانت الألوان تأخذ فجأة لون ذاكرتي، وتصبح نزيفاً يصعب إيقافه.

ما كنت أنتهي من لوحة حتى تولد أخرى، وما أنتهي من حيّ حتى يستيقظ آخر، وما أكاد أنتهي من قنطرة، حتى تصعد من داخلي أخرى..

كنت أريد أن أرضي قسنطينة حجراً.. حجراً، حجراً..
جسراً.. حياً.. حياً، كما يرضي عاشق جسد امرأة لم تعد له.
كنت أعبرها ذهاباً وإياباً بفرشاتي، وتأنّي أعبيها بشغاهي. أقبل
ترايبها.. وأحجارها وأشجارها ووديانها. أوزع عشقي على مساحتها
قبلاً ملوّنة. أرشها بها سوقاً.. وبخراً.. ربيعاً حتى الرق.
وكنّت أسعد وذلك القميص يلتصق بي، بعد ساعات من الالتحام
بها.

العرق دموع الجسد. ونحن في ممارسة الحبّ كما في ممارسة
الرسم، لا نبكي جسدنا من أجل آية امرأة. ولا من أجل آية لوحة.
الجسد يختار لمن يعرق.
وكنّت سعيداً أن تكون قسنطينة، هي اللوحة التي بكى لها
جسدي.

في ذلك الشهر الأخير من الصيف، كنت ماأزال أتوقّع رسالة
منك، تعطيني شيئاً من القوة والحماسة اللتين افتقدتهما خلال الشهرين
الماضيين لغيابك. عندما فاجأتني رسالة من زياد.
كانت رسائله القادمة من بيروت تدهشني دائماً حتى قبل أن
أفتحها.

كنت أتساءل كلّ مرّة، كيف وصلت هذه الرسالة إلى هنا؟ من أيّ
مخيم أو من أيّة جبهة، تحت أيّ سقف مدمر يكون قد كتبها؟ أيّ
صندوق أودعها، وكم من ساعي بريد تناوب عليها حتى تصل هنا،
داخل صندوق بريدي.. بالحيّ السادس عشر بباريس؟
كنت أعاملها دائماً بحبّ خاص. كانت تذكّرني بزمان حرب
التحرير، يوم كنّا نبعث الرسائل لأهلنا مهزّبة تحت الثياب.
كم من الرسائل لم تصل، وماتت مع أصحابها! وكم من الرسائل

وصلت بعد فوات الأوان . هنالك قصص تصلح لأكثر من رواية .
آخر رسالة لزياد كانت تعود لما يقارب السنة .

كان يحدث أن يكتب لي هكذا دون مناسبة ، رسائل مطوّلة
أحياناً ، وموجزة أحياناً أخرى ، كان يسميها «إشعار بالحياة» .
في البدء ضحكت لهذه التسمية التي يريد أن يخبرني بها فقط أنه
ما زال على قيد الحياة .

بعدها أصبحت أخاف صمته الطويل ، وانقطاع رسائله . فقد كان
يحمل لي احتمال إشعار بشيء آخر .
هذه المرة ، كان يريد أن يخبرني أنه قد يحضر إلى باريس في بداية
أيلول . وأنه ينتظر جواباً سريعاً مني ليتأكد من وجودي في باريس في
هذه الفترة .

فاجأني رسالته . . أسعدتني وأدهشتني .
ذهب تفكيرِي إليك وقلت «طويل عمر هذا الرجل . . ما كدت
أذكره معك حتى حضر» . ثم تساءلت تراك قرأت أشعاره؟ وهل
أعجبتك؟ وماذا سيكون ردّ فعلك إذا قلت لك إنه سيحضر إلى
باريس ، أنت التي خفت أن يكون قد مات ، وأبدت اهتماماً بقصّته؟
كان الصيف ينسحب تدريجياً . وكنت أستعيد توازني تدريجياً
كذلك .

لقد أنقذتني تلك اللوحات من الانهيار . كان لا بدّ أن أرسمها
لأخرج من تلك المطبات الجنونية التي وضعت عليها قدمي معك .
كنت قد فقدت كثيراً من وزني . ولكن لم يكن ذلك يعني . أو
ربّما لم أكن وقتها لأنتبه له ، بعدما أصبحت أنظر إلى اللوحات ، وأنسى
أن أنظر إلى نفسي في مرآة .
كنت أعتقد أن الذي خسرتَه من وزن في أيام ، هو الذي ربحته

من مجد إلى الأبد. ولذا كان يحلو لي أن أتأمل نزيغي وجنوني معلقاً
أمامي : إحدى عشرة لوحة لم تعد تكفيها جدران البيت.
وربما جاء تعلقي بها، كذلك، لكوني كنت أدري وأنا أضع
فرشاتي لآخر مرة وأنا أنهي منها، أنه قد تمرّ عدة أشهر قبل أن أشعر
برغبة جديدة في الرسم.

فقد كنت فرغت مرة واحدة من ذاكرتي. . وارتحت.
كنّا على أبواب أيلول. وكنت سعيداً أو ربّما في حالة ترقّب
للسعادة.

ستعودين أخيراً. . كنت أنتظر الخريف كما لم أنتظره من قبل.
كانت الثياب الشتوية المعروضة في الواجهات تعلن عودتك. اللوازم
المدرسية التي تملأ رفوف المحلات، تعلن عودتك.
والريّح. . والسماء البرتقالية. . والتقلبات الجوية. . كلّها كانت
تحمل حقائبك.
ستعودين. .

مع النوء الخريفيّ، مع الأشجار المحمرة، مع المحافظ المدرسية.
ستعودين. .
مع الأطفال العائدين إلى المدارس، مع زحمة السيارات، مع
مواسم الإضرابات، مع عودة باريس إلى ضوضائها.
مع الحزن الغامض. . مع المطر.
مع بدايات الشتاء. . مع نهايات الجنون.
ستعودين لي. . يا معطفي الشتويّ. . يا طمأنينة العمر المتعب. .
يا أحطاب الليالي الثلجية.

أكنت أحلم؟. كيف نسيت تلك المقولة الرائعة لأندرية جيد ولا
تتّى أفرحك! كيف نسيت نصيحة كهذه؟

كنت في الواقع امرأة زوينة . تأتي وترحل وسط الأعاصير والدمار .
كنت معطفاً لغيري وبرداً لي .
كنت الأخطاب التي أحرقتني بدل أن تدفني .
كنت أنت .
و كنت أنتظر أيلول إذن . .
أنتظر عودتك لتحدث أخيراً بصدق مطلق . ماذا تريد مني
بالتحديد . ومن أكون أنا بالنسبة إليك . . وما اسم قصتنا هذه ؟
أخطأت مرة أخرى .
لم يكن الوقت للسؤال ولا للجواب . كان وقتاً لجنون آخر .
كنت أنتظر الأمان . وجئت ، زوينة صادفت زوينة أخرى ، اسمها
زياد . .
وكانت الأعاصير .

لم يتغير زياد منذ آخر مرّة رأيته فيها، منذ خمس سنوات بباريس.
ربّما أصبح فقط أكثر امتلاءً، أكثر رجولةً مع العمر، منذ ذلك الوقت
الذي زارني فيه لأوّل مرّة في الجزائر سنة ١٩٧٢ في مكنتي. يوم كان
شاباً فارعاً بوزن أقلّ، وربّما بهموم أقلّ أيضاً.

مازال شعره مرتّباً بفوضويّة مهذّبة. وقميصه المتمرّد الذي لم يتعوّد
يوماً على ربطة عنق، مفتوحاً دائماً بزِرّ أو زُرّين. وصوته المميّز دفئاً
وحزناً، يوهمك أنّه يقرأ شعراً، حتّى عندما يقول أشياء عاديّة. فيبدو
وكأنه شاعر أضاع طريقه وأنّه يوجد خطأ حيث هو.

في كلّ مدينة قابلته فيها، شعرت أنّه لم يصل بعد إلى وجهته
النهائيّة، وأنّه يعيش على أهبة سفر.

كان حتّى عندما يجلس على كرسيّ يبدو جالساً على حقائبه. لم يكن
يوماً مرتاحاً حيث كان، وكأنّ المدن التي يسكنها محطّات ينتظر فيها
قطاراً لا يدرى متى يأتي.

ها هوذا. . كما تركته، محاطاً بأشياءه الصغيرة ومحمّلاً بالذاكرة،
ومرتدياً سروال الجينز نفسه، كأنه هوّيته الأخرى.

كان زياد يشبه المدن التي مرّ بها. فيه شيء من غزّة، من عمّان. .
ومن بيروت وموسكو. . ومن الجزائر وأثينا.

كان يشبه كلّ من أحبّ. فيه شيء من بوشكين، من السيّاب. .
من الحلاج، من ميشيما. . من غسان كنفاني. . ومن لوركا
وتبودوراكيس.

ولأنني كثيراً ما قاسمت زياد ذاكرته، حدث أن أحبت كل ما
أحب ومن أحب، دون أن أدري.

كنت في حاجة إليه في تلك الأيام.

شعرت وأنا أستقبله، أنني افتقدته طوال هذه السنوات دون أن
أدري، وأنني بعده لم ألتق بشخص يمكن أن أدعوه صديقاً.

ها هو زياد. باعدتنا الأيام وبعادتنا القارّات. ووحدها قناعاتنا
القديمة ظلّت تجمعنا.

ولذلك لم تنزل في القلب مكانته الأولى. فلم يحدث لزياد أن فقد
احترامي لسبب أو لآخر خلال كلّ هذه السنوات.

أليس هذا أمراً نادراً هذه الأيام؟

جاء زياد..

واستيقظ البيت الذي ظلّ مغلقاً لشهرين في وجه الآخرين، حتّى
في وجه كاترين نفسها.

راح زياد يملاّه بحضوره، بأشياء وفوضاه، بضحكته العالية
أحياناً، وبحضوره السريّ الغامض دائماً. فأكاد أشكره فقط، لأنّه
أشّرع نوافذ هذا البيت، واحتلّ غرفة من غرفه.. وربما احتلّه كلّ.

عدنا تلقائياً إلى عاداتنا القديمة التي تعود إلى خمس سنوات، عندما
زارني لأول مرّة في باريس.

رحنا من جديد إلى المطاعم نفسها تقريباً. جلسنا وتحدّثنا في
الموضوعات نفسها تقريباً، فلا شيء تغرّ من ذلك الحين. لم يسقط نظام
عربيّ واحد من تلك الأنظمة التي كان زياد يراهن على سقوطها منذ
عرفته. لم يحدث أيّ زلزال سياسي هنا أو هناك، ليغيّر خريطة هذه
الأمّة.

وحده لبنان أصبح وطناً للزلازل والرّمال المتحرّكة. ولكن من تراه
سيبتلع في النهاية؟

كان هذا هو السؤال الذي حاولنا أن نتنبأ به بأكثر من جواب.
وكان النقاش يصبّ في النهاية دائماً في القضية الفلسطينية، وفي
خلافات فصائلها، والمعارك التي حدثت بين عناصرها في لبنان،
والتصفيات الجسدية التي راح ضحيتها أكثر من اسم فلسطيني في
الخارج.

كان حديث زياد ينتهي كالعادة بشتم تلك الأنظمة التي تشتري
مجدها بالدم الفلسطيني، تحت أسماء مستعارة كالرفض والصمود...
والمواجهة. فينتعها في فورة غضبه بكلّ النعوت الشرقية البذيئة، التي
أضحك لها وأنا أكتشف بعضها لأول مرة.

وأكتشف أيضاً أن لكلّ ثوار قاموسهم الخاص، الذي تفرزه
ثورته ومعايشتهم الخاصة، فأستعيد بحنين، مفردات أخرى لزمن
آخر وثورة أخرى.

ربّما كان هذا الأسبوع هو أجل الأيام التي قضيتها مع زياد، والتي
حاولت بعد ذلك ولعدة سنوات ألا أذكر غيرها، حتى لا أشعر بالمرارة
ولا بالحسرة على كلّ ما عشته بعدها عن خطأ أو عن صواب.
كلّ ما مرّ بي من ألم... من غيرة ومن صدمات، وأنا أضعكها ذات
يوم هكذا وجهاً لوجه، دون أية مقدّمات أو توضيحات خاصة...
له قلت: «ستغذى غداً مع صديقة كاتبة... لا بدّ أن أعرفك
عليها...».

لم يبدّ عليه اهتمام خاصّ بكلامي. قال على طريقته الخاصة وهو
يعود لقراءة جريدته: «أنا أكره النساء عندما يحاولن ممارسة الأدب
تعريضاً عن ممارسات أخرى... أتمنى ألا تكون صديقتك هذه عانساً،

أو امرأة في سنّ اليأس.. فأنا لا صبر لي على هذا النوع من النساء!«
لم أجه. رحت أتعَمّق في فكرته.. وأبتسم!

على الهاتف قلت لك: «تعالى غداً للغداء في ذلك المطعم نفسه.. فأنا
أحمل لك مفاجأة لا تتوقعينها..»
قلت:

«إنها لوحتي.. أليس كذلك؟»
أجبتك بعد شيء من التردد: «لا.. إنها شاعراً»

التقيتُها إذن..

ويمكن أن أقول هذه المرة أيضاً:

«الذين قالوا وحدها الجبال لا تلتقي أخطأوا. والذين بنوا بينها
جسوراً لتتصافح دون أن تنحني، لا يفهمون شيئاً في قوانين الطبيعة.
الجبال لا تلتقي إلا في الزلازل والهزّات الأرضية الكبرى. وعندها
لا تتصافح، بل تتحوّل إلى تراب واحد»..

التقيتُها إذن.. وكان كلاهما بركاناً.. فأين العجب، إذا كنت هذه
المرّة أيضاً أنا الضحية!

مازلت أذكر ذلك اليوم..

وصلت متأخرة بعض الشيء، وكنت مع زياد قد طلبنا مشروباً في
انتظارك.

ودخلت..

كان زياد يحدثني عن شيء ما عندما صمت فجأة، وتوقفت عيناه
عليك وهو يراك تجتازين باب المطعم.

فاستدرت بدوري نحو الباب . . ورايتك تتقدمين نحونا في ثوب
اخضر . . أنيقة، مغرية، كما لم تكوني يوماً.
وقف زياد ليسلم عليك وأنت تقترين منّا. وبقيت أنا من دهشتي
جالساً. كان من الواضح أنه لم يتوقعك هكذا.
ها أنت ذي أخيراً . .

أحسست أن شيئاً ما يستمرني إلى ذلك الكرسي، وكأنّ تعب كلّ
الأسابيع الماضية، وكلّ عذابي بعدك قد نزل عليّ فجأة، ومنع رجلي
من الوقوف.

ها أنت ذي أخيراً . . أهذه أنت حقاً؟!
وقبل أن أفكر في تعريفكما ببعض، كنت قد قدّمت نفسك لزياد،
وكان هو بدوره على وشك أن يعرفك بنفسه عندما قاطعته قائلة:
- دعني أحزر . . ألسنت زياد الخليل؟
ووقف زياد مدهوشاً قبل أن يسألك:
- كيف عرفت؟

استدرت نحوي عندئذٍ وكأنّك تكتشفين وجودي هناك، فوضعت
قبلتين على خدي وقلت وأنت توجّهين الحديث إليه:
- أنت تملك شبكة إعلان قويّة في شخص هذا الرجل . .
ثمّ سألتني وأنت تتفحصين ملامحي:
- لقد تغيّرت بعض الشيء . . ما الذي حدث لك في هذه
العطلة؟

تدخل زياد ليقول ساخراً:

- لقد رسم إحدى عشرة لوحة في شهر ونصف . . إنّه إنجمن
شيئاً غير هذا. نسي حتى أن يأكل ونسي أن ينام . . اعتقد أنني لو لم

أحضر إلى باريس لمت هذا الرجل الذي أمامك جوعاً وإعياءً وسط
لوحاته.. كما لم يعد الرسّامون يموتون اليوم!

وبدل أن تسأليني سألت زياد بشيء من الذعر، وكأنك كنت
تخافين أن أكون قد رسمت إحدى عشرة نسخة من صورتك:
- ماذا رسم؟

أجابك زياد بابتسامة وجهها إليّ:

- لقد رسم قسنطينة.. لا شيء سوى قسنطينة.. وكثيراً من
الجبور..

صحت وأنتِ تسحين كرسيّاً وتجلسين:

- لا.. أرجوكم لا تحدّثوني عن قسنطينة مرّة أخرى.. إنني عائدة
توّأ منها. إنّها مدينة لا تطاق.. إنّها الرصفة المثالية لكي يتحرر المرء أو
يصبح مجنوناً!

ثم وجهت كلامك إليّ:

- متى تشفى أنت من هذه المدينة؟

كان يمكن أن أقول لك لو كنّا على انفراد «يوم أشفى منك!»

ولكن زياد أجاب ربّما نيابة عني:

- نحن لا نشفى من ذاكرتنا يا أنستي.. ولهذا نحن نرسم..

ولهذا نحن نكتب.. ولهذا يموت بعضنا أيضاً..

رائع زياد.. كان مدهشاً وشاعراً في كلّ شيء.

كان يقول شعراً دون جهد. ويحب ويكره دون جهد. ويغري

دون جهد.

كنت أنظر إليه وهو يسألك «أنتِ جزائريّة إذن؟». ولا أستمع لما

تقولينه له.

بدا لي في تلك اللحظة أنّ الحديث كان يدور بينكما فقط، وأنّي لم أقل كلمة واحدة منذ قدومك.

كنت طرفاً فقط في تلك الجلسة الغريبة للقدر.

كنت أنظر إليك.. وأبحث في تفاصيلك عن شرح لما حلّ بي.

سألتك يوماً: «ما هو أجل شيء فيك؟»

ابتسمت بإيماء غامض ولم تجيبني.

لم تكوني الأجل، كنت الأشهى. فهل هناك من تفسير للرغبة!

ربما كان زياد يشبهك أيضاً..

اكتشفت ذلك مع مرور الأيام، وأنا أنظر إليكما وأنتما تتحدثان

أمامي كلّ مرّة.

كان أيضاً شيء من السحر الغامض فيه.. من الجاذبية التي لا

علاقة لها بالجمال. وكانت فكرة تشابهكما أو تطابقكما هذه تزعجني..

بل وأزعجتني ربّما منذ اللحظة الأولى. عندما نبهتني إلى تدهور

صحتي وشحوب لوني، بينما كنت أراكما أمامي في صحّة وتألّق مثير

للغيرة.

ترى بدأت الغيرة تتسلّل إليّ اللحظة.. وأنا أكتشف أنّي لست

سوى شبح بينكما، ووجه حشر خطأ في لوحكما الشائنة؟

لم تنبّهي يومها أنّي وصلت إلى تلك الحالة بسببك. ولذا لم

تعذري لي، بل وأكثر من ذلك كنت تتحدّثين قليلاً إليّ.. وكثيراً

إليه.

قلت له:

- لقد أحبيت ديوانك الأخير «مشاريع للحبّ القادم»؛ لقد ساعدني

شيئاً ما على تحمّل هذه العطلة البائسة. هنالك مقاطع منه حفظتها

لفرط ما أعدت قراءتها..

ورحت تقرّأين أمام دهشة زياد:
«تربص بي الحزن لا تركيني لحزن المساء
سأرحل سيّدي
أشرعي اليوم بابك قبل البكاء
فهذي المنافي تقرّر بي للبقاء
وهذي المطارات عاهرة في انتظار
تراودني للرحيل الأخير...»
كنت أستمع إليك تقرئين شعراً لأول مرة.

كان في صوتك موسيقى لآلة لم تخلق بعد أتعرف عليها لأول مرة
في حزن نبرتلك التي خلقت في البدء للفرح.. فإذا بها عزف لشيء
آخر.
وكان زياد يستمع إليك بشيء من الدهول، وكأنه فجأة يجلس
خارج الزمن وخارج الذاكرة.
كأنه أخيراً قرّر أن يجلس على شيء آخر غير حقايبه ليستمع إليك.
وعندما سكّت.. راح يقرأ بقية تلك القصيدة وكأنه يقرأ لك
طالعه لا غير:

«وما لي سواك وطن
وتذكرة للتراب.. رصاصة عشق بلون كفن
ولا شيء غيرك عندي
مشاريع حب.. لعمر قصيرا»
في تلك اللحظة.. شعرت أنّ شحنة من الحزن المكهرب وربما
الحب المكهرب أيضاً قد سرت بيننا، واخترقتنا نحن الثلاثة.
كنت أحبّ زياد.. كنت مبهوراً به.. كنت أشعر أنه يسرق مني

كلمات الحزن، وكلمات الوطن، وكلمات الحب أيضاً .
كان زياد لساني، وكنت أنا يده كما كان يحلو له أن يقول .
وكنت أشعر في تلك اللحظة . . أنك أصبحت قلبي . . معاً !



كان يجب أن أتوقع كل الذي حدث .
فهل كان يمكن أن أوقف انجرافكما بعد ذلك ؟
كنت شبيهاً بذلك العالم الفيزيائي الذي يخترع وحشاً، ثم يصبح
عاجزاً عن السيطرة عليه .
كنت أكتشف بحماسة أنني صنعت قصصكما بيدي . بل وكتبتها فصلاً
فصلاً بغناء مثالي، وأتني عاجز عن التحكم في أبطالي .
كيف يمكن أن أضع أمامك رجلاً يصغرنى بأنتي عشرة سنة،
ويفوقني حضوراً وإغراءً، وأحاول أن أقيس نفسي به أمامك ؟
كيف يمكن أن أفك صلة الكلمة التي كانت تجمعكما بتواطؤ،
وأمنع كاتبة أن تحب شاعراً تحفظ أشعاره عن ظهر قلب ؟
وكيف أقنعه هو الذي ربما لم يشف بعد من حبه الجزائري
السابق، ألا يجبك أنت التي جئت لتوقظي الذاكرة، وتشرعي نوافذ
النسيان ؟

كيف حدث هذا . . وكيف أتيت بكما لأضعكما أمام قدركما . .
الذي كان أيضاً قدري !

قال لي ذلك المساء :

- إنها رائعة هذه الفتاة . . لا أذكر أنني قرأت لها شيئاً، فربما بدأت
الكتابة بعدما غادرت الجزائر حسب ما فهمت . ولكنني أعرف هذا
الاسم . . لقد سبق لي أن قرأته في مكان ما . . إنه ليس غريباً عليّ .
قلت له وقتها :

- أنت لم تقرأ هذا الاسم وإنما سمعته فقط. إنه اسم لشارع في الجزائر يحمل اسم أبيها (الطاهر عبد المولى) الذي استشهد أثناء الثورة.

وضع زياد جريدته ونظر إلى دون أن يقول شيئاً.
أحسسته ذهب بعيداً في تفكيره.

تراه بدأ أيضاً يكتشف كل المهامش المشيرة للقائكما في تلك الظروف. . . وكل التفاصيل العجيبة التي لا يمكن أن يبقى محايداً أمامها؟

شعرت برغبة في الكلام عنك أكثر.

كنت على وشك أن أحدثه عن سي الطاهر. كدت أجبره أنك ابنة قائدي وصديقي. كدت أقصّ عليه حتى قصتي العجيبة مبعك. أنت التي كان يمكن أن تكوني ابنتي، قبل أن تصبحي فجأة بعد ربع قرن حبيبي!

كدت أحكي له قصة لوحتي الأولى (حنين) وتصادفها مع ميلادك. وقصة لوحاتي الأخيرة وعلاقتها بك. . . وسبب تدهور صحتي وجنوني الأخير. . .

كدت أشرح له سرّ قسنطينة.

أصمتُ لأحتفظ بسرّك لي كما نحتفظ بسرّ كبير نتلذذ بحمله وحدنا؟ أكان لحبك نكهة العمل السريّ ومتعته القاتلة؟

أم تراني كنت أخجل أن أعترف له دون أن أدري أنك حبيبي، هو الذي لم أخجل منه يوماً والذي تقاسمت معه كل شيء؟
الأنك حبّ لم يُخلق ليقتسم، قرّرت منذ البدء أن تكوني لأحدنا. . . فقط؟

أعن صداقة أو حمافة، كنت أريد أن أمنحه فرصة حبّك الذي قد

يكون حبه الأخير، وأياماً من السعادة المسروقة من الموت المحتمل الذي كان يتربص به في كل حين . . وفي كل مدينة؟

ماذا جاء زياد يفعل في باريس؟ من الواضح أنه لم يأت في زيارة سياحية . ربما جاء ليقوم ببعض الاتصالات السرية، يلتقي ببعض الجهات . . يتلقى أو يعطي تعليمات لا أدري . . ولكنه كان قلقاً شيئاً ما . كان يتحاشى أخذ مواعيده على الهاتف، وكان لا يغادر البيت بمفرده إلا نادراً .

ولم أطرح عليه يوماً أي سؤال حول سبب زيارته لباريس . كان هناك شيء من بقايا فترة كفاحية في حياتي، تجعلني أحترم أسرار الآخرين عندما يتعلق ذلك بقضايا نضالية .

كنت أحترم سره، وكان يحترم صمتي . ولهذا نقلنا سرنا وصمتنا حتى قصتنا المشتركة معك .

أكان بحدسه المفرط يتوقع شيئاً ما بيني وبينك؟
أم تراه أمام تظاهري باللامبالاة، لم يتوقع وجود حب ملتهب كهذا في أحشائي .

وكيف يمكن أن يتوقع ذلك، وأنا أنسحب تدريجياً على رؤوس الأصابع، لأترك له المجال تدريجياً لمزيد من التوسع؟
كنت أدعه يجيب على الهاتف نيابة عني . يتحدث إليك ويدعوك إلى البيت نيابة عني .

وكنت تأتين، وأحاول ألا أسأل نفسي لمن جئت . . ولمن تشارك تجملت؟

ربما كان أكثر الأيام وجعاً يوم زرت البيت بعد ذلك لأول مرة .
كان لا بد أن ينهك زياد للوحاتي لتنتهي إليها . رحت تنتقلين

من غرفة إلى أخرى وكأنك تعبرين غرف بيتك . لم يستوقفك ذلك
الممر، ولا ذكرى قبلة قلبت حياتي رأساً على عقب .

أكانت تلك اللحظة هي الأكثر ألماً، أم عندما فتحت (خطأ؟)
باباً، فقلت لك موضحاً «هذه غرفة زياد» . فوقفت أمام ذلك الباب
نصف المفتوح، لحظات بدت لي أطول مما قضيته من وقت أمام كل
لوحاتي مجمعة .

قلت وأنت تعودين إلى الصالون وتجلسين على تلك الأريكة
نفسها :

- لا أفهم أن تكون رسمت كل هذه الجسور . . جنون هذا . .
كان يكفي لوحة أو اثنتان . .

أعن قناعة أم عن لياقة تطوّر زياد لبجيبك نيابة عني، بعدما
لاحظ وقع كلماتك عليّ، ولاحظ تلك الخيبة التي أفقدتني صوتي :
- أنت لم تتأملّي هذه اللوحات . . لقد حكمت عليها من النظرة
الأولى . . وفي الرسم، اللوحات لا تتطابق وإن تشابهت . هنالك أرقام
سرّية تفتح لغز كل لوحة . . شيء شبيه بـ (الكود) لا بدّ من البحث
عنه للوصول إلى ذلك الإشعار بشيء ما يريد أن يوصله إلينا
صاحبها . .

لو مررت بنفس هذه السرعة أمام لوحة (لاعبي الورق) الشهيرة،
لما لاحظت سوى لاعبين جالسين أمام طاولة، ولما انتهت إلى كونها
يسكان بأوراق بيضاء يخفيانها على بعض . إنّ ما أراد أن ينقله لنا
«سيزان» ليس مشهداً للعبة الورق بل مشهد من التروير المتفق
عليه . . وربما المتوارث مادام أحد اللاعبين أكبر من الثاني سنّاً .

وقبل أن يواصل زياد كلامه قاطعته قائلة :

- من أين تعرف كل هذا .. هل أنت خبير أيضاً في الرسم .. أم
أن عدوى خالد انتقلت إليك؟

ضحك زياد واقترب منك بعض الشيء وقال:

- ليس هذا ميدان خبرتي على الإطلاق .. إنه ترف ليس في متناول
رجل مثلي .. بل إن جهلي في الفن سيفاجئك .. أنا لا أعرف غير قلة
قليلة من الرسّامين اكتشفت أعمالهم عن طريق المصادفة .. وفي
الكتب المختصة غالباً .. ولكنني أحب بعض المدارس الحديثة التي
تطرح أسئلة من خلال أعمالها ..

الفن للفن لا يقنعني، والجو كندة المحترمة لا تهزني. أحب الفن
الذي يضعني في مواجهة وجودية مع نفسي، ولهذا أعجبت بلوحات
خالد الأخيرة .. إنها أول مرة يدهشني فيها حقاً.

لقد توحد مع هذا الجسر لوحة بعد أخرى في فرح ثم في حزن
متدرج حتى العتمة، وكأنه عاش بتوقيته يوماً أو عمراً كاملاً ..

في اللوحة الأخيرة لا يظل بادياً من الجسر سوى شبحه البعيد تحت
خيط من الضوء. كل شيء حوله يختفي تحت الضباب فيبدو الجسر
مضيئاً، علامة استفهام معلقة إلى السماء. لا ركائز تشد أعمدته إلى
أسفل، لا شيء يحده على يمينه ولا على يساره، وكأنه فقد فجأة
وظيفته الأولى كجسر!

أترى بداية الصباح عندئذ أم بداية الليل؟ أتراه يحتضر أم يولد مع
خيط الفجر؟ إنه السؤال الذي يبقى معلقاً كالجسر لوحة بعد أخرى،
مطارداً بلعبة الظل والضوء المستمر، بالموت والبعث المستمر، لأن أي
شيء معلق بين السماء والأرض هو شيء يحمل موته معه.

كنت استمع إلى زياد مدهوشاً، وربما اكتشفت شيئاً لم يخطر ببالي
لحظة رسم كل هذه اللوحات.

أحق ما قاله؟

من المؤكد أن زياد كان يتحدث عن لوحاتي خيراً مني. مثل كل النقاد الذين يعطونك شروحاً مذهشة لأعمال فنية قمت بها أنت بكل بساطة، دون أية تساؤلات فلسفية، فيضحكونك إذا كنت فناناً صادقاً وبسيطاً لا تهتمك الرموز والنظريات المعقدة في الفن. وقد يملأونك غروراً وجنوناً، إذا كنت مثل الكثيرين الذين يأخذون أنفسهم مأخذ الجد، ويبدأون عندئذ بالتنظير والتبشير بمدرسة فنية جديدة!

كان في تحليل زياد حقيقة هامة أدهشتني ولم أنتبه لها من قبل. لقد كنت أعتقد وأنا أرسم تلك الجسور أنني أرسمك، ولم أكن في الواقع أرسم سوى نفسي. كان الجسر تعبيراً عن وضعي المعلق دائماً ومنذ الأزل. كنت أعكس عليه قلقي ومخاوفي ودوايري دون أن أدري.

ولهذا ربما كان الجسر هو أول ما رسمت يوم فقدت ذراعي. فهل تعني كل هذه الجسور، أن لا شيء تغير في حياتي منذ ذلك الحين؟

ربما كان هذا هو الأصح. . ولكن ليس هذا كل شيء. وقد كان يمكن لزياد أن يفلسف أيضاً رمز الجسر بأكثر من طريقة. . ولكن من المؤكد أنه لن يذهب أبعد من الرموز المعروفة، لأن رموزنا تأخذ بعدها من حياتنا فقط، وزياد في النهاية لم يكن يعرف كل ثنايا ذاكرتي.

ولم يكن زار تلك المدينة التي تعرف وحدها سر الجسور! تذكرت حين ذاك رساماً يابانياً معاصراً، قرأت يوماً أنه قضى عدة سنوات وهو لا يرسم سوى الأعشاب. وعندما سُئل مرة لماذا

الأعشاب دائماً. . قال: «يوم رسمت العشب فهمت الحقل. . . ويوم فهمت الحقل أدركت سرّ العالم. . .».

وكان على حقّ. لكلّ مفتاحه الذي يفتح به لغز العالم. . . عالمه. همنغواي فهم العالم يوم فهم البحر. وألبرتو مورافيا يوم فهم الرغبة، والحلاج يوم فهم الله، وهنري ميلير يوم فهم الجنس، وبودلير يوم فهم اللعنة والخطيئة.

وفان غوغ. . تراه فهم حقارة العالم وسادّيته، عندما كان يجلس محموراً معصوب الرأس أمام تلك النافذة التي لم يكن يرى منها. . . غير حقول عبّاد الشمس الشاسعة فلا يملك أمام إرهابه إلّا أن يرسم أكثر من لوحة للمنظر نفسه؟

لأنّ يده المحمومة لم تكن تقدر على رسم أكثر من تلك الزهور البسيطة الساذجة.

ولكنّه. . كان يواصل الرسم برغم ذلك، لا ليعيش من لوحاته وإنّما لينتقم لها ولو بعد قرن.

ألم يقل لأخيه تلك النبوءة التي حطّمت بعدها كلّ الأرقام القياسيّة في ثمن لوحة (عبّاد الشمس): «سيأتي يوم يفوق فيه ثمن لوحاتي. . . ثمن حياتي».

تساءلت وأنا أصل إلى هذه الفكرة: هل الرسّامون أنبياء أيضاً؟. ثمّ رحت أربط هذه الفكرة بتعليق زياد «كلّ شيء معلق بحمل موته معه. . .»

وإذا بي أسأل نفسي، آية نبوءة تحمل كلّ اللوحات التي رسمتها في درجة متقدّمة من اللاوعي والجنون؟ أمّ موت أم ميلاد تلك المدينة؟ أصمود جسورها المعلقة منذ قرون في وجه أكثر من نشرة جويّة وأكثر من ريح مضادة؟ أم سقوطها جميعاً في دمار هائل مفاجئ، في تلك

اللحظة التي لا يفصل فيها بين الليل والنهار سوى خيط باهت
للغفلة.. غفلة التاريخ!

كنت تحت تأثير تلك الرؤية المذهلة، عندما جاء صوتك لينزعني
من هواجسي.

قلبي وأنت توجهين حديثك إلي:

- أتدري خالد.. إن من حسن حظك أنك لم تزر قسطنطينة منذ
عدة سنوات.. وإلا لما رسمت من وحيها أشياء جميلة كهذه.. يوم
تريد أن تشفى منها عليك أن تزورها فقط.. ستكف عن الحلم!
طبعاً، لم أكن أدري آنذاك، أنك ذات يوم ستكفلين شخصياً
بقتل ذلك الحلم، وتوصليني في ما بعد حتى أعتاب قسطنطينة مكرهاً.
تدخل زياد ليقول كلاماً جاء هذه المرة أيضاً سابقاً لوقته..
كالنبوءة.

قال بشيء من العتاب المهذب:

- لماذا تصرّين على قتل حلم هذا الرجل؟.. هنالك أحلام غموت
على يدها، دعيه سعيداً ولو بوهمه..
لم تعلّقي على كلامه، وكأن أحلامي لم تعد تهتمك بالدرجة
الأولى.. سألته فقط:

- وأنت.. ما هو حلمك؟

قال:

- ربما مدينة ما أيضاً..

- هل اسمها الخليل؟

قال مبتسماً:

- لا.. نحن لا نحمل دائماً أسماء أحلامنا.. ولا نتسب لها.
اسمي الخليل ومدينتي اسمها غزّة.

- ومنذ متى لم تزورها؟

- منذ حرب حزيران.. أي منذ خمس عشرة سنة تماماً..

ثم أضاف:

- يضحكني الذي يحدث لخالد اليوم، كان يقنعني في الماضي يوم كنا في الجزائر بالزواج والعيش هناك نهائياً. لم يكن يفهم أن تطاردني تلك المدينة إلى درجة إخراجي من كل المدن. وها هو الآن يصل إلى كلامي من تلقاء نفسه، ويصبح بدوره مسكوناً بمدينة، مطارداً بها.

العجيب أنه لم يحدثني عنها أي مرة.. وكأنه لم يكن يوليها اهتماماً من قبل. هنالك أشياء شبيهة بالسعادة لا نتبه لوجودها إلا بعدما نفتقدها!

ربما كان ذلك ما حدث لي.. فقد كنت أعني تدريجياً أنني كنت سعيداً معك قبل تلك العطلة الصيفية.. وقبل مجيء زياد.. وقبل أن يتحوّل حبنا من عشقٍ ثنائيٍّ عنيفٍ إلى حبٍّ مثلثٍ الأطراف كل زواياه متساوية، ومن لعبة شطرنج يحكمها لاعبان متقابلان، ويملاً الحب فيها كل المرتبعات السوداء والبيضاء، بقانون المدّ والجزر العشقي، إلى لعبة طاولة، نجلس حولها نحن الثلاثة، بأوراقنا المقلوبة، وأحزاننا المقلوبة، بنبضات قلبنا المشتركة، بذاكرتنا المشتركة، نتربّص ببعضنا ونخلق قوانين جديدة للحب.. نزور الأوراق التي نملك النسخ نفسها منها، نحتال على منطق الأشياء لا ليربح أحدنا الجولة، وإنما لكي لا يكون بيننا من خاسر، وحتى تكون نهايتنا أقل وجعاً من البداية.

كان واضحاً أن زياد كان يشعر أنني أحبك بطريقة أو بأخرى.

ولكنه لم يكن يعني جذور ذلك الحب ومداه . ولذا كان ينساق إلى حبك دون تفكير ودون شعور بالذنب .

لم يكن لأحدنا وعي كامل لينتبه إلى أن العشق اسم ثنائي لا مكان فيه لطرف ثالث . ولذا عندما حوّلناه إلى مثلث ، ابتلعنا كما يبتلع مثلث «برمودا» كلّ البواخر التي تعبّر خطأ ؟ كيف وصلنا إلى هنا .

أيّ ربح حملتنا إلى هذه الديار الغريبة عن طقوسنا؟ أيّ قدر بعثنا ثمّ أعاد جمع أقدارنا المتناقضة المبعثرة ، وأعمارنا وتواريخنا المتفاوتة ، ومعاركنا وأحلامنا المتباعدة ، وأوقفنا هنا ، أطرافاً في معركة نخوضها مع بعضنا ضدّ بعضنا دون وعي ؟

بعد أشهر قرأت بين أوراق زياد خاطرة ، أدهشتني بتطابقها مع أحاسيسي هذه ، كتب فيها :

«عشقنا جولة أخرى خسرناها في زمن المعارك الفاشلة ، فأني الهزائم أكثر إيلاماً إذن ؟

مقدراً كان كلّ الذي حصل .

شعبيّن كنّا لأرض واحدة .

ونبيّين لمدينة واحدة .

وها نحن قلبان لامرأة واحدة .

كلّ شيء كان معدّاً للآلم . (هل يسعنا العالم معاً؟) .

ها نحن نتقاسم كبرياءنا رغيفاً عربياً مستديراً كجرحنا . رصاصة

مستديرة الرأس . . أطلقوها على مربّع أحمر ، يتدرّب فيه القدر على

إطلاق الرصاص على دوائر سوداء تصغر تدريجياً كالدوّار . . حتّى

تصل مركز الموت . .

حيث الرصاصة لا تخطئ .

حيث الرصاصة لا ترحم .
وحيث سيكون قلب أحدنا . .

كان زياد في تلك الأمسيات الشتائية، يسهر أحياناً في غرفته ليكتب . وكنت أرى في ذلك علامة لا تخطئ . .
لا بد أن يكون عاشقاً ليعود إلى الكتابة بهذه الشراهة، هو الذي لم يكتب شيئاً منذ عدة سنوات .
كنت أبتسم أحياناً، وصوت موسيقى خافتة ينبعث من غرفته حتى ساعة متأخرة من الليل .
كأن زياد كان يريد أن يملا رثييه بالحياة، أو كأنه لم يكن يثق بها تماماً . ويخاف إن هوانم أن تسرق منه شيئاً .
كان يستمع دائماً إلى الأشرطة نفسها التي لا أدري من أين أحضرها، والتي لم أكن مولعاً بها أنا على وجه التحديد، كالموسيقى الكلاسيكية . . وشريط ليفالدي وآخر لتبودوراكيس .
وكنت أقول لنفسي وأنا أقضي أحياناً سهرة كاملة بمفردي أمام التلفزيون :

«إنه يعيش جنونه أيضاً . هنالك جنون الصيف . . وهنالك جنون الشتاء . انتهى جنوني وبدأ جنونه!» .
ولكن . . كيف يمكن لي أن أعرف درجات جنونه هذا؟ من أين آتي بمقياس للزلزال، أعرف منه ما يحدث في أعماقه بالتحديد؟
كيف يمكن ذلك، ونوباته كتابات سرية لا يدري بها غير الورق .
بينما يعلّق جنوني على الجدران إحدى عشرة لوحة تشهد ضدي . . وتفضحني .

فهل انتهى جنوني حقاً؟

لا.. أصبح فقط جنوناً داخلياً لا علاقة له بالإبداع . أصبح
أحساسيس مرضيةً أبدرها هباءً في الغيرة واليأس .
كان إذا غير زياد بدلته، شعرت أنه يتوقع قدومك، وإذا جلس
ليكتب فهو يكتب لك، وإذا ترك البيت فهو على موعد معك . .
نسيت في زحمة غيبي، حتى الأسباب التي جاء من أجلها زياد إلى
باريس، ولقاءاته . . وهواجسه الأخرى .

.. ثم جاء ذلك السفر الذي كدت أنساه .
ربما كانت تلك أكثر تجاربي ألماً على الإطلاق . فقد كان علي أن
أترككما عشرة أيام كاملة معاً في مدينة واحدة . وربما غالباً في بيت
واحد هو بيتي . . نظراً لصعوبة لقاءكما خارج البيت .

سافرت يومها وأنا أحاول أن أقنع نفسي أنها فرصة لنا جميعاً،
لنضع شيئاً من الترتيب في علاقتنا، وأنه كان لا بدّ لأحدنا أن يتغيّب
لتحسم هذه الأمور الغامضة بيننا نهائياً .
طبعاً، لم أكن مقتنعاً في أعماقي بهذا المنطق، أو على الأقل بهذا
القدر العنيد الذي جعل القرعة تقع عليّ .

فمن الواضح أن القدر كان منحازاً لكما . وكان ذلك يؤلني كثيراً .
ولكن ما الذي كان أشدّ إيلاماً لي :
أن أدري أنك مع رجل آخر، أم أن يكون ذلك الرجل هو زياد
لا سواه، أم أن تتمّ خيانتني في بيتي في غرف لم أتمتع بك فيها؟
إلى أيّ حدّ ستذهبن معه . . وإلى أي حدّ سيذهب هو معك؟
وهل ستوقفه ذاكرتنا المشتركة . . وكلّ ما جمعنا يوماً من قيم؟
قلت لك الكثير عن زياد . . ولم أقل لك الأهم .
كان زياد يوماً خلّيتي السريّة، أوراق انتهائي السريّة .

كان هزائمي وانتصاراتي، حججي وقناعاتي، كان عمراً سرّياً
لعمري آخر. فهل سيخونني زياد؟

كنت قد بدأت أعتب عليه، وربما أحقد عليه مسبقاً.
نسيت في جنون غيرتي، أنني لم أفعل شيئاً غير ذلك معك، أنا
الذي تنكرت أيضاً لسي الطاهر، لرجل كان يوماً قائدي، وكان يوماً
صديقي. . لرجل أودعك عندي وصية ذات يوم ومات شهيداً.
من منا الأكثر خيانة إذن؟

هو الذي قد يضع أحلامه ورغباته حيز التنفيذ. . أم أنا الذي لم
أنفذه لأنني لم أجد فرصة لذلك؟
أنا الذي أنام وأصحو معك من شهور، وأغتصبك حتى في
غفوتي. . أم هو الذي ستكونين له بإرادتك؟

هنالك مدن كالنساء، تهزمك أسماؤها مسبقاً. تفريك وتربكك،
تملأك وتفرغك، وتجردك ذاكرتها من كلّ مشاريعك، ليصبح الحبّ
كلّ برنامجك.

هنالك مدن.. لم تخلق لتزورها بمفردك. لتجول وتنام وتقوم
فيها.. وتتناول فطور الصباح وحيداً.

هنالك مدن جميلة كذكرى، قرية كدمعة، موجعة كحرة..
هنالك مدن.. كم تشبهك!

فهل يمكن أن أنساك في مدينة اسمها.. غرناطة؟
كان حبّك يأتي مع المنازل البيضاء الواطئة، بسقوفها القرميدية
الحمراء.. مع عرائش العنب.. مع أشجار الياسمين الثقيلة.. مع
الجدائل التي تعبر غرناطة.. مع المياه.. مع الشمس.. مع ذاكرة
العرب.

كان حبّك يأتي مع العطور والأصوات والوجوه، مع سمرة
الأندلسيات وشعرهنّ الحالك.

مع فساتين الفرح.. مع قيثارة محمومة كجسدك.. مع قصائد
لوركا الذي تحبّه.. مع حزن أبي فراس الحمداني الذي أحبه.
كنت أشعر أنك جزء من تلك المدينة أيضاً.. فهل كلّ المدن
العربية أنت.. وكلّ ذاكرة عربية أنت؟
مرّ الزمان وأنت مازلت كميّاه غرناطة، رقراقة الحنين.. تحملين
طعماً مميّزاً لا علاقة له بالمياه القادمة من الأنابيب والحنفيات.

مرّ الزمن، وصوتك مازال يأتي كصدى نوافير المياه وقت السّحر،
في ذاكرة القصور العربيّة المهجورة، عندما يفاجئ المساء غرناطة،
وتفاجئ غرناطة نفسها عاشقةً للملك عربي غادرها لتوه. .
كان اسمه «أبا عبد الله». وكان آخر عاشق عربيّ قبلها!

تراني كنت ذلك الملك الذي لم يعرف كيف يحافظ على عرشه؟
تراني أضعتك بحماقة أبي عبد الله، وسأبكيك يوماً مثله؟
كانت أمّه قد قالت له يوماً وغرناطة تسقط في غفلة منه: «ابك
مثل النساء مُلكاً مُضاعاً، لم تحافظ عليه مثل الرجال. .»
فهل حقاً لم أحافظ عليك؟. وعلى مَنْ أعلن الحرب. . أسألك؟
على مَنْ. . وأنتم ذاكرتي وأحبّتي.
على مَنْ. . وأنت مدينتي وقلعتي.
فلِمَ الخجل؟
هل هناك ملك عربيّ واحد. . حاكم عربيّ واحد، لم يبك منذ أبي
عبد الله مدينة ما؟

فاسقطي قسنطينة. . هذا زمن السقوط السريع!
هل سقطت حقاً يوماً. . هذا ما لن أعرفه أبداً.
ولكن أعرف فقط تاريخ سقوطك الأخير، سقوطك النهائيّ الذي
كنت شاهداً عليه بعد ذلك.

فأيّ جنون كان أن تزيد المسافات من حبّك، وأن تأخذي ملامح
تلك المدينة أيضاً. وإذا بي كمجنون أجلس كلّ ليلة لأكتب لك
رسائل كانت تولد من دهشتي وشوقي وغيرتي عليك. كنت أقصّ لك
فيها تفاصيل يومي وانطباعاتي في مدينة تشبهك حدّ الدهشة.
كتبت لك مرّة:

«أريد أن أحبك هنا. في بيتك جسدك، مرسوم على طراز أندلسي».

أريد أن أهرب بك من المدن الملعبة، وأسكن حبك بيتاً يشبهك في تعاريج أنوثتك العربية.

بيتاً تخفي وراء أقواسه ونقوشه واستداراته ذاكرتي الأولى. تظلل حديقته شجرة ليمون كبيرة، كتلك التي يزرعها العرب في حدائق بيوتهم بالأندلس.

أريد أن أجلس إلى جوارك، كما أجلس هنا على حافة بركة ماء تسبح فيها سمكات حمراء، وأتأملك مدهوئاً.

أستنشق جسدك، كما أستنشق رائحة الليمون البلدي الأخضر قبل أن ينضج.

أيها الفاكهة المحرمة.. أمام كل شجرة أمرّ بها، أشتهيك..»

كم من الرسائل كتبت لك.. هل يمكن لكاتبه أن تقاوم الكلمات؟ كنت أريد أن أطوّقك بالحروف، أن أستعيدك بها، أن أدخل معكما حلقة الكلمات المغلقة في وجهي بتهمة الرسم فقط، فرحت أخترع من أجلك رسائل لم تكتب قبلك لامرأة. رسائل انفجرت في ذهني فجأة بعد خمسين سنة من الصمت.

تراني بدأت يومها أكتب كتابي هذا دون أن أدري، بعد أن انتقل عشقي لك إلى هذه اللغة التي كنت أكتب بها رسائل لأول مرة. قبلك كتبت لنساء عبرن حياتي أيام الشباب والمراهقة.

لم أكن أجهد نفسي آنذاك في البحث عن الكلمات. كانت اللغة الفرنسية تستدرجني تلقائياً بحرّيتها للقول دون عقد.. ولا خجل.

معك رحت أكتشف العربية من جديد. أتعلّم التحايل على

هيبتها، أستسلم لإغرائها البري، لتعاريجها، لإيجاءاتها.
رحت أنحاز للحروف التي تشبهك.. لتاء الأنوثة.. لحاء
الجرقة.. لهاء النشوة.. لألف الكبرياء.. للنقاط المبعثرة على
جسدها خال أسمر..

هل اللّغة أنثى أيضاً؟ امرأة ننحاز إليها دون غيرها، نتعلّم البكاء
والضحك.. والحبّ على طريقتها: وعندما تهجرنا نشعر بالبرد
وباليتيم دونها؟

تراك قرأت تلك الرسائل؟ هل شعرت بعقدة يتمي وخوفي من
مواسم الصقيع؟

أدهشتك أم تراها جاءت في غير وقتها؟
كان لا بدّ أن أكتبها لك قبل أن يتسلّل زياد إليك من كلّ المسام،
ويصبح لغتك.

فهل تفيد رسائل الحبّ عندما تأتي متأخرة عن الحبّ؟
ألم يحبّ سلفادور دالي وبول إيلوار المرأة نفسها؟
وعبثاً راح بول إيلوار يكتب لها أجمل الرسائل.. وأروع
الأشعار.. ليستعيدها من دالي الذي خطفها منه. ولكنها فضّلت
جنون دالي المجهول آنذاك.. على قوافي بول إيلوار. وظلّت حتى
موتها منحازة لريشة دالي فقط الذي تزوّجها أكثر من مرّة بأكثر من
طقس، ولم يرسم امرأة غيرها طوال حياته.

الواقع أنّ الحبّ لا يكرّر نفسه كلّ مرّة، وأنّ الرّسّامين لا
يهزمون الشعراء دائماً.. حتى عندما يحاولون التّكرّر في ثياب
الكلمات.

عندما عدت بعد ذلك إلى باريس، كان في الحلق غصّة لازمتني

طوال تلك الأيام، وأفسدت عليّ حتى متعة نجاح ذلك المعرض .
واللقاءات الجميلة أو المفيدة التي نمت لي أثناءه .

كان هناك شيء داخلي يتزف دون توقّف . عاطفة جديدة للغيرة
والحقد الغامض الذي لا يفارقي ويذكرني كلّ لحظة أنّ شيئاً ما
يحدث هناك .

استقبلني زياد بشوق . (أكان حقاً سعيداً بعودتي؟) . أمّذي بالبريد
الذي وصل أثناء غيابي وبورقة سجّل عليها أسماء الذين طلبوني
هاتفياً خلال تلك الأيام .

أمسكتها دون أن ألقي عليها نظرة . كنت أدري أنني لن أجد
اسمك فيها .

ثمّ راح يسألني عن المعرض . . عن سفرتي وأخباري العامّة ،
ويحدّثني عن آخر التطوّرات السياسيّة بشيء من القلق، الذي فسّره
بارتباك لحظة أمامي لسبب أو لآخر .

كنت أستمع إليه وأنا أتفقّد بحواسي ذلك البيت كما في خرافة
الغول الذي كان كلّما عاد إلى بيته، راح يتشمّم الأجواء بحثاً عن
إنسان قد يكون تسلّل إلى مغارته أثناء غيابه . .

كنت أشعر أنّك مررت بهذا البيت . إحساس غامض كان يؤكّد لي
ذلك، دون أن أجد في الواقع حجة تثبت لي شكوكي .

ولكن هل تهمّ الحجة؟ . . هل يعقل أن تمرّ عشرة أيّام دون أن
تلتقيا . . وأين يمكن أن تلتقيا في مكان غير هذا؟ وإذا التقيتما هل
ستكتفيان بالحديث؟

كنت منجماً للكبريت . . وكان زياد عاشقاً مجوسياً يعبد اللهب !

فهل كان يمكن أن يصمد طويلاً في وجه نيرانك . . أنت المرأة التي
يحلم الرجال أن يحترقوا بها ولو وهماً؟

رحت أبحث في ملامح زياد عن فرحٍ ما، عن سعادةٍ ما أجد فيها
الحبّة القاطعة على أنّك كنت له .

ولكن لم يبدُ على وجهه أيّ شعور خاصّ، غير القلق .

فجأة حدّثني عنك قال :

- لقد طلبت منها أن تأتي غداً لتتناول معاً غداءنا الأخير . .

صحت بشيءٍ من الدهشة :

- لماذا الأخير؟

قال :

- لأنني سأسافر الأحد . .

- ولماذا الأحد؟

قلتها وأنا أشعر بشيءٍ من الحزن والفرح معاً .

أجاب زياد :

- لأنني يجب أن أعود . . كنت أنتظر فقط عودتك لأسافر . لم يكن

مقرراً أن أبقى هنا أكثر من أسبوعين . لقد قضيت شهراً كاملاً ولا
بدّ أن أعود . .

ثم أضاف بشيءٍ من السخرية :

- قبل أن أتعوّد على الحياة الباريسية .

تراك أنت الحياة الباريسية التي كان يخاف أن يتعوّد عليها؟ تراه

كان يهرب مرّة أخرى من حبّ آخر أم أنّ مهمّته قد انتهت أخيراً فلم
يعد أمامه غير الرحيل؟

مرّ يوم السبت وسط مشاغل عودتي، وانشغال زياد بترتيب

تفاصيل سفره .

حاولت أن أتخاشى الجلوس إليه ذلك المساء . ولكن كان يوم

الأحد يتربص بنا ويضعنا أخيراً وجهاً لوجه نحن الثلاثة في ذلك
الغداء الأخير الخامس .

يومها قابلتني بحرارة لم أتوقعها . فسرّتها على طريقي بأنّها شعور
بالذنب ، (أو ربما بالامتنان) . ألم أقدم لك حباً على طبق من شعر على
طاولة هي . . بيتي ؟!

ثمّ شكرتني على رسائلي ، وأبدت إعجابك بأسلوب . . وكأنك
أستاذة قدّم لها تلميذ نصّاً إنشائياً .
أزعجني شكرك العليّ ، وشعرت أنك حدّثت زياد عنها وربما أريته
يأياها أيضاً .

كنت على وشك أن أقول شيئاً عندما واصلت :
- تمّيت لو كنت معك هناك . . هل غرناطة جميلة حقاً إلى هذا
الحدّ؟ . وهل زرت حقاً بيت غارسيا لوركا في (خوانا فاكيروس) . .
أليس هذا اسم ضيعته كما قلت؟ حدّثني عنه . .
وجدت في طريقتك في بدء الحديث معي من اهوامش ، شيئاً مشيراً
للدهشة ، وربما للتفكير أيضاً .
أهذا كلّ ما وجدت قوله بعد كلّ الزوابع التي مرّت بنا ، وبعد
عشرة أيام من الجحيم الذي عشته وحدي ؟
لا أدري كيف خطر عندئذٍ في ذهني مشهد لفيلم شاهدته يوماً عن
حياة لوركا . .

قلت لك :

- أتدرين كيف مات لوركا ؟

قلت :

- بالإعدام . .

قلت :

- لا . . وضعوه أمام سهل شاسع وقالوا له امش . . وكان يمشي
عندما أطلقوا خلفه الرصاص، فسقط ميتاً دون أن يفهم تماماً ما
الذي حدث له .

إنه أحزن ما في موته . فلم يكن لوركا يخاف الموت، كان يتوقعه،
ويذهب إليه مشياً على الأقدام كما نذهب لموعدٍ مع صديق . . ولكن
كان يكره فقط أن تأتيه الرصاصة من الظهر!
شعرت آنذاك أن زياد تلقى كلمتي كرصاصة في الصدر . رفع
عينيه نحوي، أحسسته على وشك أن يقول شيئاً ولكنه صمت .
كنّا نفهم بعضنا دون كثير من الكلام .

ندمت بعدها على إيلامي المتعمد له . فقد كان إيلامه يعزّ عليّ أكثر
من أملك . ولكن كان هذا أقلّ ما يمكن أن أقوله له بعد كل ما عشته
من عذاب بسببه .
وربّما كان أكثره أيضاً .

تحول غداؤنا فجأة إلى وجبة صمت مريبك تتخلّله أحياناً أحاديث
مفتعلة، كنت تحترعنيها أنت بفطيرة نسائية لترطيب الجو . . وربّما
للمراوغة . ولكن عبثاً .
كان هناك شيء من البلّور قد انكسر بيننا . ولم يعد هناك من أمل
لترميمه .

سألتكِ بعدها:

- هل ستأتين معي لمرافق زياد إلى المطار؟
أجبت:

- لا . . لا يمكن أن أذهب إلى المطار . . قد ألتقي بعَمّي هناك،
إذ أنه يحدث أن يمرّ بمكتب الخطوط الجوية الجزائرية . ثم إنني أكره
المطارات . . وأكره مراسيم الوداع . الذين نحبههم لا نودّعهم، لأننا

في الحقيقة لا نفارقهم . لقد خلق الوداع للغرباء . . وليس للأحبة .
كانت تلك إحدى طلعاتك العجيبة المدهشة كقولك السابق مثلاً
«نحن لا نكتب لإهداء سوى للغرباء وأما الذين نحبه فهم جزء من
الكتاب وليسوا في حاجة إلى توقيع في الصفحة الأولى . .»
ولماذا الوداع؟

هل هناك من ضرورة لوداع آخر؟
كنت أراك طوال وجبة الغداء تلتهمينه بنظراتك ولا تأكلين شيئاً
سواه .

كانت عيناك تودعان جسده قطعة قطعة . تتوقَّان طويلاً عند كلِّ
شيء فيه ، وكأنَّك تخترنين منه صوراً عدَّة . . لزمْنِ لن يبقى لك فيه
سوى الصور .

وكان هو يتحاشى نظراتك ، ربَّما مراعاة لي ، أو لأنَّ كلماتي المراجعة
أفقدته رغبة الحب . . ورغبة الأكل كذلك . وجعلته يحوِّل نظراته
الحزينة إلى أعماقه وإلى ما بعد السفر .

وكنت أنا لا أقلُّ حزناً عنكما ، ولكن حزني كان فريداً وفردياً
كخييتي . منشعب الأسباب غامضاً كموقفني من قصَّتكما العجيبة .
وربَّما زاده رفضك مرافقتي إلى المطار توتراً . فقد كنت أطمع في
عودتك معي على انفراد لأخلو أخيراً بك . لأفهم منك دون كثير من
الأسئلة ، إلى أيِّ مدى كنت قادرة على محو تلك الأيام من ذاكرتك ،
والعودة إليّ دون جروح أو خدوش . .

كنت أدري أنَّ قلبك قد أصبح منحازاً إليه . وربَّما جسدك أيضاً .
ولكنني كنت أثق بمنطق الأيَّام . وأعتقد أنَّك في النهاية ستعودين
إليّ ، لأنَّه لن يكون هناك سواي . . ولأنني ذاكرتك الأولى . . وحينك
الأوَّل لأبوة كنت أنا نسخة أخرى عنها .
فرحت أراهن على المنطق . . وانتظرك .

رحل زياد..

ورحت أستعيد تدريجياً بيتي وعاداتي الأولى قبله.

كنت سعيداً ولكن بمرارة غامضة. فقد كنت تعودت على وجوده معي، وكنت أشعر بشيء من الوحدة المفاجئة وهو يتركني وحدي لموسم الشتاء؛ لتلك الأيام الرمادية، والسهرات الطويلة المدهشة.

رحل زياد.. وفرغ البيت منه فجأة كما امتلأ به.

لم يبق سوى تلك الحقيبة التي قد تشهد على مروره من هنا، والتي تركها أسفل الخزانة بعدما جمع فيها أوراقه وأشياءه، والتي رأيت في بقائها عندي مشروع عودة محتملة، قد تكونين أنت أحد أسبابها.

ولكن لا بد أن أعترف أن سعادتي كانت تفوق حزني، وأنني كنت أشعر أنني أستعيدك وأنا أستعيد ذلك البيت الفارغ منه.

كنت أشعر أن هذا البيت سيمتلأ أخيراً بحضورك بطريقة أو بأخرى، وأنني سأخلو فيه بك وأنا أخلو لنفسي.

سأعيدك إليه تدريجياً. ألم تعترفي مراراً أنك تحبينه.. تحبين طريقة تربيته.. تحبين ضوئه.. منظر نهر السين الذي يطل عليه؟

أم ترى كنت تحبين فقط زياد، وحضوره الذي كان يؤثت كل شيء.. ويجعل الأشياء أحلى!

في البدء.. كنت أتوقع هاتفك. كنت أتمسك به، أستجد به، ولكن صوتك كان ينسحب أيضاً تدريجياً أمام دهشتي.

كان هاتفك يأتي مرة كل أسبوع، ثم كل أسبوعين، ثم نادراً، قبل أن ينقطع نهائياً.

كان يأتي شحيحاً كقطرات الدواء . وكنت أشعر أحياناً أنك
تطلبيني مجاملة فقط، أو عن ضجر، أو ربّما بنية غير معلنة لمعرفة
أخبار زياد.

وكنت أنا أثناء ذلك، أتساءل: تراه كان يكتب إليك مباشرة
بعنوان البيت، ولهذا لم تكوني في حاجة إلى أن تسأليني مرّة عن
أخباره؟

أم أنه كعادته أخبرك مسبقاً أنه لن يكتب إليك، وأن عليك مثله
أن تتعلّمي النسيان . فرحت تطبّقين تلك العقوبة عليّ أيضاً!
كان زياد يكره أنصاف الحلول في كلّ شيء.

كان متطرفاً كأبي رجل يحمل بندقيّة . ولذا كان يكره أيضاً ما كان
يسمّيه سابقاً «أنصاف الملدّات» أو «أنصاف العقوبات»!

كان رجل الاختيارات الحاسمة . فإمّا أن يحبّ ويتخلّى عندئذ عن
كلّ شيء ليقبى مع من يحبّ، أو يرحل لأنّ الذي ينتظره هناك أهمّ .
وعندها لن يكون من مبرّر لتعذيب النفس بالأشواق والذكرى .

تساءلت طويلاً بعد ذلك، ماذا عساه اختار؟
تراه تصرف هذه المرّة أيضاً كما تصرف منذ سنوات في الجزائر مع
تلك الفتاة التي كان على وشك الزواج منها .
أم أنه تغيّر هذه المرّة، ربّما بحكم العمر . . وربّما فقط لأنك أنت،
ولأنّ الذي حدث بينكما لم يكن قصّة عادية تحدث بين شخصين
عاديين .

كنت أحاول أحياناً استدراجك للحديث عنه، عساني أصل إلى
نتيجة تساعدني على تحديد القواعد الجديدة للعبة . . والتأقلم معها .
وكنت تراوغيّني كعادتك . كان من الواضح أنك تحبّين أن
أحدّثك عنه، ولكن دون أن تبوح لي بشيء .

كنت تناقضين نفسك كل لحظة. نمزجين بين الجذ والمزاح، وبين الحقيقة والكذب، في محاولة للهروب من شيء ما. .
كان كلامك كذباً أبيض أستمع إليه بفرشاتي، وألوان جملة بألوان أكثر تناسباً مع كل ما أعرفه عنك.

تعوّدت أن أكسر ما تقولينه لي بالنفسجي، بالأزرق. .
والرمادي، بالقلق الذي يخيم على كل ما تقولينه.

تعوّدت أن أجمع حصيلة ما قلته لي، وأصنع منها حواراً لرسم متتالية على ورق، أضع عليها أنا التعريفات المناسبة لحوار آخر وكلام لم نقله.

لعلني وقتها بدأت أكتشف تدريجياً تلك العلاقة الغامضة التي بدأت تربطك في ذاكرتي بذلك اللون الأبيض.
لم يكن كلامك وحده كذباً أبيض.

كنت امرأة غمضة تلك قدرة خارقة عني استحضار ذلك اللون في كل أشكاله وأصداده. أو لعلني وقتها أيضاً بدأت دون أن أدري وبحدس غامض أخرج هذا اللون نهائياً من أريان لوحاتي، وأحاول الاستغناء عنه، في محاولة مجنونة لإلغاءك.

كان لوناً متواطئاً معك. منذ ذلك اليوم الذي رأيتك فيه طفلة تحبو بينما أثوابها الطفولية البيضاء تجفّ فوق خشبات منصوبة فوق كانون. غمزة مسبقة للقدر الذي كان يُهيأ لي معك على نارٍ باردة، أكثر من ثوب أبيض.

كان الأبيض لوناً مثلك يدخل في تركيب كل الألوان وكل الأشياء. فكّم من الأشياء يجب أن أدمر قبل أن أنتهي منه! وكم من اللوحات سألغي إن أنا قاطعته!

كنت أحاول بكلّ الأشكال (والألوان ..) أن أنتهي منك . ولكنني
كنت في الحقيقة أزداد تورطاً في حبك .

اعترفت لك مرّة على الهاتف .. في لحظة يأس :

أتدريين .. حبك صحراء من الرمال المتحرّكة ، لم أعد أدري أين
أقف فيها . .

أجبتني بسخريتك الموجعة :

- قف حيث أنت .. المهم ألا تتحرّك . فكلّ محاولة للخلاص في
هذه الحالات ، ستجعل الرمال تسحبك أكثر نحو العمق . إنها
النصيحة التي يوجهها أهل الصحراء لكلّ من يقع في بالوعة الرمال
المتحرّكة .. كيف لا تعرف هذا؟! !

يومها كان لا بدّ أن أحزن .. ولكنني ضحكت . ربّما لأنني أحبّ
سخريتك الذكيّة حتّى عندما تكون موجعة ، فنحن قلّمنا نلتقي بامرأة
تعذبنا بذكاء .

وربّما لأنك كنت ترقّين لي احتمال موت كنت أراه جيلاً بقدر ما هو
حنفي ..

نذكرت مثلاً شعبياً رائعاً ، لم أكن قد تنبّهت له من قبل : «الطير
الخرّما ينحكمش ، وإذا انحكم .. ما يتخبّطش!» .

وكنت أشعر آنذاك أنني ذلك الطائر المكابر الذي ينتسب إلى
سلالة الصقور والنسور التي لا يسهل اصطيادها ، والتي عندما
تُصطاد ، تصبح شهامتها في أن تستسلم بكبرياء ، دون أن تقاوم أو
تتخبّط كما يفعل طائرٌ صغيرٌ وقع في فخّ .

عندما أجبتك يومها بذلك المثل الشعبي ، صحت دهشة :

- ما أجمله .. لم أكن أعرفه!

أجبتك وسط تهيدة :

- لأنك لم تعرفي الرجال . . ليس هذا زمناً للصقر ولا للنسور .
إنه زمنٌ للطيور المدجّنة التي تنتظر في الحداثق العموميّة!
ست سنوات مرّت على ذلك الحديث . وها أنا أذكره اليوم
مصادفةً، وأستعيد نصيحتك الأخيرة:
«قف حيث أنت . . المهم ألا تتحرّك!» .

كيف صدّقت يومها أنك كنت تخافين عليّ من العواصف
والزوايع . . والرّمال المتحرّكة . أنت التي أوقفتني هنا في مهبّ الجرح
عدّة سنوات، ورحت تنفخين حولي العواصف وتحركين أمواج الرّمال
تحت قدمي . . وتحرضين القدر عليّ .
لم تحرك أنا . .

ظلمت واقفاً بحماقة عند عتبات قلبك لسنوات عدّة .
كنت أجهل أنك تبتلعيني بصمت، أنك تسحبين الأرض من
تحت قدمي وأنني أنزلق نحو العمق .
كنت أجهل أن زوابعك ستعود كلّ مرّة، وحتىّ بعد غيابك
بسنوات لتفتالي .

واليوم . . وسط الأعاصير المتأخّرة يأتي كتابك ليثير داخلي زوبعة
من الأحاسيس المتطرّفة والمتناقضة معاً .
«منعطف النسيان» قلب . .
من أين يأتي النسيان . . أسألك؟

* * *

مازلت أذكر ذلك اليوم من فبراير، عندما جاء صوت سي الشريف
على الهاتف، ليدعوني إلى العشاء في منزله .
فوجئت بدعوته، ولم أسأله حتّى عن مناسبتها . فهمت منه فقط أنّه
دعا آخرين للعشاء، وأننا لن نكون بمفردنا .

اعترف أنني كنت سعيداً ومرتبكاً بفرحي .
خجلت من نفسي لأنني منذ لقائنا الأخير لم أطلبه سوى مرة واحدة
بمناسبة العيد، برغم إلحاحه عليّ أن أزوره ولو مرة في المكتب، لأأخذ
قهوة معاً .

فجأة، أخذت قراراً ربّما كان أحق .
-قررت أن آخذ إحدى لوحاتي لأهديها إياه .
لم يهديني اليوم تلك الفرحة التي لم أعد أتوقعها؟
سأثبت له دون كلام، أنّ لوحاتي لا تتداول إلا بعملة القلب
وليس بالعملات المشبوهة .

بعد ذلك وجدت لهذه الفكرة حسنة أخرى .
سأكون حاضراً في ذلك البيت الذي تسكنينه ولو معلقاً على
جدار .

في اليوم التالي، حملت لوحتي وذهبت إلى ذلك العشاء .
كان القلب يركض بي، يسبقني في ذلك الحَيِّ الراقي بحثاً عن
تلك البناية . حتى أنني لم أعد أذكر من اهتدى إلى بيتك أولاً:
عيناي . . أم قلبي .

عندما دخلتها شعرت أنّ عطرك كان يتربّص بي عند المدخل . .
وفي المصعد . . وأنك كنت هنا تقودين وجهتي بعطرك فقط .
استقبلني سي الشريف عند الباب . رحّب بي بعناق حارّ، زادت
حرارته رؤية تلك اللوحة الكبيرة التي كنت أعملها بصعوبة .
بدا لي في تلك اللحظة أنّه لم يصدّق تماماً أن تكون هدية له . تردّد
قبل أن يأخذها مني، لكنني استوقفته لأقول له: «هذه لوحة مني . .
إنها هدية لك . .»

رأيت فجأة على وجهه فرحاً وغبطة نادرة . وراح ينزع عنها

الغلاف على عجل، بفضول من ربح شيئاً في اليانصيب.
ثمّ صاح وهو يرى منظر تلك القنطرة معلّقة وسط الضباب إلى
السماء:

- هذي قنطرة الجبال!

وقبل أن أقول شيئاً عانقني وقال وهو يربت على كتفي:

- يعطيك الصّحة . . تعيش آ حبيبي . . تعيش!

لم أملك من تقيله بالحرارة نفسها، لأنّه أهداني شيئاً ربّما لم يتبه
لثمنه عندي .

رافقني سي الشريف إلى الصالون وهو يمسك ذراعي بيد، ويمسك
لوحتي باليد الأخرى. واتّجه بي نحو ذلك المجلس ليقدمني إلى
ضيوفه، كأنّه يريد أن يشهد الجميع على امتنانه لي. أو ربّما على
علاقتنا وصدّاقتنا الوطيّدة، التي كان شائعاً عني أنّي لا أجود بها في
هذا الزمن المتبدّل . . إلّا على القلّة .

لفظ أمامي عدّة أسماء لعدّة وجوه، صافحت أصحابها وأنا أتساءل
من يكون معظمهم .

لم أكن أعرف منهم غير واحد أو اثنين، وأمّا البقية فكانوا ما أسمّيه
النبات الطفيلية . . أو «النبات السيّئة». كما يسمّي الفرنسيون تلك
النبته التي تنمو من الأشياء، في أيّ حوض أو أية تربة، وإذا بها تمدّ
جذورها فجأة وتضاعف أوراقها وفروعها، حتّى تغطي وحدها ذات
يوم على كلّ التربة.

لا أدري لماذا كنت دائماً أملك الحاسة القويّة التي تجعلني أتعرف
على هذا النوع من المخلوقات أينما كانوا. فهم على اختلاف
أشكالهم وهيأتهم ومناصبهم يمتلكون مظهراً مشتركاً يفضحهم، بذلك
الزيف والرياء المفرط وبمظاهر الغنى والوجاهة الحديثة التي لبسوها

على عجل... وبذلك القاموس المشترك في الحديث الذي يوهك أنهم
أهمّ مما تتوقع.

نظرة خاطفة واحدة، وبعض الجمل المتبادلة فقط، كانت كافية
لأستنتج نوعيّة ذلك المجلس «الراقي» الذي يضمّ نخبة من وجهاء
المهجر، الذين يحترفون الشعارات العلنيّة.. والصفقات السريّة.

من الواضح أنّي كنت في كوكب ليس كوكبي..
راح سي الشريف يطلع ضيوفه على تلك اللوحة بشيء من الفخر
والمودة معاً..

والتفت إليّ ليقول لي:

- أندري خالد.. لقد حققت لي اليوم أمنية عزيزة عليّ. كنت
للذكرى أريد أن يكون في بيتي شيء لك. لا تنس أنّك صديق
طفولتي وابن حمّي «كوشة الزيات».. أتذكر ذلك الحمّي؟

كنت أحبّ سي الشريف. كان فيه شيء من هيئة قسنطينة
وحضورها، شيء من الجزائر العريقة وذاكرتها، شيء من سي
الطاهر، من صوته وطلّته..

وكان في أعماقه شيء نقيّ لم يلوّث بعد برغم كل شيء. ولكن حتّى
متى..

كنت أشعر أنّه محاط بالذباب وبقدارة المرحلة. وكنت أخاف أن
يتسلّل إليه العفن حتّى العمق ذات يوم.

أخاف عليه، وقد أخاف على ذلك الاسم الكبير الذي يحمله إرثاً
من سي الطاهر من التدنيس.

ترى أكان شعوري ذلك حدساً، أم استنتاجاً منطقيّاً لذلك الواقع
الموجع الذي كنت أراه محاطاً به؟

فهل سينجو سي الشريف من هذه العدوى؟ وماذا عساه أن

يختار؟ في أية بحيرة مسيح . . مع أي تيار وضد أي تيار . . ولا حياة
للأسماء الصغيرة المعزولة في هذه المياه العكرة التي تحكمها أسماك
القرش؟

كان الجواب أمامي ولم أنتبه في تلك السهرة، أن سي الشريف قد
اختار بحيرته العكرة وانتهى الأمر.

قال جاري الأنيق خلف سيجاره الكوبي:

- لقد كنت دائماً معجباً برسومك . . وطلبت أن يتصلوا بك
لتساهم في بعض مشاريعنا . . ولكنني لا أذكر أنني شاهدت لك أي
لوحات عندنا.

لم أكن أدري آنذاك من هو محدثي . . ولا عن أية مشاريع كان
يحدثني . ولكن كان يكفي أن يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع،
لأفهم أنه شخصية فوق العادة.

وكان سي الشريف تنبه إلى أنني أجهل هويّة محدثي فتدخل موضحاً:
- إن (سي . . .) مولع بالفنّ، وهو مشرف على مشاريع كبرى
ستغير الوجه الثقافي للجزائر.

ثم أضاف وكأنه تنبه إلى شيء:

- . . ولكنك لم تزر الجزائر منذ عدّة سنوات . . صحيح أنك لم ترَ
بعد تلك المركبات الثقافية والتجارية الجديدة . . لا بد أن تتعرف
عليها . .

ولم أجه . .

كنت أراه يتدحرج أمامي من سلم القيم، غباءً أو تسواطوياً لا
أدري . فاحتفظت لنفسي بما سمعته عن تلك . . «المنشآت» وكلّ ما
جاورها من معالم وطنية بُنيت حجراً حجراً على العمولات
والصفقات، وتناوب عليها السراق كباراً وصغاراً . . على مرأى من

الشهداء الذين شاء لهم سوء حظهم أن يكون مقامهم مقابلاً . . . لتلك
الخيانة .

ها هوذا إذن (سي . . .) يبدو طبيّاً ورجلاً شبه بسيط، لولا بدلته
الأنيقة جداً . . . وحديثه الذي لا يتوقّف عن مشاريعه القريبة
والبعيدة، التي تمرّ جميعها بباريس وبأسماء أجنبيّة مشبوهة، تبدو
مخجلة في فم ضابط سابق .

ها هوذا إذن . . . تراه ظاهرة ثقافيّة في عالم العسكر . . . أم ظاهرة
عسكريّة في عالم الثقافة . . .

أم أنّ هذا «الزواج المنافي للطبيعة» أصبح أمراً طبيعياً مذ شاع
وباؤه «رسمياً» في أكثر من قيادة أركان عربيّة!

كان الجميع يتملقونه، ويمجملونه، عساهم يلحسون شيئاً من ذلك
العسل الذي كان يتدفّق بين يديه نهراً من العملة الصعبة، في زمن
القحط والجفاف . . .

وكنت أتساءل طوال تلك السهرة، ماذا كنت أفعل وسط ذلك
المجلس العجيب؟

كنت أتوقّع أن تكون تلك الدعوة عائليّة، أو على الأقلّ موعداً
نادراً لي مع الوطن، أستعيد فيه مع سي الشريف ذكرياتنا البعيدة .
ولكنّ الوطن كان غائباً من تلك السهرة . ناب عنه جرحه،
ووجهه الجديد المشوّه .

كانت سهرة في فرنسا . . . نتحدّث فيها بالفرنسيّة . . . عن مشاريع
سيتمّ معظمها عن طريق جهات أجنبيّة . . . بتمويل من الجزائر . . .
فهل حصلنا على استقلالنا حقّاً؟! .

انتهت تلك السهرة في حدود منتصف الليل . فقد كان (سي . . .)
متعباً وله ارتباطات ومواعيد صباحيّة . . . وربّما ليليّة أيضاً .

إنّ المال السريع الكسب، يعجّل في فتح شهيتنا لأكثر من
ملذّات.

وكان يمكن أن أكون سعيداً ذلك المساء. لقد كنت في الواقع محطّ
اهتمام الجميع لأسباب لم أشأ التعمّق فيها..

بل ربّما كنت النجم الثاني في تلك السهرة مع (سي...) الذي
فهمت أنّ الدعوة كانت على شرفه، وأنّني دعيت لها، لأنّه كان يحبّ
أن يكون محاطاً في سهراته بالفنانين دليلاً على ولعه بالإبداع.. وذوقه
غير العسكري!

والواقع أنّه كان لطيفاً ومجاملأ.. وأنّه حدّثني يومها عن آرائه
الفنيّة في مجالات مختلفة، وحبّه لبعض الرّسامين الجزائريّين بالذات.
بل وقال مازحاً، إنّه يحسد سي الشريف على تلك اللّوحة، وأنّني إذا
كنت آخذ معي لوحة حيث أذهب، فسيدعوني إلى بيته عند زيارتي
للجزائر..

ضحكت من مزاحه.

ولكنّني كنت حزينا بما فيه الكفاية بعد ذلك لأكون على حافة
البكاء، وأنا أنفرد بنفسي ذلك المساء في سريري، وأتساءل أيّ حماقة
أوصلتني إلى ذلك البيت؟

بيت كنت أتوقّعه بيتك، وإذا بي أدخله وأغادره دون أن ألمح حتّى
طرف ثوبك، وهو يعبر ذلك الممرّ الذي كان يفصلني.. عن عالمك.

في صباح اليوم التالي، دقّ الهاتف. توقّعتك أنت، وكانت
كاترين.. قالت:

- قبلات صباحيّة.. وأجل الأمان لك..

وقبل أن أسأل عن المناسبة أضافت:

- .. اليوم عيد (السان فالتان) القدّيس الذي يبارك العشاق.

فكرت أن أطلبك بدل أن أبعث إليك بطاقة.. ماذا تريد أن أتمنى
لك في عيد الحب؟

وأمام دهشتي.. أو ترددي أضافت بلهجة ساخرة أحبها:
- اطلب أيها الأحق.. فالدعوات تستجاب اليوم!
ضحكت..

كدت أقول لها أطلب شيئاً من النسيان فقط. ولكنني قلت شيئاً
مشابهاً لذلك:

- أريد أن أحال إلى التقاعد العاطفي.. أيمكنك أن تبلغني
قديسك طلبي هذا!
قالت:

- يا لك من مجنون.. أتمنى ألا يسمعك فيحرمك من بركاته إلى
الأبد.. هل أنتبع موعدنا الأخير إلى هذا الحد؟
يومها ضحكت مع كاترين. ثم وضعت تلك الساعة لأبكي
معك.

كنت أكتشف لأول مرة ألم ذلك العيد الذي لم أكن سمعت به من
قبل.

لم يأت هاتفك حتى ليشكرني على تلك اللوحة، أو حتى على تلك
الزيارة، وذلك الموعد المتعمد الذي حضرته وتغييت عنه.
جاء عيد الحب إذن..

فيا عيدي وفجيعتي، وحيي وكراهيي، ونسياني وذاكرتي، كل عيد
وأنت كل هذا..

للحُب عيد إذن.. يحتفل به المحبون والعشاق، ويتبادلون فيه
البطاقات والأشواق، فأين عيد النسيان سيدي؟

هم الذين أعدوا لنا مسبقاً تقويماً بأعياد السنة، في بلد يحتفل كل

يومٍ بقديس جديد على مدار السنة . . أليس بين قديسيهم الثلاثمائة والخمسة والسّتين . . قديس واحد يصلح للنسيان؟

مادام الفراق هو الوجه الآخر للحب، والخيبة هي الوجه الآخر للعشق، لماذا لا يكون هناك عيد للنسيان يضرب فيه سعاة البريد عن العمل، وتتوقّف فيه الخطوط الهاتفية، وتُمنع فيه الإذاعات من بثّ الأغاني العاطفية . . ونكفّ فيه عن كتابة شعر الحبّ!

منذ قرنين كتب «فيكتور هوغو» لحبيته جوليات دروي يقول: «كم هو الحبّ عقيم، إنّه لا يكفّ عن تكرار كلمة واحدة «أحبّك» وكم هو خصب لا ينضب: هناك ألف طريقة يمكنه أن يقول بها الكلمة نفسها» . .

دعيني أدهشك في عيد الحبّ . . وأجرب معك ألف طريقة لقول الكلمة الواحدة نفسها في الحبّ . .

دعيني أسلك إليك الطرق المتشعبة الألف، وأعشقك بالعواطف المتناقضة الألف، وأنساك وأذكرك، بتطرّف النسيان والذاكرة .
وأخضع لك وأتبرأ منك، بتطرّف الحرّية والعبودية . . بتناقض العشق والكراهية .

دعيني في عيد الحبّ . . أكرهك . . بشيء من الحبّ .

تراني بدأت أكرهك يومها؟

ومنى ولدت داخلي تلك العاطفة بالتحديد، وراحت تنمو بسرعة مذهشة، وأصبحت تجاور الحبّ بعنفه؟

ترى إثر خيالي المتكرّرة معك، بعد كلّ تلك الأعياد التي أخلفتها مروراً بذكرى لقائنا، أم بسبب ذلك التوتر الغامض الذي كان يسكنني، ذلك الجوع الدائم إليك، الذي كان يجعلني لا أشتهي امرأة سواك .

كنت أريدك أنت لا غير، وعبثاً كنت أتحايل على جسدي . عبثاً
كنت أقدم له امرأة أخرى غيرك . كنت شهوته الفريدة . . ومطلبه
الوحيد .

الأكثر إيلاماً ربّما، عندما كنت في لحظة حبّ أمرر يدي على شعر
كاترين . وإذا بيدي تصطدم بشعيراتنا القصيرة الشقراء، فأفقد فجأة
شهية حيّي وأنا أتذكّر شعرك العجريّ الطويل الحالك، الذي كان
يمكن أن يفرش بمفرده سريري .

كان نحولها يذكّرني بامتلائك، وخطوط جسدها المستقيمة المسطّحة
تذكّرني بتعاريبك وتضاريس جسدي .

وكان عطرك يأتي بغيابه حتّى حواسي لئلغي عطرها، ويذكّرني
كطفل يتصرّف بحواسه الأولى، أنّ ذلك العطر لم يكن العطر السريّ
لأمي !

كنت تتسلّلين إلى جسدي كلّ صباح وتطردنيها من سريري .
يوقظني الملك السريّ، وشهوتك المتراكمة في الجسد قبلة موقوتة،
ورغبة ليلية مؤجلة يوماً بعد آخر .

هل تستيقظ الرجولة باكراً حقاً، أم الشوق هو الذي لا ينام؟
أجيبيني أيّتها الأنثى التي تنام ملء جفونها كلّ ليلة . .
أوحدهم الرجال لا ينامون؟

ولماذا يرتبك الجسد، وأكاد أجهش على صدر غيرك بالبكاء، أكاد
أعترف لها أنني عاشق امرأة أخرى، وأنني عاجز أمامها لأن رجولتي لم
تعد ملكي، وإنما تتلقّى أوامرها منك فقط !

متى بدأت أكرهك؟

نرى في ذلك اليوم الذي لبست فيه كاترين ثيابها، مدّعية بمعاملة

كاذبة موعداً ما لتتركني وحدي في ذلك السرير الذي لم يعد يشبع
نهمها.

يوم اكتشفت وأنا أذرف دمعاً رجاليةً مكابرة: أنه يحدث للرجولة
أيضاً أن تنكس أعلامها، وترفض حتى لعبة المجاملة. . أو منطق
الكبرياء الرجالي. . وأنا في النهاية لسنا أسياد أجسادنا كما نعتقد.
يومها تساءلت بشيء من السخرية المرة، إن كان ذلك القديس
(السان فالتان) قد استجاب لدعوتي بهذه السرعة. . وحولني حقاً إلى
عاشق متقاعد!

أذكر أنني لعتك. . وحقدت عليك آنذاك، وشعرت بشيء من
المرارة المجاورة للبكاء. . أنا الذي لم أبك حتى يوم بترت ذراعي، كان
يمكن أن أبكي يومها وأنت تسرقين مني آخر ما أملك.
تسرقين رجولتي!

ذات يوم سألتك «هل تحبيني؟» . . .
قلت:

- لا أدري. . حبك يزيد وينقص كالإيمان!
يمكن أن أقول اليوم، إن حقدي عليك كان يزيد وينقص أيضاً
كإيمانك. .

يومها أضفت بسذاجة عاشق:

- وهل أنت مؤمنة؟

صحت:

- طبعاً. . أنا أمارس كل شعائر الإسلام. . وفرائضه

- وهل تصومين؟

- طبعاً أصوم. . إنها طريقي في تحدي هذه المدينة. . في التواصل

مع الوطن. . ومع الذاكرة.

تعجبت لكلامك. لا أدري لماذا لم أكن أتوقعك هكذا. كان في مظهرك شيء ما يوهم بتحررك من كل الرواسب.

عندما أبديت لك دهشتي قلت:

- كيف تسمي الدين رواسب، إنه قناعة؛ وهو ككل قناعاتنا قضية لا تخصنا سوانا..

لا تصدق المظاهر أبداً في هذه القضايا. الإيمان كالحب عاطفة سرية نعيشها وحدنا في خلوتنا الدائمة إلى أنفسنا. إنها طمانيتنا السرية، درعنا السرية.. وهروبنا السري إلى العمق لتجديد بطريقتنا عند الحاجة.

أما الذين يدو عليهم فائض من الإيمان، فهم غالباً ما يكونون قد أفرغوا أنفسهم من الداخل ليعرضوا كل إيمانهم في الواجهة، لأسباب لا علاقة لها بالله!

ما كان أجمل كلامك يومها!

كان يأتي ليقلب ثنايا الذاكرة، ويوقظ داخلي صوت المآذن في صباحات قسطنطينة.

كان يأتي مع الصلوات، مع التراتيل، مع صوت (المؤذنب) في كتابات قسطنطينة القديمة. فأعود إلى الحصر نفسه أجلس عليه بالارتباك الطفولي نفسه، أردد مع أولاد آخرين تلك الآيات التي لم نكن نفهمها بعد، ولكننا كنا نسيخها على ذلك اللوح ونحفظها كيف ما كان، خوفاً من «الفالاقة». وتلك العصا الطويلة التي كانت ترتبص بأقدامنا لتدميها عند أول غلطة.

كان يأتي ليصالحني مع الله، أنا الذي لم أصم من سنين.

كان يصالحني مع الوطن، ويحرّضني ضد هذه المدينة التي تسرق مني كل يوم مساحة صغيرة من الإيمان.. ومن الذاكرة.

كنت يومها المرأة التي أيقظت ملائكتي وشياطيني في الوقت نفسه .
ثم راحت تتفرّج عليّ بعدما حولتني إلى ساحة بتصارع الخير والشرّ
فيها . . دون رحمة !

في ذلك العام . . كان النُصر للملائكة .
قرّرت أن أصوم وقتها ربّما بتأثير كلامك ، وربّما أيضاً للهروب
منك إلى الله . أمّا قلت «العبادة درعنا السريّة» .
قلت سأحتمي من سهامك بالإيمان إذن . .
رحت أحاول أن أنساك وأنسى قطيعتك . . وأنسى حتّى وجودك
معي في المدينة نفسها .
كم من الأيام قضيتها في تلك الغيوبة الدينيّة . بين الرهبة
والذهول . . أحاول بترويض جسدي على الجوع أن أروّضه على
أحرمان منك أيضاً .
كنت أريد أن أستعيد سلطتي على حواسي التي تسلّلت إليها ،
وأصبحت تتلقّى أوامرها منك وحدك .
كنت أريد أن أعيد لذلك الرجل الذي كان يوماً أنا ، مكانته
الأولى قبلك . هيئته . . حرمة . . مبادئه . . وقيمه التي أعلنت عليها
الحرب .
أعترف أنّي نجحت في ذلك بعض الشيء ولكنني لم أنجح في
نسيانك أبداً .
كنت أقع في فخّ آخر لحبك . وأنا أكتشف أنّي كنت أثناء ذلك
أعيش بتوقيتك لا غير .
كنت أجلس إلى طاولة الإفطار معك . وأصوم وأفطر معك .

أَتَسَحَّرَ وَأَمْسَكَ عَنِ الْأَكْلِ مَعَكَ، أَتَنَاوَلُ نَفْسَ أَطْبَاقِكَ الرِّمَضَانِيَّةِ،
وَأَتَسَحَّرُ بِكَ... لَا غَيْرَ.

لَمْ أَكُنْ أَفْعَلُ شَيْئاً سِوَى التَّوَحُّدِ مَعَكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ دُونَ عِلْمِي .
كُنْتُ فِي النِّهَايَةِ كَالْوَطَنِ . كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يُوَدِّي إِلَيْكَ إِذَنْ . .
مِثْلَهُ كَانَ حَبْلَكَ مُتَوَاصِلاً حَتَّى بِصَدِّهِ وَبِصَمْتِهِ .
مِثْلَهُ كَانَ حَبْلَكَ حَاضِراً بِإِيمَانِهِ وَبِفِكْرِهِ .
فَهَلِ الْعِبَادَةُ تَوَاصِلُ أَيْضاً؟

* * *

انتهى رمضان . وها أنا أنزل من طوابق سموي العابر، وأتدحرج فجأة نحو حزيран . ذلك الشهر الذي كنت أملك أكثر من مبرر للتشاؤم منه .

فقد كان في ذاكرتي ما عدا حزيран ٦٧ ، ذكريات موجعة أخرى ارتبطت بهذا الشهر، آخرها حزيран ٧١ الذي قضيت بعضه في سجن للتحقيق والتأديب ، يستضاف فيه بعض الذين لم يتلعخوا الستهم بعد . .

أما أول ذكرى مؤلمة ارتبطت بهذا الشهر فكانت تعود إلى سجن (الكديّة) الذي دخلته يوماً في قسنطينة مع مئات المساجين إثر مظاهرات ماي ١٩٤٥ حيث تمّت محاكمتنا في بداية حزيран أمام محكمة عسكرية .

أيّ حزيран كان الأكثر ظلماً، وأيّة تجربة كانت الأكثر ألماً؟ أصبحت أتمحاشي طرح هذه الأسئلة، منذ اليوم الذي أوصلتني أجوبتي إلى جمع حقائبي ومغادرة الوطن .

الوطن الذي أصبح سجناً لا عنوان معروفاً لزنزانتة ؛ لا اسم رسمياً لسجنه ؛ ولا تهمة واضحة لمساجينه، والذي أصبحت أفاد إليه فجراً، معصوب العينين محاطاً بمجهولين، يقوداني إلى وجهة مجهولة أيضاً . شرف ليس في تناول حتى كبار المجرمين عندنا .

هل توقّعت يوم كنت شاباً بحماسه وعنفوانه وتطّرف أحلامه أنّه سيأتي بعد ربع قرن، يوم عجيب كهذا، يجردني فيه جزائري مثلي من

ثيابي... وحتى من ساعتني وأشيائي، ليزج بي في زنزانة (فردية هذه المرة) زنزانة أدخلها باسم الثورة هذه المرة...
الثورة التي سبق أن جرّدتني من ذراعي!
أكثر من سبب وأكثر من ذكرى كانت تجعلني أطيّر من ذلك الشهر الذي قضم الكثير من سعادتي على مرّ السنوات.
تراني في ذلك العام تحوّشت بالقدر أكثر، ليردّ على تشاؤمي بكلّ تلك الفجائع المذهلة التي حلّت بي في شهر واحد؟
أم فقط، كان ذلك هو قانون الفجائع والكوارث التي لا تأتي سوى دفعة واحدة «كي تحمي تيجبها شعرة... وكي تروح تقطع السلاسل».

كانت تلك عبثية الحياة، التي يكفي لمصادفة رقيقة كشعرة أن تأتيك بالسعادة والحبّ والحظّ الذي لم تكن تتوقّعه.
ولكن... عندما تقطع تلك الشعرة الرفيعة، فهي تكسر معها كلّ السلاسل التي كنت مشدوداً إليها، معتقداً أنّها أقوى من أن تكسرها شعرة!

قبلها لم أتنبّه إلى أنّ لقاءك ذات يوم، بعد ربع قرن من النسيان، كان تلك المصادفة الرفيعة كشعرة التي عندما جاءت جرّت معها سعادة العالم بأكمله، وعندما رحلت قطعت كلّ سلاسل الأحلام، وسحبت من تحتي سجّاد الأمان.

تلك الشعرة التي ها هي ذي وبعد ستّ سنوات، تعود اليوم لتكسر آخر أعمدة بيتي، وتهذّ السقف عليّ، بعدما اعتقدت أنّي في حيزران ٨٢ دفعت ما يكفي من الضريبة لينساني القدر بعض الوقت، بعدما لم يبق شيء واحد قائم في حياتي، يمكن أن أخاف عليه من السقوط...

كنت أجهل حين ذاك المادة الأولى في قانون الحياة:
«إن مصير الإنسان إنما هو خلاصة تسلسلات حمقاء... لا غير».

كان لبداية صيف ٨٢ طعم المرارة الغامضة، ومذاق اليأس
القاتل، عندما يجمع بين الخيبات الذاتية والخيبات القومية مرة
واحدة.
وكنت أعيش بين خبرين: خبر صمتك المتواصل، وخبر الفجائع
العربية.

كان قدري يتربص بي هذه المرة من طريق آخر. فقد جاء اجتياح
إسرائيل المفاجئ لبيروت في ذلك الصيف، وإقامتها في عاصمة عربية
لعدة أسابيع... على مرأى من أكثر من حاكم... وأكثر من مليون عربي...
جاء ينزل بي عدة طوابق في سلم اليأس.

أذكر أن خبراً صغيراً انفرد بي وقتها وغطى على بقية الأخبار. فقد
مات الشاعر اللبناني خليل حاوي متحرراً بطلقات نارية، احتجاجاً
على اجتياح إسرائيل للجنوب الذي كان جنوبه وحده، والذي رفض
أن يتقاسم هواءه مع إسرائيل..

كان لموت ذلك الرجل الذي لم أكن قد سمعت به من قبل، ألم
مميز فريد المرارة.

فعندما لا يجد شاعر شيئاً يحتاج به سوى موته... ولا يجد ورقاً
يكتب عليه سوى جسده... عندها يكون قد أطلق النار أيضاً علينا.
ذهب قلبي طوال تلك الأيام عند زياد..

كان قديماً يقول: «الشعراء فراشات تموت في الصيف». كان وقتها

مولعاً بالروائي الياباني «ميشيما» الذي مات متحرراً أيضاً بطريقة أخرى احتجاجاً على خيبة أخرى . .

تراه قالها يومها من وحي أحد عناوين ميشيما: «الموت في الصيف»، أم أنها فكرة مسبقة مادام يدافع عنها بسرقة قائمة بأسماء الشعراء الذين اختاروا هذا الموسم ليرحلوا؟

كنت أستمع إليه آنذاك، وأحاول أن أقابل نظراته التشاؤمية للصيف بشيء من السخرية، خشية أن ينقل عدواه إلي. فأقول له مازحاً: «يمكنني أن أسرد عليك أيضاً عشرات الأسماء لشعراء لم يموتوا في الصيف!». .

فيضحك ويرد: «طبعاً. . هناك أيضاً من يموتون بين صيفين!». فلا أملك إلا أن أجيبه: «يا لعناد الشعراء. . وحماتهم!». .

عاد زياد إلى الذاكرة. ورحلت أنساء فجأة أين يمكن أن يكون في هذه الأيام؟

في آية مدينة. . في آية جبهة. . في أي شارع، وكل الشوارع مطوّقة، وكل المدن مقابر جاهزة للموت؟

منذ رحل لم تصلني منه سوى رسالة واحدة قصيرة، يشكرني فيها على ضيافتي. كان ذلك منذ رحيله. . منذ ثمانية أشهر. فماذا تراه أصبح منذ ذلك الحين؟

لم أكن قلقاً عليه حتى الآن. فقد عاش دائماً وسط المعارك والكائنات، والقصف العشوائي. كان رجلاً يخافه الموت أو يحترمه، فلم يشأ أن يأخذه بالجملة.

وبرغم ذلك كانت عاطفة غامضة ما توقظ مخاوفي. ورحلت أنشاء وأنا أتذكر كلامه عن الصيف. . وموت ذلك الشاعر متحرراً.

ماذا لو كان الشعراء يقلّدون بعضهم في الموت أيضاً؟ ماذا لو لم

يكونوا فراشات فقط؟ لو كانوا مثل حيتان البالين الضخمة يُجسّون الموت جماعياً في المواسم نفسها. . على الشيطان ذاتها؟
لقد انتحر (همنغواي) أيضاً صيف ١٩٦١ تاركاً خلفه مسودة روايته الأخيرة «الصيف الخطر».

فأية علاقة بين الصيف وبين كل هؤلاء الروائيين والشعراء الذين لم يتلاقوا؟

كان لا بدّ ألاّ أتعمّق كثيراً في تلك الفكرة، وكأنني أستدرج بها القدر أو أتحداه، فيعطيني في ذلك الصيف تلك الصفحة التي لم أنهض منها بعد، برغم مرور السنوات.



مات زياد. .

وها هو خبر نعيه يقفز مصادفة من مربّع صغير في جريدة إلى العين. . ثم إلى القلب. . فيتوقّف الزمن. يتكور النبأ غصّة في حلقي، فلا أصرخ. . ولا أبكي.

أصاب بشلل الذهول فقط، وصاعقة الفجعة.
كيف حدث هذا؟ وكيف لم أتوقّع موته ونظراته الأخيرة لي كانت تحمل أكثر من وداع؟
ما زالت حقيقته هنا، في خزانة غرفته تفاجئني عدّة مرّات في اليوم وأنا أبحث عن أشياءني.

لقد عاد هناك دون أمتعة. أكان يعرف أنّه لن يحتاج إلى كثير من الزاد لرحلته الأخيرة، أم كان يفكر في العودة ليستقرّ هنا ويعيش إلى جوارك كما كنت أتوهم تحت تأثير غيرتي؟
لم أسأله يومها عن قراره الأخير. لقد سكن الصمت بيننا في الأيام

الآخيرة. وأصبحت أتحاشي الجلوس إليه. وكأنني أخاف أن يعترف لي
بأمر أخشاه أو بقرار أتوقعه.

لم يقل شيئاً وهو يسافر محملاً بحقيبة يد صغيرة. قال لي معذراً
فقط: «ألا يزعجك أن أترك هذه الحقيبة عندك. . أنت تدري أن
مضايقات المطارات كثيرة هذه الأيام، ولا أريد أن أنقل أشيائي مرة
أخرى من مطار إلى آخر. .»

ثم أضاف بما يشبه السخرية: «خاصة أن لا شيء ينتظرني في
المطار الأخير!».

لم يخطئ حدسه إذن. . لم يكن في انتظاره سوى رصاصة الموت.
مازلت أذكر قوله مرة: «لنا في كل وطن مقبرة. . على يد الجميع
متنا. . باسم كل الثورات وباسم كل الكتب. .»
ولم تقتله قناعاته هذه المرة. . قتله هوته فقط!

نخب ضحكته سكرت ذلك المساء.
نخب نبرته المميزة التي لا يشبهها صوت.
نخب حزنه المكابر أيضاً. . ذلك الذي لا يعادله حزن.
نخب رحيله الجميل. . نخب رحيله الأخير.
بكيته ذلك المساء. .

ذلك البكاء الموجه المكابر الذي نسرقه سرّاً من رجولتنا.
وتساءلت أي رجل فيه كنت أبكي الأكثر.
ولم البكاء؟

لقد مات شاعراً كما أراد. . ذات صيف كما أراد. . مقاتلاً في
معركة ما كما أراد أيضاً.
لقد هزمني حتى بموته.

تذكرت وقتها تلك المقولة الرائعة للشاعر والرسّام «جان كوكتو»

الذي كتب يوماً سيناريو فيلم يتصوّر فيه موته مسبقاً، فتوجّه إلى بيكاسو وإلى أصدقائه القلائل الذين وقفوا بكونه، ليقول لهم بتلك السخرية الموجهة التي كان يتقنها:

«لا تبكوا هكذا.. تظاهروا فقط بالبكاء.. فالشعراء لا يموتون. إنهم يتظاهرون بالموت فقط!».

وماذا لو كان زياد يتظاهر بالموت فقط؟ لو فعل ذلك عن عناد.. ليقنعني أن الشعراء يموتون حقاً في الصيف ويبعثون في كل الفصول؟

وأنت..

تراك تدرين؟ هل أذاك خبر موته؟ أم سيأتيك ذات يوم وسط قصة أخرى وأبطال آخرين؟

وماذا ستفعلين يومها؟ أستبكيه.. أم تجلسين لتبني له ضريحاً من الكلمات، وتدفيه بين دفّتي كتاب، كما تعودت أن تدفني على عجل كل من أحببت وقرّرت قتلهم يوماً؟ هو الذي كان يكره الرثاء، كراهيته لربطات العنق والبدلات الفاخرة، بأية لغة سترثينه؟

في الواقع.. لقد هزمك زياد كما هزمني.. وضعك أمام الحدّ الفاصل بين لعبة الموت.. والموت.. فليس كلّ الأبطال قابلين للموت على ورق.

هنالك من يختارون موتهم وحدهم.. ولا يمكننا قتلهم لمجرّد كتابة رواية.

وكان يكذب.. كبطل جاهز لرواية.

كان يكابر ويدّعي أن فلسطين وحدها أمه. ويعترف أحياناً فقط

بعد أكثر من كأس، أن لا قبر لأمه، تلك التي دفنت في مقابر جماعية
لمذبحة أولى كان اسمها (تلّ الزعتر).

وإنهم أخذوا صوراً تذكارية، ورفعوا علامات النصر ووقفوا
بأحذيتهم على جثث.. قد تكون بينها جثتها.

ولحظتها فقط كان يبدو لي أنه يبكي.

فَلِمَ البكاء زياد؟

في كلّ معركة كان لك جثة. في كلّ مذبحة تركت قبراً مجهولاً.
وها أنت ذا تواصل بموتك منطق الأشياء. فلا شيء كان في انتظارك
غير قطار الموت.

هنالك من أخذ قطار تلّ الزعتر، وهنالك من أخذ قطار (بيروت
٨٢) أو قطار صبرا وشاتيلا..

وهناك من هنا أو هناك، مازال ينتظر رحلته الأخيرة، في مخيم أو
في بقايا بيت، أو حتى في بلد عربي ما..

وبين كلّ قطار وقطار.. قطار.

بين كلّ موت وموت.. موت.

فما أسعد الذين أخذوا القطار الأول صديقي. ما أسعدهم وما
أتمسنا أمام كلّ نشرة أخبار!

بعدهم كثرت «وكالات السفريات» و«الرحلات الجماعية».
أصبحت ظاهرة عربية يحترفها كلّ نظام على طريقته..

بعدهم أصبح الوطن مجرد محطة. وأصبحت في أعماق كلّ منا
سكة حديدية تنتظر قطاراً ما.. يحزننا أن نأخذه.. ويحزننا أن يسافر دوننا.

رحل زياد إذن ..

وإذا بحقيته السوداء المنسية في ركن خزانته، منذ عدة شهور،
تغطي فجأة على كل أثاث البيت، وتصبح أثاثي الوحيد، حتى كأنني
لا أرى غيرها.

عندما أعود إلى البيت. أشعر أنها تنتظري وأني على موعد معه.
عندما أترك بيتي، أشعر أنني أهرب منها وأنها كانت بلغزها جائزة على
صدري، دون أن أدري.

ولكن كيف الهروب منها وهي ترتبص بي كل مساء، عندما أطفئ
جهاز التلفزيون، وأجلس وحيداً لأدخن سيجارة قبل النوم فيبدأ
العذاب ..

وأعود إلى السؤال نفسه: ماذا داخل هذه الحقيبة .. وماذا أفعل
بها؟

أحاول أن أتذكر ماذا يفعل الناس عادة بأشياء الموتى. بشياهم مثلاً
وحاجاتهم الخاصة. فتعود (أما) إلى الذاكرة ومعها تلك الأيام المؤلمة
التي سبقت وتلت وفاتها.

أتذكر ثيابها وأشياءها، أتذكر (كندورتها) العنابي التي لم تكن أجمل
أثوابها، ولكنها كانت أحب أثوابها إلي. فقد تعودت أن أراها تلبسها
في كل المناسبات.

كانت الثوب الذي يحمل الأكثر عطرها ورائحتها المميزة، رائحة
فيها شيء من العنبر، شيء من عرقها، وشيء شبيه بالياسمين المعتق.
مزيج من عطور طبيعية بدائية، كنت أستنشق معها الأمومة.

سألت عن تلك (الكندورة) بعد أيام من وفاة (أما) فقيل لي بشيء
من الاستغراب إنها أعطيت مع أشياء أخرى للنساء الفقيرات، اللاتي
حضرن لإعداد الطعام في ذلك اليوم.

صرخت: «إنها لي.. كنت أريدها..» ولكن خيالي الكبير
قالت: «إن أشياء الميت يجب أن تخرج من البيت قبل خروجه منه..
ما عدا بعض الأشياء الثمينة التي يحتفظ بها للذكرى أو للبركة»
ومقياس (أما).. ذلك السوار الذي لم يفارق معصمتها يوماً وكأنها
ولدت به، ماذا تراهم فعلوا به؟
لم أجروا على السؤال.

كان أخي حسان الذي لم يكن يتجاوز السنوات العشر، لا يعي
شيئاً مما يحدث حوله سوى وفاة (أما) وغيبها النهائي.
وكنت عاطفاً بحشد من النساء اللاتي كن يقررن كل شيء.. كأن
ذلك البيت أصبح نجاة لمن.

أين (مقياس) أما؟ من الأرجح أن يكون قد أصبح من نصيب
إحدى الحالات، أو ربما استحوذ عليه أبي مع بقية صيغتها ليقدمها
هدية لعروسته الجديدة.
كلما عدت إلى هذه الذكرى وتفصيلها، ازدادت علاقتي بهذه
الحقبة تعقيداً.

فقد كان لبعض الأشياء على بساطتها، قيمة لا علاقة لها بمقاييس
الآخرين للثروة والمخلفات. فماذا أفعل بحقيبة تركها صاحبها منذ
ثمانية أشهر دون أية وصية أو توضيح خاص.. ومات؟
هل أنصديق بها على الفقراء، مادامت أشياء الموق يجب أن تلحق
بهم، أم احتفظ بها كذكرى من صديق مادمن لا نحفظ إلا بالأشياء
التمينة؟

أهي عبء.. أم أمانة؟
وإذا كانت عبئاً.. لماذا أخذتها منه دون مناقشة، لماذا لم أقنع
بحملها معه، بحجة أنني قد أترك باريس مثلاً؟

وإذا كانت أمانة . . ألم تتحول بموت صاحبها إلى وصية. فهل
تصدق بوصايا الشهداء . . هل نضعها عند بابنا هدية لأول عابر
سبيل؟

وكنت أدري خلال تلك الأيام التي غشتها مسكوناً بهاجر تلك
الحقبة أنني أرهق نفسي هباءً، وأن محشواها وحده يمكن أن يحدّد
قيمتها وصفتها، ويحدّد بالتالي ما يمكن أن أفعله بها. ولذا بدأت
أخافها فجأة، أنا الذي لم أكن أعيرها اهتماماً من قبل.
ترى أكان موت زياد هو الذي أضفى عليها ذلك الطابع المريب،
أم أنني في الحقيقة، كنت أخاف أن تحمل لي شرك، تحمل شيئاً عنك
كنت أخاف أن أعرفه؟

كان لا بدّ أن أفتح تلك الحقبة . . لأغلق أبواب الشكّ.
أخذت ذلك القرار ذات ليلة سبت، بعد مرور أسبوع على قراءتي
خبر استشهاد زياد.

كان هناك احتمال آخر فقط، لا يخلو من الحماقة، كأن أخذها إلى
مقر المنظمة وأسلمها لأحدهم هناك، ليتكفل بإرسالها إلى أقرباء زياد
في لبنان أو في مكان آخر . .

ولكنني عدلت عن هذه الفكرة الساذجة وأنا أتذكّر أنه لم يعد لزياد
من أهل في لبنان. فلمن سيسلمها هؤلاء . . وعند أية قبيلة وأيّة
فصيلة سينتهي مصيرها؟

من سيكون «أبوها» . . وهنالك أكثر من «أبو» يعتقد أنه يتفرد
وحده بأبوة القضية الفلسطينية، وأنه الوريث الشرعي الوحيد
للشهداء . . وأن الآخرين خونة؟

ومن أدراني على يد مَنْ مات زياد؟
على يد المجرمين «الإخوة».. أم على يد المجرمين الأعداء؟ أما
كان يقول: «لقد حوّلوا القضية» إلى قضايا.. حتى يمكنهم قتلنا
تحت تسمية أخرى غير الجريمة..»
فبأية رصاصة مات زياد.. وخيرة الشباب الفلسطيني قتل
برصاص فلسطيني.. أو عربي لا غير؟

في ذلك المساء.. ارتجفت يدي وأنا أفك أقفال تلك الحقيبة.
شيء ما جعلني أذكّر أنني أملك يداً واحدة.
لم تكن الحقيبة مغلقة بمفتاح ولا بأقفال جانبية. وكأنه تعمّد أن
يتركها لي شبه مفتوحة كما يترك أحد الباب موارباً، في دعوة صامتة
للدخول.

شعرت بشيء من الارتياح لهذه «الالتفاتة»، ولهذا الإذن السابق أو
التأخّر عن أوامره، الذي منحه لي زياد لدخول عالمه الخاص دون
إحراج..

تراه فعل ذلك لأنه كان يكره الأقفال المخلوعة، والأبواب المفتوحة
عنوة كراهيته للمخبرين ولأقدام العسكر؟
أم لأنه كان يتوقّع يوماً كهذا؟
كلّ هذه الافتراضات لم تمنع قشعريرة من أن تسري في جسدي،
وفكرة أخرى تعبرني..

لقد كان يعرف مسبقاً أنّه ذاهب إلى الموت. وهذه الحقيبة كانت
معدّة لي منذ البداية. وكان بإمكانني أن أفتحها منذ عدّة شهور. فهي
لم تعد موجودة بالنسبة إليه منذ أن غادر هذا البيت.
إنّها طريقته في قطع جذور الذاكرة.. كالعادة.

رفعت النصف الفوقي للحقيية، بعد أن وضعتها على طرف
السريـر . . وألقيت نظرة أولى على ما فيها.

وإذا بالموت والحياة يهجمان عليّ معاً، وأنا أرى ثيابه أمامي، ألمس
كثرتة الصوفيّة الرماديّة، وجاكيته الجلديّ الأسود الذي تعودت أن
أراه به . .

ها أنا أملك حجة حضوره، وحجة غيابه. حجة موته . . وحجة
حياته. وها هي رائحة الحياة والموت تنبعثان معاً وبالقوة نفسها من
ثنايا تلك الحقيية.

ها أنا معه ودونه . . أمام بقاياها.

ثياب . . ثياب . . أغلفة خارجيّة لكتاب بشريّ.

واجهة قماشية لمسكن من زجاج.

انكسر المسكن وظلّت الواجهة، ذاكرة مثنيّة في حقيية، فلماذا ترك

لي الواجهة؟

بين الثياب قميص حريريّ ساهويّ اللون، مازال في غلافه اللامع
الشفاف . . لم يفتح بعد. أستنتج دون جهد أنّه هديّة منك.

ثمّ ثلاثة أشرطة موسيقيّة، أحدها لتيودوركيس، والأخرى
مقطوعات كلاسيكيّة أضعها جانباً وأنا أتذكّر أنّ زياد كلّما سافر ترك
لي أشرطة وكتباً . . وثياباً . . وحبّاً معلقاً أيضاً.

ولكن هذه هي المرّة الأولى التي يترك أشياءه مجموعة في حقيية،
مرتبة بعناية وكأنّه أعدها لنفسه وجمع فيها كلّ ما يحبّ استعداداً لسفر
ما. كأنّه أراد أن يأخذها معه حيث سيذهب وحيث كان يريد أن
يرتدي جاكيته الأسود المفضّل . . ويستمتع إلى موسيقى تيودوركيس!

وفجأة تقع يدي على روايتك أسفل الحقيية. فأصاب بهزة أولى.
ترتّش يدي، تتوقّف لحظات قبل أن تمسك بالكتاب. أجلس على

طرف السرير قبل أن أفتحه . وكأنني سأفتح طرداً ملغوماً .
أنصفُح الكتاب بسرعة ، وكأنني لا أعرفه .
ثم أتذكر شيئاً . . وأركض إلى الصفحة الأولى بحثاً عن الإهداء ،
فتقابلني ورقة بيضاء . . دون كلمة واحدة . دون توقيع أو إهداء .
فأشعر بنوبة حزن تشلّ يدي ، وبرغبة غامضة للبكاء .
لمن منا أهديت نسختك المزوّرة؟ وكلانا يملك منك نسخة دون
توقيع؟

من منا أوهمته أنه يسكن الصفحات الداخلية للكتاب - كما يسكن
قلبك - وأنه ليس في حاجة إلى إهداء؟
وهل صدّقت زياد . . هل صدّقتك - هو أيضاً - لدرجة أنه قرّر أن
يأخذ معه هذه الرواية ليعيد قراءتها ، حيث سيذهب . . هناك !
كانت تلك الصفحة البيضاء كافية لإدانتك . كانت تقول بالكلمات
التي لم تكتب ، أكثر مما كان يمكن أن تكتبي . . فهل كان مهماً بعد
ذلك ألا أجد آية رسالة لك في تلك الحقيبة؟
لقد كنت امرأة تتقن الكتابة على بياض . . ووحدني كنت أعرف
ذلك .

ما عدا روايتك لم أجد سوى مفكّزة سوداء متوسطة الحجم
موضوعة أسفل الحقيبة - أيضاً - كسرّ عميق .
ما كدت أرفعها حتى وقعت منها «البطاقة التبرّيقالية» التي كان
يستعملها زياد للتنقل بالميترو . داخلها قصاصة بتاريخ (أكتوبر) الشهر
الأخير الذي رحل فيه .

أنظر إلى تلك البطاقة على عجل ، وأنا لا أفكر إلا في الاطلاع على
تلك المفكّزة . ولكن صورته تستوقفني . .
مربكة صور الموق . .

ومربكة أكثر صور الشهداء . موجعة دائماً . فجأة يصبون أكثر
حزناً وأكثر غموضاً من صورتهم .

فجأة . . يصبحون أجمل بلغزهم ، ونصبح أبشع منهم .

فجأة . . نخاف أن نطيل النظر إليهم .

فجأة . . نخاف من صورنا القادمة ونحن نتأملهم !

كَمْ كان وسيماً ذاك الرجل .

تلك الوسامة الغامضة المخفية التي لا تفسيرها . ها هو حتى في
صورة سريعة تلتقط له في ثلاث دقائق ، بخمسة فزئكات ، يمكنه أن
يكون مميزاً .

يمكنه أن يكون حتى بعد موته مغرباً ، بذلك الحزن الغامض
الساخر . وكأنه يسخر مسبقاً من لحظة كهذه .

وأفهم مرة أخرى أن تكوني أحببته . لقد أحببته قبلك بطريقة
أخرى . كما نحب شخصاً نعجب به ونريد أن نشبهه ، لسبب أو
لآخر . فنكثر من الجلوس إليه والخروج برفقته والظهور معه . وكأننا
نعتمد في أعماقنا أن الجمال والجنون والموهبة والصفات التي تبهرنا فيه
قد تكون قابلة للعدوى والانتقال إلينا عن طريق المعاشرة .

آية فكرة حمقاء كانت تلك ! لم أكتشف أنها كانت سبب كارثتي إلا
مؤخراً . عندما قرأت قولاً رائعاً لكاتب فرنسي (رسام أيضاً .) « لا
تبحث عن الجمال . . لأنك عندما تجده ، تكون قد شوّهت نفسك ! »
ولم أكن فعلت شيئاً غير هذه الحماسة .

أعدت بطاقته وصورته إلى الحقيقة ، ورحلت ألقب تلك المفكرة . .

كنت أشعر أنها تحمل شيئاً قد يفاجئني ، قد يعكّر مزاجي ويشرع
الباب للعواصف المتأخرة عن مواسمها . فماذا تراه كتب في هذا
الدفتري ؟

كنت أدري أن الحقيقة تولد صغيرة دائماً. وكنت أشعر أن الحقيقة هنا كانت صغيرة في حجم مفكرة جيب. فخفت المفكرة. .
بحثت عن سيجارة أشعلها. واستلقيت على ذلك السرير لأتصفح جرحي على مهل. .

كانت الصفحات تتألى مليئة بالمقاطع الشعرية المبعثرة بين تاريخ وآخر. بالكتابات الهامشية. . ثم بقصائد أخرى تشغل وحدها أحياناً صفحتين أو ثلاثاً. ثم خواطر قصيرة من بضعة سطور مكتوبة وسط الصفحة بلون أحمر دائماً. . وكأنه كان يريد أن يميزها عن بقية ما كتب.

ربما لأنها لم تكن شعراً وربما لأنها كانت أهم من الشعر.
من أين أبدأ هذه المفكرة؟ . من أي مدخل أدخل هذه الدهاليز السرية لزياد، التي حلمت دائماً بالتسلل إليها عسائي أكتشفك فيها؟
كانت العناوين تستوقفني، فأبدأ في قراءة قصيدة. أحاول فك لغز الكلمات المتقاطعة. . أبحث عنك وسط الرموز تارة، ووسط التفاصيل الأكثر اعتراً أحياناً أخرى.

ثم لا ألبث أن أتركها وألثت مسرعاً إلى صفحة أخرى، بحثاً عن حجج أخرى، عن إيضاحات أكثر، عن كلمات تقول لي بالأسود والأبيض. . ما الذي حدث.

ولكنني كنت في الواقع على درجة من الانفعال والأحاسيس المتطرفة المتناقضة التي كانت تكاد تشل تفكيري، وتجعلني عاجزاً عن التمييز بين ما أقرأ وما أتوهم قراءته.

كان منظر تلك الحقيقة المفتوحة أمامي بأشوائها المبعثرة، وبذلك الدفتر الأسود الصغير الذي كنت ممسكاً به تجعلني أخجل من نفسي في تلك اللحظة. وكأنني بفتحها لم أفعل شيئاً غير تشريح جثة زياد

المبعثرة بأشائها وأشلائها على سريري ، لأخرج منها هذا الدفتر الذي
هو قلبه لا غير .

قلب زياد الذي نبض يوماً لك ، والذي ها هو اليوم حتى بعد موته
يواصل نبضه بين يديّ على وقع الكلمات المشحونة حسرة وخوفاً . .
حزناً . . وشهوة . .

«على جسدي مرّري شفتيك
فما مرّروا غير تلك السيوف عليّ
أشعليني أيا امرأة من لب
يقربنا الحب يوماً
يباعدنا الموت يوماً
ويحكمنا حفنة من تراب . .
تقربنا شهوة للجسد
ثمّ يوماً
يباعدنا الجرح لما يصير بحجم جسد
توحّدت فيك
أيا امرأة من تراب ومرمر
سقيتك ثمّ بكيت وقلت . .
أميرة عشقي . .
أميرة موتي
تعالى !»

كم من مرّة قرأت هذا المقطع . بأحاسيس جديدة كلّ مرّة ، بشكّ
جديد كلّ مرّة ، وتساءلت بعجز من لا يحترف الشعر . . أين ينتهي
الخيال . . وأين يبدأ الواقع ؟

أين يقع الحدّ الفاصل بين الرمز والحقيقة؟
كانت كلّ جملة تلغي التي سبقتها. وكانت المرأة هنا جسداً ملتصقاً
بالأرض إلى حدّ لم يعد فيه الفصل أو التمييز بينهما ممكناً.
ولكن كانت هناك كلمات لا تخطئ بواقعيتها وبشهوتها المفصّوحة:

«مرري على جسدي شفّتيك»

«أشعليني أيا امرأة من هب»

«تقرّبنا شهوة للجسد»

«توحّدت فيك»

أكانت الثورة إذن حشواً من الكلمات لا أكثر برّاً بها زياد نفسه؟
كان يفضّل أن يهزمه الموت ولا تهزمه امرأة. قضية كبرياء..
مراوغة شخصيّة.. «أميرة موتي.. تعالي..».

ها هو الموت جاء أخيراً. وأنت تراك جئت في ذلك اليوم؟
هل انفرد بك حقاً.. أمّرت على جسده شفّتيك.. أشعلته..
أتوحّدت فيك.. وهل..؟

من الأرجح أن يكون ذلك قد حصل. فتاريخ هذه القصيدة
يصادف تاريخ سفري إلى إسبانيا.

كان القلب قد بدأ يطفح بعاطفة غريبة لا علاقة لها بالغيرة.
نحن لا نشعر بالغيرة من الأموات.. ولكننا لا يمكن أن نغيّر طعم
المراة في هذه الحالات.

فهل أمنع عينيّ اللّتين يستوقفهما اللّون الأحمر، من أن تقرّأ هذه
الخاطرة.. دون دموع.

«لم يبق من العمر الكثير

أتيتها الواقعة في مفترق الأضداد

أدري..

ستكونين خطيبي الأخيرة

أسألك .

حتى متى سأبقى خطيبتك الأولى

لك متسع لأكثر من بداية

وقصيرة كلِّ النهايات .

إني أنتهي الآن فيك

فمن يعطي للعمر عمراً يصلح لأكثر من نهاية!

تستوقفي بعض الكلمات، وتستدرجني إلى الدهول . .

ويأخذ الخبر الأحمر فجأة لوناً شبيهاً بدم ورديّ خجول يتدحرج

على ورق . . ليصبح لون «خطيبتك الأولى» . . .

فأسرع بإغلاق تلك المفكرة وكأنني أخاف إن أنا واصلت قلب

الصفحات، أن أفاجئكما في وضع لم أتوقعه!

يحضرنى كلام قاله زياد مرة في زمن بعيد . . بعيد .

قال: «أنا أكنّ احتراماً كبيراً لأدم، لأنه يوم قرّر أن يذوق التفاحة

لم يكتف بقضمها، وإنما أكلها كلها . ربّما كان يدري أنه ليس هناك

من أنصاف خطايا ولا أنصاف ملذّات . . ولذلك لا يوجد مكان

ثالث بين الجنة والنّار . وعلينا - تفادياً للحسابات الخاطئة - أن ندخل

إحدهما بجدارة!»

كنت آنذاك معجباً بفلسفة زياد في الحياة . فما الذي يؤلني اليوم في

أفكار شاطرته إيّاها؟

ترى كونه سرق تفأحته هذه المرة من حديقتي السريّة؟ أم كونه

راح يقضمها أمامي . . بشهية من حسم اختياره وارتاح؟

«لا تملك الأشجار إلّا

أن تمارس الحبّ واقفة أيضاً

يا نخلة عشقي . . قفي
وحدي حملت حداد الغابات التي
أحرقوها
ليرغموا الشجر على الركوع
«واقفة تموت الأشجار»
تعالى للوقوف معي
أريد أن أشيع فيك رجولتي
إلى مثواها الأخير . .

فجأة بدأت أشعر بحماقة فتح تلك المفكرة .
أنعتني تأويلاتي الشخصية لكل كلمة أصادفها .
وبدأت أشعر بالندم . فأنا برغم كل شيء لا أريد أن أكره زياد
اليوم . لا أستطيع ذلك .
لقد منحه الموت حصانة ضد كراهيتي وغيوتي . وها أنا صغير أمامه
وأمام موته .
ها أنا لا أملك شيئاً لإدانته ، سوى كلماته القابلة لأكثر من تأويل .
فلماذا أصرّ على تأويلها الأسوأ؟

لماذا أطارده بكل هذه الشبهات ، وأنا أدري أنه شاعر يحترف
الاعتصاب اللغوي ، نكاية في العالم الذي لم يخلق على قياسه ، بل ربما
خلق على حسابه . فهل أطلق النار عليه بتهمة الكلمات ؟
لقد ولد هكذا واقفاً . . ولا قدر له سوى قدر الأشجار . فهل
أحاسبه حتى على طريقة موته . . وعلى طريقة حبه ؟
وأذكر الآن أنني عرفته واقفاً .

أذكر ذلك اليوم الذي زارني فيه في مكتبي لأول مرة ، عندما

أبدت له بعض ملاحظاتي عن ديوانه، وطلبت منه أن يحذف بعض القصائد.

أذكر صمته، ثم نظرت التي توقفت بعض الوقت عند ذراعي المتورة، قبل أن يقول تلك الجملة التي كانت بعد ذلك سبباً في تغيير مجرى حياتي. قال لي: «لا تبت قصائدي.. سيدي، ردّ لي ديواني. سأطبعه في بيروت..»

لماذا قبلت إهانتة يومها، دون ردّ؟ لماذا لم أصفعه بيدي الثانية غير المتورة وأرمي له بمخطوطه؟

الآنني احترمت فيه شجاعة الأشجار ووحدها، في زمن كانت فيه الأقلام سنابل تنحني أمام أول ريح؟
واقفاً عرفت زياد.. وواقفاً غادرتي.

أمام مخطوط تركني كأول مرة. ولكن دون أي تعليق هذه المرة.
لقد أصبح بيننا - منذ ذلك الحين - تواطؤ الغابات... واليوم صمتها.

فجأة استيقظت داخلي بقايا مهنة سابقة. ورحت أقلب ذلك الدفتر وأعدّ صفحاته وأنفحصها بعيني ناشر. وإذا بحماس مفاجئ يدبّ في قلبي ويفطّي على بقية الأحاسيس. وقرار جنوني يسكنني.

سأنشر هذه الكتابات في مجموعة شعرية، قد أسميها «الأشجار» أو «مسودّات رجل أحبّك».. أو عنواناً آخر قد أعرّ عليه أثناء ذلك. المهم.. أن تصدر هذه الخواطر الأخيرة لزياد. أن أمنحه عمراً آخر لا صيف فيه.. فهكذا ينتقم الشعراء دائماً من القدر الذي يطاردهم كما يطارد الصيف الفراشات..

إنهم يتحوّلون إلى دواوين شعر. فمن يقتل الكلمات؟

أتقذني دفتر زياد من اليأس دون أن أدري . .
منحني مشاريع لأيام كانت فارغة من أي مشروع . فقد حدث في
تلك الأيام أن قضيت ساعات بأكملها وأنا أنسخ قصيدة، أو أبحث
عن عنوان لأخرى، وأحاول ترتيب فوضى تلك الخواطر والمقاطع
المبعثرة، لوضعها في سياقٍ صالحٍ للنشر .
كنت أشعر بلذة ومرارة معاً . .
لذة الانحياز للفراشات، وبعث الحياة في كلماتٍ وحدي أملك
حقاً وأدها في مفكرة، أو منحها الخلود في كتاب .
ومرارة أخرى . .

مرارة التنقيب في أوراق شاعر مات، والتجول في دورته الدموية،
في نبضه وحزنه ونشوته، ودخول عالمه المغلق السري دون تصريح ولا
رخصة منه، والتصرف نيابة عنه في الاختيار وفي الإضافة والحذف .
أحقاً كنت أملك صلاحية كهذه . . ؟ ومن يمكن أن يدعي أنه
لسبب أو لآخر موكل بمهمة كهذه؟
ولكن من يجرؤ أيضاً على الحكم بالموت على كلمات الآخرين،
ويقرر الاستحواذ عليها وحده؟

كنت أدري في أعماقي، أنه إذا كان لموت الشعراء والكتاب نكهة
حزن إضافية، تميزهم عن موت الآخرين، فربما تُعزى لكونهم
وحدهم عندما يموتون يتركون على طاولتهم ككلّ المسدعين، رؤوس
أقلام . . رؤوس أحلام، ومسودات أشياء لم تكتمل .
ولذا فإن موتهم يمجنا . . بقدر ما يحزننا .

أما الناس العاديون، فهم يحملون أحلامهم وهمومهم ومشاعرهم
فوقهم . إنهم يلبسونها كل يوم مع ابتسامتهم، وكآبتهم،
وضحكتهم، وأحاديثهم، فتموت أسرارهم معهم .

في البدء، كان سرّ زياد يجرّني، قبل أن يستدرجني إلى البوح،
وإذا بكتاباتهِ تخلق عندي رغبة لا تقاوم للكتابة.

رغبة كانت تزداد في تلك المرّات التي كنت أشعر أنّ كلماته لا
تطال أعماقي، وأنها أقصر من جرحي. ربّما لأنّه كان يجهل النصف
الأخر للقصّة، تلك التي كنت أعرفها وحدي.

متى وُلدت فكرة هذا الكتاب؟

ترى في تلك الفترة التي قضيتها محاصراً بإرث زياد الشعريّ، في
ذلك اللقاء غير المتوقّع لي مع الأدب والمخطوطات التي انفصلت عنها
منذ انفصالي عن وظيفتي.. منذ عدّة سنوات في الجزائر؟

أم في لقائي غير المتوقّع الآخر، مع مدينة حجز لي القدر نفسه
موعداً متأخراً معها؟

أكان يمكن لي أن أجِد نفسي وجهاً لوجه مع قسنطينة، دون سابق
إنذار، دون أن تنفجر داخلي الدهشة، شلّالات شوق وجنون
وخيبة..

فتجرّفي الكلمات.. إلى حيث أنا!

الفصل الخامس

مازلت أذكر ذلك السبت العجيب.. عندما رنّ الهاتف ذلك المساء بتوقيت نشرة الأخبار.
كان سي الشريف على الخطّ بحرارة وشوق أسعداني في البداية، وأخرجاني من رتابة صمّي اللَّيْلِ ووحده.
كان صوته عندي عيداً بحدّ ذاته والصلة الوحيدة التي ظلّت تربطني بك، بعدما سدّت كلّ الطرق الموصلة إليك.
وكنّت أستبشر خيراً به. إنه يحمل دائماً احتمال لقاء بك بطريقة أو بأخرى.

ولكنّه هذه المرّة كان يحمل لي أكثر من هذا..
راح سي الشريف يعتذر أولاً عن انقطاعه عني منذ سهرتنا الأخيرة، بسبب مشاغله الكثيرة، وزيارات المسؤولين التي لا تتوقّف إلى باريس.. قبل أن يضيف:

«إنني لم أنسك طوال هذه الفترة.. لقد علّقت لوحتك في الصالون وأصبحت أتقاسم معك البيت.. أتدري، لقد تركت التفاتتك تلك أثراً كبيراً في نفسي، وخلقت لي أكثر من حاسد.. وكلّ مرّة لا بدّ أن أشرح للآخرين صداقتنا وعلاقتنا التي تعود إلى أيام الشباب».

كنت أستمع له وكان القلب قد ذهب بحماقة على عجل إليك..

كان يكفي أن أعرف أن تلك المكالمات تأتي من بيتٍ أنت فيه،
لأعود عاشقاً مبتدئاً بكلّ انفعالات العشاق وحماساتهم .

ولكن صوته أعادني إلى الواقع عندما سألتني :

- أتدري لماذا طلبتك الليلة؟ إنني قرّرت أن أصحبك معي إلى
قسنطينة . . لقد أهديتني لوحة عن قسنطينة وأنا سأهديك سفرة
إليها . .

صحت متعجباً :

- قسنطينة . . لماذا قسنطينة؟

قال وكأنه يزف لي بشري :

- لحضور عرس ابنة أخي الطاهر . .

ثم أضاف بعد شيء من التفكير .

- . . ربّما تذكرها . لقد حضرت افتتاح معرضك منذ شهر مع

ابنتي ناديا . .

شعرت فجأة أن صوتي انفصل عن جسدي ، وأنني عاجز عن أن

أجيب بكلمة واحدة .

أمكن للكلمات أن تنزل صاعقة على شخص بهذه الطريقة؟

أمكن للجسد أن يصبح إثر كلمة، عاجزاً عن الإمساك بسماعة؟

يحدث في لحظات كهذه، أن أتذكر فجأة أنني أملك يداً واحدة . .

سحبت بقدمي كرسيّاً مجاوراً وجلست عليه .

وربّما لاحظ سي الشريف صمتي وحدث شيء ما . . فقطع ذهولي

قائلاً :

- يا خويا . . ما الذي يخيفك في سفر كهذا؟ لقد جاء ذكرك منذ

أيام في جلسة مع بعض الأصدقاء في الأمن، وأكدوا لي أنه لا توجد

آية تعليقات في شأنك، وأن بإمكانك أن تزور الجزائر متى شئت . لقد

تغيرت الأمور كثيراً منذ مجيئك، ولا بد أن تعود إلى الجزائر ولو في زيارة خاطفة.. إنني أتحمل مسؤولية عودتك.. ستافرم معي وعلى حسابي.. فما الذي يقلقك إلى هذا الحد؟
أجبهته وأنا أبحث عن مخرج لتوترتي:
- الحقيقة أنني لست مستعداً نفسياً بعد لزيارة كهذه.. وأفضل أن تكون في ظروف أخرى..

قال:

- أنت لن تجد ظروفاً أحسن من هذه للعودة.. أنا واثق من أنني إذا لم أجرك هكذا من يدك هذه المرة، فقد تمضي عدة سنوات أخرى قبل أن تعود إليها. هل ستقضي عمرك في رسم قسنطينة؟ ثم ألا يسعدك حضور زواج ابنة سي الطاهر؟ إنها ابنتك أيضاً، لقد عرفتها طفلة ويجب أن تحضر عرسها للبركة.. افعل هذا لوجه أبيها، يجب أن تقف معي في ذلك اليوم مكان سي الطاهر..
كان سي الشريف يعرف نقطة ضعفي، ويدري مكانة سي الطاهر عندي. فراح يحرك ما تبقى داخلي من وفاء لماضينا وذاكرتنا المشتركة.
كان في ذلك الموقف شيء من السريالية واللامعقول.
كنت أقف على الحدّ الفاصل بين العقل والجنون، بين الضحك والبكاء..

«لقد عرفتها طفلة..» لا يا صديقي! عرفتها أنثى أيضاً وهذه هي المشكلة. «إنها ابنتك أيضاً..» لا لم تكن ابنتي، كان يمكن فقط أن تكون كذلك ولكن.. كان يمكن أيضاً أن تكون حبيبتي.. كان يمكن أن تكون زوجتي.. كان يمكن أن تكون لي.
سألته:

- لمن ستكون؟

قال :

- أعطيتها لـ (سي...) لقد سهرت معه المرّة الماضية.. لا أدري ما رأيك فيه، ولكنني أعتقد أنّه رجل طيّب برغم ما يُقال عنه. كان في جملة الأخيرة جواب مسبق على ردّ كان يتوقّعه.

(سي...) إذن ولا أحد غيره!

«رجل طيّب..» هل الطيبة هي حقاً صفته المميّزة الأولى؟ أعرف أنا أكثر من رجل طيّب كان يمكن إذن أن يصبح زوجها.

ولكن (سي...) كان أكثر من ذلك. كان رجل الصفقات السريّة والواجهات الأماميّة. كان رجل العملة الصعبة والمهّمات الصعبة. كان رجل العسكر.. ورجل المستقبل. فهل مهمّ بعد هذا أن يكون طيّباً أو لا يكون؟

تجمّعت في الحلق أكثر من غصّة، منعني من أن أبدي رأيي فعلاً في ذلك الشخص، وأسأل سي الشريف سؤالاً واحداً فقط: تُراه يعتقد حقاً أنّ بإمكان رجل لا أخلاق له.. أن يكون طيّباً؟

أم تراني صمّت لأنني كنت بدأت لا أفرّق كثيراً بينه وبين «صهره» وأنا أسأل نفسي سؤالاً آخر.. هل يمكن لشخص يتصاهر مع رجل قدر.. أن يكون نظيفاً حقاً؟

فقدت فجأة شهية الكلام. أخرستني الصدمات المتتالية في مكالمة واحدة. فاختصرت كلّ الكلام في جملة واحدة قابلة لأكثر من تفسير:

- كلّ شيء مبروك..

ردّ سي الشريف حسب التقاليد:

- الله يهنيك.. وبارك فيك..

ثمّ أضاف بسعادة من نجح في امتحان:

- إذن سنراك.. راني نعوّل عليك.. سنسافر بعد عشرة أيّام

تقريباً فالزواج سيكون في ١٥ يوليو . أطلبني هاتفياً كي نتفق على تفاصيل سفرك .

انتهت المكالمة ، وبدأت مرحلة جديدة من حياتي .
بدأ عمري الآخر الذي أعلنت يومها رسمياً خروجك منه .
ولكن . . هل خرجت حقاً؟

أحسست أن رقعة الشطرنج أصبحت فارغة إلّا مني . كانت كلّ
المربّعات بلون واحد لا غير . . وكلّ القطع أصبحت قطعة واحدة
أمسكها وحدي . . بيد واحدة!

فهل كنت الراح أم الخاسر الوحيد . . كيف لي أن أعرف ذلك؟
لقد تقلّصت الرقعة ، ومعها مساحة الأمل والترقب ، حسمها
طرف آخر ، كنّا نلعب جميعاً منذ البدء نيابة عنه : إنه القدر!

كنت أحمّد على ذلك القدر أحياناً ، ولكن كنت كثيراً ما أمتسلم
له دون مقاومة . بلذّة غامضة وبفضول رجل يريد أن يعرف كلّ مرة ،
إلى أيّ حدّ يمكن لهذا القدر أن يكون أحق ، ولهذا الحياة أن تكون
غير عادلة ، وأن تكون عاهرة لا تهب نفسها سوى لذوي الثروات
السريعة ، ولأصحاب السلوك المشبوه الذين يغتصبونها على عجل . .
وعندها كنت أجد سعادتي النادرة في مقارنة نفسي بتفاهة
الآخرين . وأجد في هزائمي الذاتية ، دليلاً على انتصارات أخرى
ليست في متناول الجميع .

تراني في لحظة جنون كهذه قبلت أن أحضر عرسك ، وأن أكون
شاهداً على مأثمي ، وعلى الحقارة التي يمكن أن يصلها البعض دون
خجل؟

أم تراني ككلّ المبدعين ، كنت مازوشياً بتفوّق ، وأصرّ في غياب
السعادة المطلقة ، أن أعيش حزني المطلق ، وأن أذهب معك إلى أبعد

نقطة في تعذيب النفس، فأمارس كيّ هذا القلب بنفسى ليشفى منك؟

كرهتك ذلك اليوم بشراة لم أكن عرفتها من قبل .
انقلبت عواطفى مرة واحدة إلى عاطفة جديدة، فيها مزيج من
المرارة والغيرة والحقد . . وربما الاحتقار أيضاً .
ما الذي أوصلك هنا؟

وهل النساء حقاً مثل الشعوب، يشعرن دائماً بإغراء . . وبضعف
ما تجاه البدلات العسكرية . . حتى الباهتة منها؟!
مازلت حتى اليوم أتساءل . . كيف قبلت يومها أن أذهب إلى
قسنطينة لحضور عرسك؟

كنت أعرف مسبقاً أنّ دعوتي لم تكن مجرد نية حسنة، والتفاته ودّ
وصداقة لرجل تجمعي به أكثر من قرابة .
ولكن كانت قبل كلّ شيء، استغلالاً للذاكرة واستعمالاً سيّئاً
لاسّم من الأسماء القليلة التي ظلّت نظيفة في زمن انتشر فيه وباء
القذارة .

كان سي الشريف يدري أنّه يقوم بصفقة قذرة، وأنّه يبيع بزواجه
اسم أخيه، وأحد كبار شهدائنا مقابل منصب وصفقات أخرى . .
وأنه يتصرّف باسمه، بطريقة لم يكن ليقبلها لو كان حيّاً .
وكان يلزّمه أنا . . ولا أحد غيري لأبارك اغتصابك، أنا صديق
سي الطاهر الوحيد ورفيق سلاحه .

أنا الهيكل المفتت الأطراف الأخير، الذي بقي من ذلك الزمن
الغابر .

كانت تلزّمه مباركتي، لئسكت بحضورى ضميره ويعتقد أنّ سي
الطاهر سيغفر له، هو الذي عاش من اسمه طويلاً .

فلماذا قبلت الدخول في تلك اللعبة؟ لماذا قبلت دون نقاش أن
أسلمك لأظافرهم؟

لأنني أدري أن مباركتي قضية شكلية، لن تقدم ولن تؤخر في
شيء، وأنه لو لم يزوجك من (سي...) لكنت من نصيب
(سي...) آخر من السادة الجدد.

فماذا يهم في النهاية، أي اسم من أسماء الأربعين لصاً ستحملين!

لماذا قبلت السفر... الكل هذا أم لأنني استسلمت لإغراء
قسنطينة، ولندائها السري الذي كان يلاحقني ويطاردني منذ الأزل،
كما يطارد نداء الحوريات في الجزر المسحورة أولئك البحارة الذين
نزلت على بواجرهم لعنة الآلهة..

أم ترائي كنت عاجزاً عن أن أخلف موعداً معك، حتى ولو كان
ذلك مناسبة زواجك؟

هنالك قرارات وليدة ضدها، فكيف يمكن لي اليوم أن أفسر قراراً
أخذته خارج المنطق؟

كنت كعالم فيزيائي مجنون، يريد أن يجمع بين صيغتين متفجرتين
في الوقت نفسه: أنت.. وقسنطينة، صيغتين صنعتها بنفسني في نوبة
شوق وعشق وجنون، قست قدرتهما التدميرية كلاً على انفراد، وأردت أن
أجرّبهما معاً كما تجرّب قبيلة ذرية في صحراء.

أردت أن أعيشهما معاً في انفجارٍ داخلي واحد.. يهزني وحدي..
يدمرني وحدي.. وأخرج بعده من وسط الحرائق والدمار، إمّا رجلاً
آخر.. أو أشلاء رجل.

ألم تقولي مرة إن هناك رغبة سرّية تسكننا جميعاً اسمها «شهوة
الذهب»؟

اكتشفت بعدها بنفسي التطابق بينك وبين تلك المدينة .
كان فيكما معاً، شيء من اللهب الذي لم ينطفئ . . وقدرة خارقة
على إشعال الحرائق . .
ولكنكما معاً، كنتما تتظاهران بإعلان الحرب على المجوس . إنه
زيف المدن العريقة المحترمة . . ونفاق بنات العائلات . . أليس
كذلك؟



جاء صوتك يوم الاثنين هكذا دون مقدمات . دون أية نبرة حزن
أو فرح مميزة . . دون ارتباك ولا أي خجل واضح .
ورحت تتحدثين إليّ، وكأنك تواصلين حديثاً بدأنه الباردة، كأن
صوتك لم يعبر هذا الخطّ الهاتفيّ منذ أكثر من ستة أشهر .
ما أغرب علاقتك بالزّمن . . وما أغرب ذاكرتك !
- أهلاً خالد . . هل أيقظتك؟
كان يمكن أن أقول لا، وكان من الأصحّ أن أقول نعم . ولكنني
قلت بصوت من يخرج من غيبوبة عشق :
- أنت . . ؟ !
ضحكت . . تلك الضحكة الطفولية التي أسرني يوماً وقلت :
- أعتقد أنني أنا . . هل نسيت صوتي ؟ !
ثم أضفت أمام صمتي :
- كيف أنت ؟
- أحاول أن أصمد . .
- تصمد في وجه من ؟
- في وجه الأيام . .

قلت بعد شيء من الصمت . . وكأنك شعرت بذنبٍ ما :
- كلنا نحاول ذلك . .

ثم أضفت :

- هل أخبرني هي التي أزعجتك ؟
عجيب سؤالك . عجيب كذاكرتك . كعلاقتك بمن تحبين !
قلت :

- أخبرك ليست سوى جزء من تقلبات الأيام .
أجبت ببراءة كاذبة :

- كنت أتوقع أن تستقبل خبر زواجي بطريقة أخرى . لقد سمعت
عمي يتحدث إليك أمس على الهاتف ، وتعجبت أن تكون قبلت
المجيء إلى قسطنطينة دون مناقشة أو تردد . لقد أسعدني ذلك كثيراً ، وقررت
أن أطلبك . . استنتجت أنك لم تعد عاتباً علي . . فأنا أريد أن تحضر إلى هذا
العرس . . من الضروري أن تحضر . .

لا أدري لماذا أعادتني كلماتك إلى مكالمتي السابقة مع سي
الشريف ، وإلى ذلك الموقف العجيب ، عندما كان يقنعني أنك ابنتي .
شعرت مرة أخرى أنني أقف على الحد الفاصل بين العقل
واللاعقل ، بين البكاء والضحك . .

سألتك بشيء من المראה الساخرة :

- أتمنى أن أفهم سر إصراركم جميعاً على حضوري . .
قلت :

- سبب إصرار عمي على حضورك لا يهمني إطلاقاً . ولكنني أدري
أنني سأكون نعيمة لو تغيبت عن المجيء . .
أجبتك بتهكم :

- هل السادية . . آخر هواياتك؟

قلتُ بنبرة فاجأتني :

- لقد أحببت هذه المدينة من أجلك .

أحببتك بتلك الطريقة نفسها التي أحببتني بها يوماً، وأنا أعترف لك
«لقد أحببتك يوم قرأتك» فقلتُ «كان ينبغي ألاّ تقرأني . .» .

قلتُ :

- كان ينبغي ألاّ تحبّها إذن . .

وإذا بجوابك يدهشي . . يوقظني . . ويثّ شحنة كهربائية في
جسدي . .

- . . . ولكنني أحببتك !

ها هي الكلمة التي انتظرتها عاماً دون جدوى . فهل أشكرك أم
أبكي . أم أسألك لماذا اليوم . . لماذا الآن . . ولماذا كلّ هذا العذاب
إذن؟

سألتك فقط :

- وهو؟

أحببتني وكأنّك تتحدّثين عن شيء لا يعنيك تماماً :

- إنه قدر جاهز .

قاطعتك :

- لكلّ شخص القدر الذي يستحقّه . كنت أتوقّع لك قدراً غير

هذا . . كيف قبلت أن ترتبطي به؟

قلتُ :

- أنا لا أرتبط به . . أنا أهرب إليه فقط من ذاكرة لم تعد تصلح

للسكن ، بعدما أنشئتها بالأحلام المستحيلة والخيبات المتتالية . .

- ولكن لماذا هو . . كيف يمكن أن تمرّغي اسم والدك في مزبلة

ك هذه . . أنت لست امرأة فقط ، أنت وطن ، أفلا يهَمُّك ما سيكتبه التاريخ يوماً؟

أجبت بشيء من السخرية المرة :

- وحدك تعتقد أن التاريخ جالس مثل ملائكة الشر والخير على جانبينا ، ليسجل انتصاراتنا الصغيرة المجهولة . . أو كبواتنا وسقوطنا المفاجئ نحو الأسفل . التاريخ لم يعد يكتب شيئاً . إنه يحو فقط . !
لم أسألك ما الذي تريد من محو بالضبط . ولم أناقشك في نظرتك الخاطئة للقيم . .

سألتك :

- ما الذي تريد مني على التحديد؟

قلت كأنك طفلة يسألونها عن أي حلوي تريد :

- أريدك . .

خطر بذهني لحظتها أنك ربما كنت امرأة عاجزة عن حب رجل واحد ، وأنه يلزمك دائماً رجلان . كانا في الماضي زياد وأنا . وأصبحت اليوم أنا . . والآخر .

عاد صوتك يقول :

- خالد . . أتدري أنني أحبتك . . إنه حدث أن أردتك واشتيتك حد الجنون . . شيء فيك جرّدي من عقلي يوماً . . ولكنني قرّرت أن أشفي منك . . كانت علاقة حبنا علاقة مَرَضِيَّة ، أنت نفسك قلت هذا . .

سألتك :

- لماذا عدت اليوم إذن؟

قلت :

- عدت لأقنعك بالمجيء إلى قسنطينة . أريد أن تباركنا تلك المدينة

ولو مرة واحدة. . تباركنا ولو كذباً، لقد تواطأت معنا وأوصلتنا إلى جنوننا هذا. . أدري أننا لن نلتقي فيها. . قد لا نتحدث. . وقد لا نتصافح. ولكن سأكون لك مادماً فيها. ستحدثهم على مرأى منها. . ووحدها ستعرف أنني أمنحك ليلتي الأولى. . أيسعدك هذا؟
كم من ليلة أولى كنت تملكين؟ كم من ليلة وهمية أولى كنت قادرة على أن تهبي على بياض، كما وهبت روايتك الأولى. . نسختين مزورتين لي ولزباد. . موقعتين على بياض.
لمن ستكونين بعد كل ليلة وهمية؟ ومع من بدأت كذبتك الأولى؟
لمن أهديت هديتك الملقومة الأولى؟

عندما أذكر كلامك اليوم، أضحك وأنا أشبه نفسي آنذاك بأثيوبي جائع يسردون عليه قائمة من الأطباق الشهية التي لن يذوقها، ويسألونه بعدها كيف وجدها. . وإذا كان ذلك يسعده. .

ولكن وقتها لم أضحك، بل ربما بكيت وأنا أجيبك بحماسة عاشق. . «يسعدني. .».

لم أنتبه إلى أنك كنت تمنحيني ليلة وهمية، علي أن أتنازل عنها مباشرة لرجلٍ آخر، سيستفيد منها فعلياً!

ولكن هل يهم ذلك. . مادمت أتنازل عن شيء ليس في جميع الحالات لي؟

هكذا التاريخ دائماً عزيزي وهكذا الماضي. . ندعوه في المناسبات ليتكفل بفتات الموائد.

تحايل على الذاكرة، نرمي لها عظمة تلهي بها، بينما تُنصب الموائد للآخرين.

وهكذا الشعوب أيضاً، نهبها كثيراً من الأوهام. . كثيراً من

الأحلام المعلقة، من السعادة المؤجلة، فتغض النظر عن الولايم التي
لن تدعى إليها .

ولكن لم أع كل هذا إلا بعد فوات الأوان . بعدما رفعت الموائد،
وانسحب الجميع لأبقى وحدي . أمام فتات الذاكرة .

قلتُ :

- أريد أن أراك . .

صحتُ :

- لا . . لم يعد لقاءنا ممكناً الآن . . وربما كان هذا أفضل . يجب أن
نبحث عن نهاية أقل وجعاً لقصتنا . لتكن قسطنطينة لقاءنا وفراقنا
معاً . فلا داعي لمزيد من العذاب .

هكذا إذن . . قررت قتلي حسب الأصول، بجرّة سكّين واحدة،
ذهاباً وإياباً . . في لقاء وفراق واحد . فما أرافق بي . . وما أغباني !
أكثر من سؤال ظلّ معلقاً في الحلق، لم أطرحه عليك يومها .
أكثر من لوم . . أكثر من عتاب . . أكثر من رغبة . .

ولكن هاتفك انتهى كما جاء خارج الزمان، وأنا بين الصحوة
واليقظة ممدّد بذهول في فراشي .

حتى أنني تساءلت بعدها : هل طلبتني حقاً في ذلك الصباح أم
أنني حلمت . . فقط ؟

ها نحن مثل الأطفال إذن . .
نحو كل مرة آثار الطباشير على الأرض لنرسم قوانين لعبة
جديدة .

نتحایل على كل شي لنربح كل شيء . فتسوخ ثيابنا ونصاب
بخدوش ونحن نقفز على رجل واحدة من مربع مستحيل إلى آخر .
كل مربع فخ نصب لنا، وفي كل مربع وقفنا وتركنا أرضاً شيئاً من
الأحلام .

كان لا بد أن نعرف أننا تجاوزنا عمر النط على رجل واحدة،
والقفز على الحبال، والإقامة في مربعات الطباشير الوهمية .
أخطأنا حبيبي . .

الوطن لا يرسم بالطباشير، والحب لا يكتب بطلاء الأظافر .
أخطأنا . التاريخ لا يكتب على سبورة، بيد تمسك طباشير
وأخرى تمسك ممحاة . .

والعشق ليس أرجوحة يتجاوزها الممكن والمستحيل .
دعينا نتوقف لحظة عن اللعب . لحظة عن الجري في كل
الاتجاهات . نسينا في هذه اللعبة من منا القط، ومن الفار . . ومن منا
سيلتهم من .

نسينا أنهم سيلتهمونا معاً .
لم يعد أماننا متسع للكذب . لا شيء أماننا سوى هذا المنعطف
الآخر . لا شيء تحتنا غير هاوية الدمار .
فلنعترف أننا نحطمنا معاً .
لسب حبيبي . .

أنت مشروع حبي للزمن القادم . أنت مشروع قصتي القادمة
وفرحي القادم . . أنت مشروع عمري الآخر .

في انتظار ذلك.. أحبي من شئت من الرجال، واكتبي ما شئت
من القصص..

وحدي أعرف قصّتك التي لن تصدر يوماً في كتاب. وحدي
أعرف أبطالك النسيين وآخرين صنعهم من ورق.

وحدي أعرف طريقتك الشاذة في الحب، طريقتك الفريدة في قتل
من تحبين.. لتؤثني كتبك فقط.

أنا الذي قتلني لعدّة أسباب غامضة، وأحببتك لأسباب غامضة
أخرى.

أنا الرجل الذي حولك من امرأة إلى مدينة، وحولته من حجارة
كريمة إلى حصي.

لا تتطاولي على حطامي كثيراً.

لم ينته زمن الزلازل، ومازال في عمق هذا الوطن حجارة لم تغدّوها
البراكين بعد.

دعينا نتوقّف لحظة عن اللّعب. كفّاك كلّ ما قلته من كذب..

أعرف اليوم أنك لن تكوني لي.

دعيني إذن، أنحشر معك يوم الحشر حيث تكونين، لأكون
نصفك الآخر.

دعيني أحجز مسبقاً مكاناً لي إلى جوارك، مادامت كلّ الأماكن
محجوزة حولك هنا، ومادامت مفكرتك ملأى بالمواعيد حتى آخر
أيامك..

يا امرأة على شاكلة وطن..

أيهم بعد اليوم أن نبقي معاً؟

حقيبة صغيرة فقط لملاقة الوطن.

ولا شيء سوى بدلة سوداء لحضور حفل زفافك. زجاجتي
وسكي .. قمصان .. وشفرات حلاقة.
هنالك أوطان تنتج كل مبررات الموت، وتنسى أن تنتج شفرات
حلاقة!

على أصابع الجرح أعود إلى الوطن.
دون أمتعة شخصية، دون زيادة في الوزن ولا زيادة في حساب.
وحدها الذاكرة أصبحت أثقل حملاً، ولكن من سيحاسبنا على
ذاكرة نحملها بمفردنا؟

مشياً على جرحي الأخير أعود إليه على عجل.
عشر سنوات من الغياب، وها هوذا الرجوع المفاجئ. كنت أتوقع
لقاء غير هذا ..

كنت سأحجز لي مكاناً في الدرجة الأولى مثلاً. فيحدث للذاكرة
في مثل هذه المناسبات، أن ترفض الجلوس في الكراسي الخلفية.
ولكن، لا يهم سيدي .. كانت كل الكراسي الأمامية محجوزة
مسبقاً، لأولئك الذين حجزوا كراسي الوطن أيضاً بأمر ..
فلأعد إليه كما جئت منه إذن، على كرسي جانبي للحزن.

نغادر الوطن، محملين بحقائب نحشر فيها ما في خزائنتنا من عمر.
ما في أدراجنا من أوراق.

نحشر اليوم صورنا، كتباً أحببناها، وهدايا لها ذكرى ..

نحشر وجوه من أحبيننا . . عيون من أحبونا . . رسائل كتبت لنا . .
وأخرى كنا كتبناها .

آخر نظرة لجارة عجوز قد لا نراها، قبله على خد صغير سيكبر
بعدنا، دمة على وطن قد لا نعود إليه .

نحمل الوطن أثاثاً لغربتنا، ننسى عندما يضعنا الوطن عند بابه،
عندما يغلق قلبه في وجهنا، دون أن يلقي نظرة على حقائبنا، دون أن
يستوقفه دمنا . . ننسى أن نسأله من سيؤثته بعدنا .

وعندما نعود إليه . . نعود بحقائب الحنين . . وحفنة أحلام فقط .
نعود بأحلام وردية . . لا «بأكياس وردية»، فالحلم لا يستورد من
محلات «تاتي» الرخيصة الثمن .

عاراً أن نشترى الوطن ونبيعه حلماً في السوق السوداء . هنالك
إهانات أصعب على الشهداء من ألف عملة صعبة !

ها أنذا . . بحقيبة يد صغيرة، هنا في اللامكان .
في هذه النقطة المعلقة بين الأرض والسماء . والهابطة بي من ذاكرة
إلى أخرى . أجلس على مقعد في الدرجة الثانية للنسيان .

أحلق على تضاريس حبك . على ارتفاع تصعب معه الرؤية،
ويصعب معه النسيان . وأتساءل رغم فوات الألوان: تراني أرتكب
آخر حماقات عمري، وأهرب منك إلى الوطن؟ أحاول أن أشفى منك
به . أنا الذي لم أشف بك منه؟

ها هي اللوحة التي أحضرتها هدية لعرسك تشغل مكانك الفارغ
إلى جوارى .

ها نحن نسافر - أخيراً معاً - أنا وأنت . .
نأخذ طائرة واحدة لأول مرة . ولكن ليس للرحلة نفسها . . ولا
للاتجاه نفسه .

ها هي قسنطينة . .
ساعتان فقط ليعود القلب عمراً إلى الوراء .
تشرع مضيئةً باب الطائفة، ولا تتنبه إلى أنها تشرع معه القلب
على مصراعيه . فمن يوقف تزيف الذاكرة الآن؟
من سيقدر على إغلاق شبك الحنين، من سيقف في وجه الرياح
المضادة، ليرفع الحمار عن وجه هذه المدينة . . وينظر إلى عينها دون
بكاء .

ها هي قسنطينة إذن . .
وها أنذا أحمل بيدي الوحيدة حقيبة يد، ولوحة تسافر معي سفرها
الأخير، بعد خمس وعشرين سنة من الحياة المشتركة .
ها هي «حنين»، النسخة الناقصة عن قسنطينة، في لقاء ليلي مع
اللوحة الأصل . .
تكاد مثلي تقع من على سلم الطائفة تعباً . . ودهشة . . وارتباكاً .
تتقاذفنا النظرات الباردة المغلقة . تتقاذفنا العبارات التي تنهى
وتأمر . وكلّ هذه الوجوه المغلقة، وكلّ هذه الجدران الرمادية
الباهتة . .

فهل هذا هو الوطن؟
قسنطينة . .
كيف أنت يا أميمة . . واشك؟
أشرعي بابك واحضيني . . موجعة تلك الغربة . . موجعة هذه
العودة . .
باردٌ مطارك الذي لم أعد أذكره . باردٌ ليلك الجبلي الذي لم يعد
يذكرني .

دَثْرِينِي يَا سَيِّدَةَ الدَّفءِ والبرد معاً.
أَجَلِي بِرَدِّكَ قَلِيلاً . أَجَلِي خِيَّتِي قَلِيلاً .
قَادِمٌ إِلَيْكَ أَنَا مِنْ سَنَوَاتِ الصَّقِيعِ والحَيَّةِ، مِنْ مَدَنِ الثَّلْجِ
والوَحْدَةِ.

فَلَا تَرَكِينِي وَاقْفَا فِي مَهَبِّ الْجَرَحِ .

كَانَتْ الْإِشَارَاتُ الْمَكْتُوبَةُ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَبَعْضُ الصُّورِ الرَّسْمِيَّةِ، وَكُلُّ
تِلْكَ الْوُجُوهِ الْمُتَشَابِهَةِ السَّمَرَاءِ، تُوَكِّدُ لِي أَنَّنِي أَخِيرًا أَقْفُ وَجْهًا لَوَجْهِ
مَعَ الْوَطَنِ . وَتَشْعُرُنِي بِغُرْبَةٍ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ تَنْفَرِدُ بِهَا الْمَطَارَاتُ الْعَرَبِيَّةُ .
وَحَدَّهُ وَجْهُ حَسَّانٍ مَلَأَنِي دَفْنًا مَفَاجِئًا عِنْدَمَا أَطَلَّ، وَأَذَابٌ جَلِيدٌ
الْلِّقَاءِ الْأَوَّلِ . . . مَعَ ذَلِكَ الْمَطَارِ .

وَعِنْدَمَا احْتَضَنَنِي، وَأَخَذَ عَنِّي حُمُولَةَ يَدِي، وَقَالَ بِلَهْجَةِ جَزَائِرِيَّةٍ
مَازَحَةٍ وَهُوَ يَحْمِلُ عَنِّي تِلْكَ اللَّوْحَةَ :

«وَأَشْر . . . مَازَلْتَ تَنْقَلُ فِي الطَّابِلُوهِاتِ . . ؟» ثُمَّ أَضَافَ
«أَسِيدِي . . . هَذَا نَهَارُ مَبْرُوكٍ مِنْ هُوَ اللَّيِّ قَالَ نَشُوفُكَ هُنَا . . !» .
شَعَرْتُ أَنَّ قَسَنْطِينَةَ أَخَذَتْ فَجْأَةً مَلَامَحَهُ، وَأَنَّهَا أَخِيرًا جَاءَتْ تَرْحَبُ

بِي .

وَهَلْ كَانَ حَسَّانٌ غَيْرَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ نَفْسَهَا . غَيْرَ حِجَارَتِهَا . .
قَرْمِيدِهَا . . وَجُسُورِهَا وَمَدَارِسِهَا . . وَأَزَقَّتِهَا وَذَاكَرَتِهَا؟
هَنَا وَلَدٌ، وَهَنَا تَرْبٍ وَدَرَسَ، وَهَنَا أَصْبَحَ مَدْرَسًا . لَمْ يَغَادِرْهَا إِلَّا
نَادِرًا فِي زِيَارَاتٍ قَصِيرَةٍ إِلَى تُونِسَ أَوْ إِلَى بَارِيسَ .

كَانَ يَحْضُرُ لَزِيَارَتِي مِنْ سَنَةٍ إِلَى أُخْرَى، لَكِنِّي يَطْمَئِنُّ عَلَيَّ وَلَيْشْتَرِي
بِالْمُنَاسِبَةِ بَعْضَ لَوَازِمِ عَائِلَتِهِ الَّتِي مَا فَتَتْ تَكْبَرًا وَتَضَاعُفَ . وَكَأَنَّ
حَسَّانَ قَوَّرَ أَنَّ يَتَحَمَّلَ بِمُفْرَدِهِ مَسْئُولِيَّةَ عَدَمِ انْتِثَارِ اسْمِ الْعَائِلَةِ، بَعْدَمَا
يُنْشِ مِنْ تَرْوِيحِي وَأَدْرِكُ بَعْدَ مَحَاوَلَاتٍ إِغْرَاءٍ فَاشِلَةٍ، أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ لِي

بنات ولا بنون.. ما عدا تلك اللوحات التي تفرد بحمل اسمي .
أكتشف اليوم، أنّ هذا الرجل الفارع القامة، المهذب المظهر،
والذي يتحدث دائماً بحماسة الأساتذة وعنادهم وتكرارهم، وكأنّه يواصل
حديثه لتلاميذه وليس للآخرين، هو أخي.. لا غير.
أكنت أجهل هذا؟ لا!

ولكن في هذا اليوم الاستثنائي الألم والحياة.. والفرحة! أشعر أنّ
قرباني بي تصبح الأرض الصلبة الوحيدة التي يمكن أن أقف عليها
وسط زلازلي الداخليّة، والصدر الوحيد الذي كنت لولا الكبرياء،
بكيت عليه في تلك اللحظة.

عشر سنوات.. حدث خلالها في بعض المرات أن انتظرته أنا في
مطار (أورلي الدولي).

كانت الأدوار معكوسة. كان هو القادم.. وأنا المنتظر. وكنت
أشعر آنذاك أنّي أقوم بواجب عائليّ لست ملزماً به، ولكن كنت
أحرص عليه. فقد كانت تلك إحدى فرصى القليلة لألعب دور «الأخ
الكبير» بكلّ مسؤوليّاته وواجباته. ذلك الدور الذي لم أوفق دائماً في
أدائه. فقد عشت في الواقع دائماً بعيداً عن حسان، حسان الذي
كنت أدرك جوعه للحنان ويتمه المبكر.. وتعلّقه العاطفيّ بي.

تراه لهذا أيضاً تزوّج باكراً على عجل، وراح يكثر من الأولاد
ليحيط نفسه أخيراً بتلك العائلة التي حرم منها دائماً في طفولته، والتي
كنت عاجزاً عن أن أعوضها له بحضوري العابر.. وغياي المتنقل
من منفى إلى آخر.

فلماذا يقلب لقائي بحسان اليوم كلّ مقاييسي السابقة، ويشعّرنى

برغم فارق العمر، وبرغم أولاده الستة، أنني الأخ الأصغر وأنه في هذه اللحظة يكبرني بسبع سنوات، وربما بأكثر. .

ترى لأنه هو الذي يحمل حقيقتي ومشي أمامي، ويسألني عن تفاصيل سفري. . أم أن هذا المطار الذي يستفز رجولتي وكبريائي يجردني من وقار عمري. فأترك حسان يتصرف فيه نيابة عني، وكأن تجربته مع هذه المدينة ومعايشته لطباعها المتقلبة، جعلته اليوم يبدو أكبر. .

أم تراها قسنطينة. . تلك الأم المتطرفة العواطف، حباً وكرهية. . حناناً وقسوة، هي التي حولتني بوطأة قدم واحدة على ترابها، إلى ذلك الشاب المرتبك الخجول الذي كتته قبل ثلاثين سنة؟ نظرت إليها من زجاج سيارة كانت تنقلني من المطار إلى البيت، وتساءلت: أتراها تعرفني؟

هذه المدينة الوطن، التي تدخل المخبرين وأصحاب الأكتاف العريضة والأيدي القذرة من أبوابها الشرقية. . وتدخلني مع طوابير الغرباء وتجار الشنطة. . والبؤساء.

أتعرفني. . هي التي تتأمل جوازي بإمعان. . وتنسى أن تتأملني؟ سئلت أعرابية يوماً: «من أحب أولادك إليك؟» قالت: «غائبهم حتى يعود. . ومريضهم حتى يشفى. . وصغيرهم حتى يكبر». . وكنت أنا غائبا الذي لم يعد. . ومريضها الذي لم يشف. . وصغيرها الذي لم يكبر. .

ولكن قسنطينة لم تكن قد سمعت بقول تلك الأعرابية. فلم أعتب عليها. عتبت على ما قرأت من كتب التراث العربي! لم أنم تلك الليلة. .

أكان ذلك العشاء الذي أعدته عتيقة زوجة حسان، وكأنها تعدّ

وليمة، والذي استسلمت له بشهية أكاد أقول تاريخية، هو الذي كان سبب قلقي، بعدما تناولت الكثير من أطباقه التي لم أذق معظمها من سنين؟

أم أن السبب هو صدمة لقائي العاطفي الآخر مع ذلك البيت، الذي ولدت فيه وتربيت، والذي على جدرانه وأدراجهِ ونوافذه وغرفته وممراته، كثير من ذاكرتي، من أفراح ومآتم وأعياد.. وأيام عادية أخرى، تراكمت ذكراها في أعماقي لتطفو الآن فجأة.. كذكريات فوق العادة تلغي كل شيء عداها؟

ها أنا أسكن ذاكرتي وأنا أسكن هذا البيت، فكيف ينام من يتوسد ذاكرته؟

مازال طيف الذين غادروه يعبر هذه الغرف أمامي. أكاد أرى ذيل كندورة (أما) العنابي يمر هنا، ويروح ويحيي بذلك الحضور السري للأمومة. وصوت أبي يطالب بالماء للوضوء، أو يصيح من أسفل الدرج «الطريق.. الطريق» لينبه النساء في البيت أنه قادم صحبة رجل غريب، وأنّ عليهن أن يفسحن الطريق ويذهبن للاختباء في الغرف البعيدة.

أكاد أرى خلف الجدران الجديدة البياض آثار المسمار الذي علّق عليه أبي يوماً شهادتي الابتدائية منذ أربعين سنة. ثمّ جوارها بعد سنوات شهادة أخرى..

وبعدها لا شيء..

توقّف اهتمامه بي ليبدأ اهتمامه بأشياء أخرى، ومشاريع أخرى، انتهت بموت (أما) وزواجه الذي كان جاهزاً للاستهلاك، ومعداً في ذهنه منذ مدة.

أكاد أرى جثمان (أما) يخرج مرة أخرى من هذا الباب الضيق.

يليه حشد من قرّاء القرآن . . ونساء يحترفن البكاء في المآتم .
أكاد أرى موكباً آخر يعود بعد أسابيع ، بعروس صغيرة هذه
المرّة . . ونساء يحترفن الزغاريد والمواويل .
ثم تلك الليلة التي قبلت فيها حسان وودّعته قبل أن ألتحق
بالجبهة .

لم يسألني ليلتها إلى أين كنت ذاهباً . كان حسان وهو في عامه
الخامس عشر ، قد سبق عمره بسنوات .
كان مثلي جعله اليتيم يكبر على عجل . . وعلمه ذلك أن يصمت
ويحتفظ لنفسه بالأسئلة .

سألني :

.. وأنا؟

وأجبت بالذهول نفسه :

- مازلت صغيراً يا حسان . . انتظري . .

فقال وكأنّه يتقمّص فجأة صوت (أما) وخوفها المرضي عليّ :

- عندك على روحك . . آ خالد . .

وأجهش بالبكاء .

ها هو الوطن الذي استبدلته بأمي يوماً .

كنت أعتقد أنّه وحده قادر على شفاثي من عقدة الطفولة ، من
يتحي ومن ذليّ .

اليوم . . بعد كلّ هذا العمر ، بعد أكثر من صدمة وأكثر من
جرح ، أدري . . أنّ هناك يُتم الأوطان أيضاً . هنالك مذلة الأوطان ،
ظلمها وقسوتها ، هنالك جبروتها وأنانيتها .

هنالك أوطان لا أمومة لها . . أوطان شبيهة بالآباء .

لم أنم ليلتها حتى ساعة متقدمة من الصباح .
كان للقائي الليلي مع تلك المدينة مذاق مسبق لمرارة ما . وما كدت
أغفو حتى أيقظني من غفوتي أصغر أولاد حسان ، الذي استيقظ باكراً
وراح يبكي بكاء رضيع يطالب بحضن أمه ، ووجبه الصباحية .
حدثت براءته وجراته الطفولية . . وقدرته على قول ما يريد دون
كلام .

في ذلك الصباح ، وفي أول لقاء لي مع تلك المدينة ، فقدت لغتي .
شعرت أن قسنطينة هزمتني حتى قبل أن نلتقي ، وأنها جاءت لي
إلى هنا ، لتقنعني بذلك لا غير !
ولم أشعر برغبة في مقاومة قدرتي .
لقد هزمت من مرّوا قبلي ، وصنعت من جنونهم بها أضحية
للعبرة .

وأنا آخر عشاقها المجانين . .
أنا ذا العاهة الآخر الذي أحبها ، أنا «أحدب نوتردام» الآخر ،
وأحق قسنطينة الآخر . . ما الذي أوصلني إلى جنون كهذا؟ ما الذي
أوقفني عند أبواب قلبها عمراً؟
وكانت تشبهك . .

تحمل اسمين مثلك ، وعدة تواريخ للميلاد . خارجة لتوها من
التاريخ ، باسمين : واحد للتداول . . وآخر للتذكّار .
كان اسمها يوماً «سيرتا» . قاهرة كانت . . كمدنية أثنى .
وكانوا رجالاً . . في غرور العسكر !
من هنا مرّ صيفاكس . . ماسينيسا . . ويوغرطة . . وقبلهم
آخرون .

تركوا في كهوفها ذاكرتهم . نقشوا حبّهم وخوفهم وآهتهم .

تركوا تماثيلهم وأدواتهم، وصكوكهم النقديّة، أقواس نصرهم
وجسوراً رومانيّة. .
. . ورحلوا.

لم يصمد من الجسور سوى واحد. ولم يبق من أسبائها سوى اسم
«قسنطينة» الذي منحه لها منذ ستّة عشر قرناً «قسنطين». .
أحسد ذلك الإمبراطور الروماني المغرور، الذي منح اسمه لمدينة لم
تكن حبيته بالدرجة الأولى. . وإنّما اقترن بها لأسباب تاريخيّة محض.
وحدي منحتك اسماً لم يكن اسمي.
وربّما لذلك، يحدث أن أعاكس قانون الحماقات هذا. وأنادي تلك
المدينة «سيرتا» لأعيدها إلى شرعيّتها الأولى.
تماماً. . كما أناديك «حياة».

ككلّ الغزاة. . أخطأ قسنطين.
المدن كالنساء. . نحن لا نمتلكها لمجرّد أننا منحتناها اسمنا.
لقد كانت «سيرتا» مدينة نذرت للحبّ والحروب، تمارس إغراء
التاريخ، وتتربّص بكلّ فاتح سبق أن ابتسمت له يوماً من علوّ
صخرتها.
كنسائها كانت تغري بالفتوحات الوهميّة. .

ولكن لم يعتبر من مقابرها أحداً!
هنا أضرحه الرومان. . والوندال. . والبيزنطيّين. . والفاطميّين. .
والحفصيّين. . والعثمانيّين. . وواحد وأربعين باباً تناوبوا عليها قبل أن
تسقط في يد الفرنسيّين.
هنا وقفت جيوش فرنسا سبع سنوات بأكملها على أبواب
قسنطينة.

فرنسا التي دخلت الجزائر سنة ١٨٣٠، لم تفتح هذه المدينة

الجالسة على صخرة، إلا سنة ١٨٣٧، سالكة ممراً جبلياً تركت فيه نصف جيشها، وتركت فيه قسطنطينة خيرة رجالها.

منذ ذلك اليوم، ولد أكثر من جسر حول تلك المدينة، وكثرت الطرقات المؤدية إليها.

ولكن، كانت الصخرة دائماً أكبر من الجسور، لأنها تدري أن لا شيء تحت الجسور سوى الهاوية!

ها هي مدينة تترقب بكل فاتح.. تلفت نفسها بملاءتها السوداء وتخفي سرها عن كل سائح.

تحرسها الوهاد العميقة من كل جانب، تحرسها كهوفها السرية وأكثر من ولي صالح، تبعثت أضرحتهم على المنعرجات الخضراء تحت الجسور.

هنا القنطرة.. أقرب جسر لبيتي ولذاكري. أعبرها تلقائياً وكأني أرسماها، مشياً على الأقدام، بين الدوار المبهم والتذكارات وكأني أعبر حياتي، أجتاز العمر من طرف إلى آخر.

كل شيء كان يبدو مسرعاً على هذا الجسر. السيارات والعابرون وحتى الطيور، وكأن شيئاً ما كان ينتظرهم على الطرف الآخر.

ربما كان بعضهم يجهل آنذاك أن الذي يبحث عنه، قد يكون تركه خلفه، وأنه في الحقيقة، لا فرق بين طرفي الجسر. الفرق الوحيد هو في ما فوقه.. وما تحته.

تلك الهاوية المخيفة التي يفصلك عنها حاجز حديدي لا أكثر، والتي لا يتوقف أحد لينظر إليها، ربما لأن الإنسان بطبعه لا يحب أن يتأمل الموت.. كثيراً.

وحدي تستوقفني هذه الهاوية الموعلة في العمق.

تري لأنني أتيتها بأفكار مسبقة وذاكرة متوارثة؟ أم سلكن هذا الطريق، لأنفرد بهذه المدينة على جسر؟

هنالك حماقات يجب عدم ارتكابها، كان تأخذ موعداً مع ذاكرتك على جسر.

خاصة عندما تتذكر فجأة، تلك القصة التي نسيتهائماً منذ سنين..

قصة جدك البعيد الذي رمى بنفسه يوماً من جسر ربما كان هذا.. بعدما توعدّه أحد البايات بالقتل.. عندما جاءه خير خيانتته وتأمّره عليه مع بعض وجهاء قسنطينة للإطاحة به. هو الذي كان مبعوثه ورسوله الخاص.. ورجل ثقته.

كان جدّي يومها أضعف من أن يقف بمفرده في وجه ذلك الأمر القاطع بالقتل. وكان أيضاً أكبر من أن يُقاد ليقف بين يدي ذلك الباي ذليلاً..

ولذا عندما أرسل الباي من يحضره إليه.. كان جدّي جثّة في هوة سحيقة كهذه، أسفل وادي الرّمال. فقد رفض أن يمنح الباي شرف قتله.

سمعت هذه القصة مرّة واحدة من فم أبي، يوم سألت عن سرّ هذا الاسم الذي نحمله.

يبدو أنّه كان لا يحبّ رواية هذه الحادثة. فقد كان الانتعز في حدّ ذاته عاراً وكفراً في مجتمع قسنطيني متدين. ولهذا هاجرت علناً بعد ذلك إلى غرب الجزائر مستبدلة باسم نكرة اسمها الأوّل. رُند إلى قسنطينة إلّا بعد جيل وأكثّر، باسمٍ لمدينة أخرى.

أعيد نظري إلى أسفل .

ماذا تراني جئت أبحث هنا، في هذا الجسر المعلق على ارتفاع مئة وسبعين متراً من جروف الأرض، والذي تعبته أسراب الغربان على عجل؟

تراني أبحث عن بقايا جدّ ما، كان اسمه أحمد.. . يقال إنه كان وسيماً وذا مالٍ وعلمٍ كبير، وأنه رمى يوماً كلّ شيء من هنا.. . ليترك حزنه وجرحه إرثاً لتلك العائلة .
هذه هي قسطنطينة . .

مدينة لا يهتمها غير نظرة الآخرين لها، تحرص على صيتها خوفاً من القيل والقال الذي تمارسه بتفوق . وتشترى شرفها بالدم تارة.. . والبعد والهجرة تارة أخرى .
تراها تغيّرت؟

أذكر أنني سمعت وأنا شاب بعائلة غادرت قسطنطينة فجأة إلى مدينة أخرى، بعدما شاع أنّ إحدى الأغاني التي مايزال يغنيها «الفرقاني» اليوم، قد نظمها أحدهم تغزلاً في ياحدى بناتها!
ويظل السؤال.. . ما الذي جئت أفعل هنا فوق هذا الجسر؟

تراني على موعد مع ذاكرتي، أم فقط مع لوحتي في هذا الصباح؟
ها أنا أقف أمامها اليوم دون فرشاة ولا ألوان، وبلا قلق أو خوف من مربّع القماش الأبيض .

أنا لست خالقها في هذه اللحظة . لست رسّامها ولا مبدعها . أنا جزء منها . ويمكنني أن أصبح حتى جزءاً من تفاصيلها وتضاريسها .
يمكنني أن أجتاز هذا الحاجز الحديدي الذي يفصلني عنها، وكأنني أجتاز إطار لوحة.. . كأنني أحترقها لأسكنها إلى الأبد .

أندرج نحو هذا الوادي الصخري العميق نقطة بشرية، قطرة

للون ما . . على لوحة أبدية، لمنظر أردت أن أرسمه . . فرسمي .
أليست هذه أجمل نهاية لرسام، أن يتوحد مع لوحته في مشهد
واحد؟

كنت أدري في تلك اللحظة وأنا أنظر إلى الوهاد العميقة تحتي،
إلى تلك الأنفاق الصخرية التي يشطرها نهر الرمال ببطء زبدّي، أن «الهاوية
الأنثى» كانت تستدرجني إلى العمق، في موت شقي أخير، ربما كان فرصتي
الأخيرة للتوحد الجسدي مع قسنطينة، ومع ذاكرة جد بدأت فجأة أشعر
بتواطؤ غامض معه .

تري شهوة السقوط والتحطم هي التي أشعرتني عندئذ بالدوار،
وأنا معلق على ذلك الجسر وحدي؟

وإذا بي أشعر فجأة بالخجل من هذه المدينة . . وأكاد أعتذر لها .
وحدهم الغرباء هنا يشعرون بالدوار . فمتى بالتحديد وضعتني
قسنطينة في خانتهم؟

ورغم ذلك أعترف، أنني لم أكن يومها مستعداً للموت .
ليس تمسكاً مني بالحياة . ولكن لأنني وصلت بذلك الحزن الجارف
العميق الذي اجتاحتني منذ وطئت هذه المدينة، إلى عاطفة غامضة
متطرفة أخرى .

لقد وصلت بمراتي وخيبيتي حدّ الطمأنينة والسعادة المبهمة .
فلقد تعلمت أن أسخر من استفزاز الأشياء لي، وأقابل تلك
المواجهة مع الذاكرة بشيء من التهكم المرّ .

ألم آت هنا إثر قرار جنوني، ربما بحثاً عن الجنون في مدينة تكاد
تحترق! ولذا بدأت أتلذذ سرّاً بهذه اللعبة الموحجة، وأحرص على أن

أعيش صدماتي بمازوشية متفمّدة. فربّما كانت خيبيتي اليوم مع هذه المدينة، هي منجم جنوبي وعبريّتي القادمة. وبرغم ذلك قرّرت فجأة أن أهرب من ذلك الجسر الذي كان بداية جنوبي يوماً.

فجأة تطيّرت منه، أنا الذي أولعت به طويلاً وحولته إلى ديكور لحياقي، بعدما أحطت نفسي بأكثر من نسخة منه.

أيكون ذلك الأحساس جائي، وأنا الملح من حيث كنت تلك السفوح الجبلية التي كانت يوماً مرشوشة بشقائق النعمان. . وأزهار النرجس المنشور بين الممرّات الخضراء، والتي كان أهل قسنطينة يأتون إليها كلّ سنة لاستقبال الربيع. . محمّلين بما أعدّته النساء لتلك المناسبة من «براج» وحلويات وقهوة. . والتي تبدو اليوم حزينه، وكأنّ أزهارها غادرتها لسبب غامض؟

أم تراه منظر مزار (سيدي محمد الغراب) الذي يعود فجأة إلى الذاكرة. وإذا بي أستعيد ما قرأته عنه مؤخراً في كتاب تاريخي عن قسنطينة. فتعبرني قشعريرة غامضة.

ماذا لو لاحقتني دون أن أدري اللّعة التي لاحقت صالح باي أكبر بايات قسنطينة على الإطلاق بسبب هذا الجسر؟ هو الذي كان يريد أن يختم إنجازاته المعماريّة الهائلة، وإصلاحاته المختلفة التي وهبها لتلك المدينة، بإصلاح جسر القنطرة، اللّسان الترابيّ الوحيد الذي كان يربط المدينة بالخارج، والجسر الوحيد الذي صمد من بين خمسة جسور رومانية.

تقول أسطورة شعبية، إنّ هذا الجسر كان أحد أسباب هلاك (صالح باي) ونهايته المفجعة. .

فقد قتل فوقه (سيدي محمد)، أحد الأولياء الذين كانوا يتمتّعون

بشعبية كبيرة. وعندما سقط رأس الرجل الولي على الأرض، تحوّل جسمه إلى غراب، وطار متوجّهاً نحو دار صالح باي الريفية التي كانت على تلك السفوح. ولعنه واعداء إياه بنهاية لا تقلّ قسوة ولا ظلماً عن نهاية الولي الذي قتله.

فما كان من صالح باي إلا أن غادر بيته وأراضيه إلى الأبد، تطيّراً من ذلك الغراب، واكتفى بداره في المدينة.

هكذا أطلق الناس على ذلك المكان اسم «سيدي محمد الغراب»، ليبقى بعد قرنين مزار المسلمين واليهود في قسطنطينة، يأتونه في نهايات الأسبوع وفي المواسم، لقضاء أسبوع كامل يرتدون خلاله ثياباً وردية، يؤدّون بها طقوساً متوارثة جيلاً عن جيل، فيقدّمون له ذبائح الحمام، ويستحمّون في المياه الدافئة لبركته الصخرية حيث كانت تستحمّ السلاحف، ويعيشون على شرب «العروق» لا غير، والاستسلام لنوبات رقص بدائية، في حلقات جماعية يؤدّونها في الهواء الطلق.. على وقع بندير «الفقيرات».

ولكن قسطنطينة، لم تحقد على بايها الذي وهبها الكثير من الوجاهة والرفاهية.

سوّت فقط بطيبة أو بجنون.. بين القاتل والقتيل.

صنعت من (سيدي محمد الغراب) أشهر مزار وليّ قسطنطيني على الإطلاق، في مدينة يحمل كلّ شارع فيها اسم وليّ.

وخلّدت من بين واحد وأربعين باياً حكمها، اسم صالح باي وحده، فكتبت فيه أجمل أشعارها، وغنّت فجيعة موته في أجمل أغنية رثاء. ومازالت تلبس حداده حتى اليوم مع ملاءات نسائها السوداء.. دون أن تدري!

هذه هي قسطنطينة..

لا فرق بين لعتها ورحمتها، لا حاجز بين حبها وكراهيتها، لا مقاييس معروفة لمنطقها.

تمنح الخلود لمن تشاء، وتنزل العقاب بمن تشاء.
فمن عساه يجاسبها على جنونها، ومن عساه يحسم موقفه منها، حباً أو كراهية. . إجراماً أو براءة. . دون أن يعترف أنها تحمل في كل الحالات ضدها؟

في كل يوم كنت أقضيه في تلك المدينة، كنت أتورط أكثر في ذاكرتها، فرحت أبحث في سهراتي مع حسان، وأحاديثنا المتشعبة الطويلة، التي تمتد بنا أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل. . عن وصفة أخرى للنسيان.

أبحث في ذلك الجو العائلي الذي افتقدته طويلاً عن طمأنينة أخرى خارج فضائها.

كان لوجودي في ذلك البيت العائلي الذي أعرفه ويعرفني، تأثير على نفسي في تلك الأيام. وربما كان سندي السري الذي لم أتوقعه. لقد كنت أعود إليه كل ليلة، وكأني أصعد نحو دهايز طفولتي البعيدة، لأصبح جيناً من جديد. .

أختبئ في جوف أمّ وهمية، مازال مكانها هنا فارغاً منذ ثلاثين سنة.

يحدث في تلك الليالي أن أذكر زياد، يوم أقام عندي لبضعة أشهر في الجزائر، عندما رفض مستأجره أن يجدد له عقد إيجار البيت.
تعودت وقتها أن أترك له سريرتي، وأنام على فراش آخر وضعتة على الأرض في غرفة أخرى.

وكان زياد يحتج ويشعر بشيء من الإحراج، معتقداً أنني أفعل ذلك مجاملة له.

وكنت أؤكد له كل مرة، أنني اكتشفت بفضلله أنني أسعد أكثر بالنوم على الأرض. فقد كان ذلك الفراش الأرضي يذكرني بطفولتي وينومي إلى جوار أمي لعدة سنوات، على ذلك المطرح الصوفي الذي مازلت أذكر لونه الأزرق. بل وتلك الأيام التي كانت تخصها (أما) كل خريف، لفصل الصوف وتجديد تلك المطارح الصوفية التي كانت الأثاث الأساسي لغرفة نومي.

تمنيت لو طلبت من عتيقة أن تضع لي في المستقبل فراشاً على الأرض، تماماً كما تفعل مع أولادها الذين ينامون في الغرف الأخرى، على فراش أرضي مشترك يوحى بالدفء والرغبة بالانزلاق تحت أغطيته الصوفية الجميلة التي تثير غيبي وحيني لزمي لم أعد أدري لبعده، إن كنت عشته حقاً. أم تحبته.

ولكن أيعقل أن أطلب هذا الطلب من عتيقة؟ هي التي أعطتني أجمل غرف بيتها، غرفة نومها العصرية المعدة لاستقبال الضيوف، أكثر منها لقضاء ليالٍ زوجية. . للحب؟

لو فعلت هذا فلربما أخرجتها، ولما وجدت تفسيراً لجنوني هذا. فقد كانت عتيقة تشارك أحياناً في سهرتنا، وتحاول أن تستنجد بي، بصفتي رجلاً متحضراً قادمًا من باريس، لأقنع أخي بالتخلي عن هذا البيت العربي القديم، وهذه الطريقة المتخلفة في العيش. وتكاد تعذر لي عن كل الأشياء التي كانت تبدو في نظري جميلة. . ونادرة.

ولأنني لم أكن أملك القدرة على إقناعها برأيي، ولا الجرأة على معاكسة رأيها، كنت أكتفي بالاستماع إلى نقاشها مع حسان، ذلك

النقاش الذي يكاد يتحوّل أحياناً إلى شجار قبل أن تنسحب هي إلى النوم، ويعلق حسان شبه معتذر:

«لا يمكن أن تقنع امرأة تشاهد مسلسل (دالاس) على التلفزيون، أن تسكن بيتاً كهذا وتحمد الله . . لا بد أن يوقفوا هذا المسلسل، ماداموا عاجزين عن منح الناس سكناً محترماً . . وحياة أفضل . .» .
كنت أحسد قناعة حسان . وأعجب بفلسفته في الحياة .

كان يقول: «لكي تكون سعيداً عليك أن تنظر إلى من تحتك .
فإذا كان في يدك قطعة رغيف، ونظرت لمن ليس في يده شيء،
ستسعد وتحمد الله . وأما إذا رفعت رأسك كثيراً ونظرت لمن في يدهم
قطعة «كعك» فأنت لن تشبع، بل ستموت قهراً فقط . . وتتعس
باكتشافك!» .

وهكذا ففي نظر حسان أن العيش في بيت كهذا برغم كل سلباته
التي تبدو أحياناً مزعجة، بتفاصيلها الصغيرة التي تجاوزها العصر،
يظل أفضل مما يعانيه آلاف الناس . بل وعشرات الآلاف الذين لم
يجدوا بيتاً واسعاً كهذا يسكنونه بمفردهم مع أولادهم وزوجتهم . بل
كثيراً ما يتقاسمون مع أهلهم وأقاربهم، الشقة الضيقة التي تكون بيتاً
لعائلتين لعدة سنوات .
هكذا كان حسان . .

«لقد كانت نظرته إلى الأشياء نظرة عمودية، فقد تعلم كل ما
تعلمه في صباه على سبورة الحائط . .» .
وكان سعيداً بتلك النظرة التي قد تعود أيضاً إلى عقليته كموظف
محدود الدخل . . ومحدود الأحلام!

فبِمَ يمكن أن يحلم أستاذ للعربية يقضي يومه في شرح النصوص
الأدبية، وسرد سيرة الكتاب والشعراء القدامى على تلاميذه . .

وتصحیح أخطائهم النحویة والإنشائیة، ولا یجد متسعاً من الوقت -
أو الجراة - لشرح ما كان یحدث أمامه، وتصحیح أخطاء أكبر ترتکب
على مرأى منه باسم کلمات خرجت فجأة من اللغة، لتدخل قاموس
الشعارات والمزایدات؟.

كان فی أعماق حسان مرارة غامضة تبدو على کل تفاصيل حياته .
ولکنه كان یحتفظ بها لنفسه

من الواضح أنه كان متعباً وغارقاً فی مشکلات أولاده الستة
وزوجته الشابة التي تحلم بحياة أخرى غیر حياة قسنطينة المغلقة . وأما
هو فلم یکن یجرب على الحلم، أو بالأحرى كان یحلم آنذاك بالعثور
على شخص يتوسط له لیحصل على ثلأجة جديدة . . لا غیر!
عندما عرفت أمنیة البسیطة الصعبة، حزنت وأنا أکتشف أننا لم
نکن متخلفین عن أوروبا وفرنسا فقط، کما كنت أعتقد، وإلا لهان
الأمر . . وبدا منطقياً . لقد کنا متخلفین عما کنا علیه منذ نصف قرن
وأكثر . يوم کنا تحت الاستعمار .

یومها كانت أمنیاتنا أجمل . . وأحلامنا أكبر .
یکفی أن تتأمل وجوه الناس الیوم وأن تسمع أحادیثهم وأن تلقي
نظرة على واجهات المکتبات لتفهم ذلك .
یومها کنا وطناً یصدر الأحلام . . مع کل نشرة أخبار إلى کل
شعوب العالم .

وكانت هذه المدينة بمفردها تصدر من الجرائد والمجلات والکتب ما
لا تصدره الیوم المؤسسات الوطنیة لا نوعاً . . ولا عدداً .

یومها كان لنا من المفکرین والعلماء . . والشعراء والظرفاء
والکتاب، ما یملأنا زهواً وغروراً بعروبتنا .

اليوم . . لم يعد أحد يشتري الجرائد ليحتفظ بها في خزانة، إذ لم يعد في الجرائد ما يستحق الحفظ.

ولم يعد أحد يجلس إلى كتاب ليتعلم منه شيئاً. لقد أصبح البؤس الثقافي ظاهرة جماعية، وعدوى قد تنتقل إليك وأنت تتصفح كتاباً. «لقد كانت الكتب دائماً على صواب في ذلك العهد، وكان الواحد منا فصيحاً يتكلم كما تتكلم الكتب. .».

واليوم أصبحت الكتب تكذب أيضاً. . مثلها مثل الجرائد. ولذا تقلص صدقنا. . وماتت فصاحتنا، منذ أصبح حديثنا يدور فقط حول المواد الاستهلاكية المفقودة!

عندما قلت يوماً هذا الكلام لحسان، ظلّ يتأملني بذهول وكأنه اكتشف شيئاً لم يتنبه له من قبل. . ثم قال بشيء من الحسرة:

- صحيح. . لقد خلقوا لنا أهدافاً صغيرة لا علاقة لها بقضايا العصر. وانتصارات فردية وهمية، قد تكون بالنسبة للبعض الحصول على شقة صغيرة بعد سنوات من الانتظار. . أو قد تكون الحصول على ثلاجة، أو التمكن من شراء سيارة. . أو حتى دواليبها فقط! ولا أحد عنده متسع من الوقت والأعصاب ليذهب أكثر من هذا، ويطلب بأكثر من هذا. .

نحن متعبون. . أهلكتنا هموم الحياة اليومية المعقدة التي تحتاج دائماً إلى وساطة لحلّ تفاصيلها العادية. فكيف تريد أن تفكر في أشياء أخرى، عن أي حياة ثقافية تتحدث؟ نحن همنا الحياة لا غير. . وما عدا هذا ترف. . لقد تحولنا إلى أمة من النمل، تبحث عن قوتها وجحر تختبئ فيه مع أولادها لا أكثر. .

سألته بسداجة:

- وماذا يفعل الناس؟

قال مازحاً:

- الناس...؟ لا شيء... البعض يتسظر... والبعض يسرق...
والبعض الآخر يتتحرر، هذه مدينة تقدّم لك الاختيارات الثلاثة
بالمبررات نفسها... والحجة نفسها!
يومها خفت على حسان من تلك المدينة... وانتابني فجأة قشعريرة
مبهمة.

سألته دون تفكير... وكأني أسأله أي الصفات الثلاثة اختار:
- وهل لك أصدقاء هنا تلتقي بهم... وتخرج معهم؟
أجابني وكأنه يعجب لسؤالي، أو يسعد لاهتمامي المفاجئ بكل
تفاصيل حياته:

- لي أصدقاء معظمهم مدرّسون معي في الثانوية... ما عدا هذا
ليس لي أحد... لقد فرغت قسطنطينة من أهلها، ورحلت كل
العائلات القديمة التي عرفناها.
وراح يسرد علي أسماء عائلات كبيرة هاجرت أو راحت تستقر في
العاصمة أو في الخارج، لتترك تلك المدينة الآخرين... جاء معظمهم
من القرى والمدن الصغيرة المجاورة.

قبل أن يضيف تلك الجملة التي لم تستوقفني ساعتها، والتي
أخذت بعد ست سنوات كل أبعاد القدر الأحمق. قال:

- لقد أصبح سكّان هذه المدينة الأصليّون، لا يزورونها سوى في
الأعراس... أو في المآتم!

وقبل أن أعلق على كلامه، أضاف وكأنه تذكر شيئاً:

- سأعرفك على ناصر ابن سي الطاهر... من المؤكّد أنّه
سيأتي بعد غدٍ لحضور زواج أخته. سترى... لقد أصبح رجلاً
بطولك وبضخامتك، وهو يتردّد عليّ منذ بضعة أشهر، منذ قرّر أن

يستقرّ في قسنطينة. إنه الوحيد الذي قام بهجرة معاكسة. لقد رفض حتى منحة إلى الخارج. . تصوّر! لا أحد يصدّق هذا. . عندما سأله لماذا لم يسافر مثل الآخرين ويهرب من هذا البلد، قال لي: «أخاف إن سافرت ألا أعود أبداً. . كلّ أصحابي الذين سافروا لم يعودوا. .»

ضحكت وأنا أكتشف هذا التطرف الذي يذكّرني بك، وكأنه سمة عائلية. وشعرت برغبة في إطالة ذلك الحديث الذي كان يؤدي إليك بطريقة. . أو بأخرى. .
سأله:

- وماذا يفعل الآن؟

- لقد أعطوه بصفته ابن شهيد محلاً تجارياً وشاحنة يعودان عليه بدخل كبير. ولكنه مازال ضائعاً متردداً، يفكر أحياناً في مواصلة دراسته، ثم أحياناً أخرى في التفرغ للتجارة. والحقيقة أنني عاجز عن نصحه. فمن المؤسف أن ينقطع إنسان عن دراسته العليا، لأنه سيظلّ يشعر بذلك النقص طوال حياته. . ومن ناحية أخرى، لم تعد تفيد الشهادات اليوم في شيء حسب قوله، وهو يرى حوله شباباً بشهادات عليا عاطلين عن العمل، وآخرين جهلة يتنقلون في سيارات مرسيدس ويسكنون فيلات فخمة. . ليس هذا زمناً للعلم. . إنه زمن الشطارة. . فكيف يمكن أن تقنع اليوم صديقك أو حتى تلميذك بالتفاني في المعرفة؟. . لقد اختلّت المقاييس نهائياً. .
قلت لحسان:

- المهم أن يعرف الإنسان ما هو هدفه الحقيقي في الحياة. . هل المال هو مشكلته الأولى. . أم المعرفة وتوازنه الداخلي؟
ردّ حسان مازحاً:

- توازن .. ؟ عن أي توازن تحدثت .. نحن شعب نصف مختل .
لا أحد فينا يدري ما يريد بالضبط .. ولا ماذا ينتظر بالتحديد .. إن
المشكل الحقيقي هو في هذا الجو الذي يعيشه الناس ، وهذا الإحباط
العام لشعب بأكمله . إنه يفقدك شهية المبادرة والحلم والتخطيط لأي
مشروع . فلا المثقفون سعداء .. ولا الجاهلون ولا البسطاء ولا
الأغنياء . قل لي يرحم والديك .. ماذا يمكن أن تفعل بعلمك إذا
كنت ستنتهي موظفاً يعمل تحت إشراف مدير جاهل ، وُجد في منصبه
مصادفة ليس لسعة معرفته ، وإنما .. لكثرة معارفه وعرض أكتافه !
وماذا يمكن أن تفعل بأموالك في قسطنطينة مثلاً .. سوى أن تدفعها
عمولة لتحصل على شقة غير صالحة للسكن في معظم الأحيان .. أو
تقيم عرساً بها يغني فيه «الفرقاني» ؟ أما إذا كان كل ما تملكه لا
يتجاوز العشرين ألف دينار .. فيبقى أمامك أن تدفعها «شراب
قهوة» لمسؤول محلي ينجب خلف أي موظف آخر ، لبيع جوازات سفر
إلى الحج . وهكذا يمكنك أن تؤدي فريضتك وتحجز لك غرفة صغيرة
في الآخرة .. بعدما ضاقت بك الدنيا !
صحت عجباً :

- واش .. أحقاً تقول .. هل يبيعون جوازات سفر إلى الحج
بليونين ؟ !

- طبعاً .. لأن الحكومة حددت عدد الحاجاج كل عام بسبب
تكاليفهم الباهظة بالعملة الصعبة ، بعدما اكتشفت أن معظمهم يسافر
عذة مرآت لأسباب لا علاقة لها بالحج ، وإنما لأغراض تجارية
محض . وإلا كيف تفسر أن يكون بعضهم قد حج ست مرآت أو
سبعاً دون أن يكون ذلك واضحاً على سلوكه وأخلاقه ؟ أنا أعرف
حاجاً «سوكارجي» لا تفارق الخمرة بيته ، وأعرف آخر متفرغاً

للترافيك و«البنزيس».. وتغير العملة الصعبة في السوق السوداء.. هؤلاء مازالوا يسافرون كل عام للحج. يمكنهم أن يحصلوا على عشرين ألف دينار بسهولة. وأما أنا فمن أين لي هذا المبلغ لأقوم بتأدية فريضتي، ودخلي لا يتجاوز الأربعة آلاف دينار في الشهر؟ قلت له وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى:

- علاش.. هل تنوي الحج؟

قال:

- طبعاً.. ولم لا.. ألسنت مسلماً؟ لقد عدت إلى الصلاة منذ ستين ولولا إيماني لأصبحت مجنوناً. كيف يمكن أن تصمد أمام كل هذا المنكر وهذا الظلم دون إيمان؟ وحدها التقوى تعطيك القدرة على الصمود.. انظر حولك: لقد توصل جميع الناس إلى هذه النتيجة ورُبما الشباب أكثر من غيرهم لأنهم الضحية الأولى في هذا الوطن.. وحتى ناصر نفسه أصبح يصلي منذ عاد إلى قسنطينة، ربّما لهذا السبب ورُبما لأن الدين كالكفر.. عدوى أيضاً! والله يا خالد.. لو رأيتهم يوم الجمعة يتجهون إلى المساجد بالآلاف حتى تضيق بهم جدرانها.. وتفيض بهم الشوارع.. لوقفت معهم تصلي دون أن تتساءل لماذا!

لم أجد شيئاً أعلّق به على كلام حسان في تلك السهرة العجيبة، التي طالت بنا حتى الثانية صباحاً. فقد كان حسان سعيداً بوجودي، وسعيداً ببدء العطلة الصيفية التي تسمح له بالسهر والتحدّث إليّ طويلاً بعد كلّ هذه السنوات التي باعدتنا.

فكرته يتحدّث.. ويعرّي أمامي هذا الوطن الذي كنت كسوته حيناً وعشقاً وجنوناً.

أكان يخاف عليّ من خيبي، ويخشى أن يفقد فرحة عودتي إليه وإلى

هذا الوطن مرة أخرى، عندما كان يتوقف أحياناً عن الحديث لينتقل
بي إلى موضوع آخر؟ كأن يستدرجني مثلاً بطريقة غير مباشرة إلى
الدين وإلى التقوى والإيمان. ويغريني بالتوبة، وكأن وجودي في فرنسا
بحد ذاته قد أصبح ذنباً وكفراً.
أهذا هو حُسان؟

لم أمنع نفسي ساعتها من الابتسام وأنا أتذكر أنني أحضرت له
معني زجاجتي ويسكي كالعادة..
تساءلت ليلتها وأنا في فراشي عن ذنوبي. حاولت أن ألخصها، أن
أحصيها.. فلم أجدها أكبر من ذنوب غيري، بل وربما وجدت أقل
بدرجات..

لم أكن مجرماً.. ولا مقامراً.. ولا كافراً.. ولا كاذباً.. ولا
سكيراً.. ولا خائناً..

لم تكن لي زوجة ولا سرير شرعي استبدلت به آخر.
خمسون سنة من الوحدة. نصفها تماماً ما يمكن أن أسميه
«السنوات المعطوبة» تلك التي قضيتها بذراع واحدة، مشوّه الجسد
والأحلام.

كم أحببت من النساء؟ لم أعد أذكر. منذ حبي الأول لتلك الجارة
اليهودية التي أغريتها. إلى تلك الممرضة التونسية التي أغرتني. إلى نساء
أخريات.. لم أعد أذكر أسماءهنّ ولا ملامحهنّ، تناوبن على سرير
لأسباب جسدية محض، وذهبن محمّلات بي لأبقى فارغاً منهنّ..

وجئت أنت..

أكبر ذنوبي على الإطلاق كنت أنت. المرأة الوحيدة التي لم
أمتلكها، والذنب الوحيد الذي لم أقترفه حقاً.

لقد كانت ذنوبي معك، هي ما يمكن أن أسميه «ذنوب اليد اليمنى».. اليد الوحيدة التي رسمتك بها.. واستحضرتك بها.. واغتصبتك بها.. وهماً!

فهل سيعاقبني الله على ذنوب يدٍ لم يترك لي سواها؟! لا أذكر من قال: «ليس الفضيلة تحب الرذيلة، الفضيلة في ألا تشتهيها!»

وأعتقد أنني بهذا المفهوم فقط.. لم أكن رجلاً فاضلاً. فقد كان لا بد ألا أستهيك أنت.. وألا أبدأ رذيلتي معك. كان حبك طعم المحرمات والمقدسات التي يجب تجنبها، والتي كنت أنزلق نحوها دون تفكير.

لقد كان الأمر المدهش حقاً في قصتي معك، أن تكون المبررات التي جعلتني أحبك، هي التي كان يجب أن تجعلني أعدل عن حبك. ولهذا ربما كنت أحبك وأعدل عن حبك.. أكثر من مرة في اليوم. وبالتطرف نفسه كل مرة.

وأنا لا أفعل شيئاً في النهاية هنا، سوى البحث عن حد لهذا المد والجزر العاطفي الذي أعيشه معك كل لحظة.

كنت أدري أن العاشق مثل المدمن، لا يمكن أن يقرر بمفرده الشفاء من دائه، وأنه مثله يشعر أنه ينزل تدريجياً كل يوم أكثر نحو الهاوية. ولكنه لا يمكن أن يقف على رجليه ويهرب، مادام لم يصل إلى أبعد نقطة في الجحيم، ويلامس بنفسه قعر الحثية والمرارة القصوى.

وكنت سعيداً في تلك الليلة.. تلك السعادة الغامضة المرة، لأنني كنت أدري أن كل شيء سوف يحسم في اليومين القادمين، وأنني بطريقة أو بأخرى سأنتهي منك.

كانت زوجة حسان في تلك السهرة منهمكة في إمداد نفسها
للحدث الهام، ومرافقة المركب النسائي في الغد إلى الحمام، ثم إلى
ليلة الحنة.

وكانت كثيرة الحركة ومشغولة عنا وعن أولادها بهمومها النسائية،
وبما ستأخذ في حقيبتها من ثياب للحمام، حيث ستعرض النساء
مثل العادة كل شيء حتى ثيابهن الداخلية.. ليتظاهرن بفناهن
الكاذب في معظم الأحيان.. أو ليقنعن أنفسهن فقط، أنهن مازلن
برغم كل شيء قادرات على إغراء رجل، تماماً مثل تلك العروس التي
يرافقها.. والتي يتأملنها بحسد سرّي.

فليكن.. غداً تبدأ طقوس أفراحك.. وينتهي ذلك الزمن الذي
سرقناه من الزمن.

أجل الأحلام إذن سيدتي في انتظار غدك.
ولتصبح على خير.. أيها الحزن!



يوقظني الحب المضاد في هذا الصباح الصيفي.. ويرمي بي في
الشوارع.

قررت حال امتيقاظي أن أهرب من البيت، ومن حديث عتيقة
الذي لا ينقطع عن مراسيم الحفل، وعن أسماء الشخصيات
والعائلات الكبيرة التي جاءت خصيصاً لتحضر ذلك الحدث الذي لم
تشهد قسطنطين مثله منذ سنوات.

ولكنها لحقت بي حتى الباب لتواصل حديثها:

- على بالك.. يقال إنهم أحضروا كل شيء من فرنسا.. منذ
شهر والطائرة تنقل لوازم العرس.. لورأت جهاز العروس وما

لبسته البارحة .. يا حسرة .. قال لك «واحد عايش في الدنيا ..
وواحد يوانس فيه ..!»

أجبتها وأنا أغلق خلفي الباب، وكأني أغلق بعنف أبواب قلبي:
- ما عليكش .. البلد لهم والطائرات أيضاً. ويمكنهم أن يجلبوا
إليه كما أخذوا منه ما شاؤوا!
أين أهرب؟

ها أنا أوصدت الباب خلفي، وإذا لا شيء أمامي .. سواي.
رميت بخطاي دون تفكير وسط أفواج المارة الذين يجوبون
الشوارع هكذا كل يوم دون وجهة محدّدة.
هنا .. أنت تملك الخيار بين أن تمشي، أو تتكئ على جدار، أو
تجلس في مقهى لتتأمل الذين يمشون أو يتكئون أمامك .. على حائط
الرصيف المقابل ..
رحت أمشي ..

شعرت في لحظة ما، أننا نطوف جميعاً حول هذه المدينة الصخرية،
دون أن ندري تماماً .. ماذا يجب أن نفعل بغضبننا، ماذا يجب أن
نفعل ببؤسنا .. وعلى من نرمي هذا الحصى الذي امتلأت به جيوبنا
الفارغة.

من الأولى بالرّجم في هذا الوطن؟ من؟ ذلك الجالس فوق
الجميع .. أم أولئك الجالسون فوقنا؟
حضرني لحظتها عنوان رواية لمالك حدّاد .. «الأصفار تدور حول
نفسها».

تمنيت لو أنني قرأتها، عساني أجد تفسيراً لكلّ هذه الدوائر التي
نحوّلنا إليها.

ثمّ قادني أفكاري إلى مشهد شاهدته يوماً في تونس لجمل مغمض

العنين، يدور دون توقف في ساحة (سيدي بوسعيد)، ليستخرج الماء من بئر أمام متعة السّواح ودهشتهم.

استوقفتني يومها عيناه اللتان وضعوا عليهما غمامة ليتوهم أنه يمشي إلى الأمام دائماً، ويموت دون أن يكتشف أنه كان يدور في حلقة مفرغة.. وأنه قضى عمره دائراً حول نفسه!

ترانا أصبحنا ذلك الجمل الذي لا يكاد ينتهي من دورة حتى يبدأ أخرى تدور به بطريقة أو بأخرى حول همومه الصغيرة اليومية؟

تُرى هذه الجرائد التي تحمل لنا أكياساً من الوعود بغير أفضل، ليست سوى رباط عينين، يخفي عنا صدمة الواقع وفجيعة الفقر والبؤس الحتمي الذي أصبح لأول مرة يتربّص بنصف هذا الشعب؟ وأنا.. . تراني لم أعد أعرف المشي إلى الأمام في خطّ مستقيم لا يعود بي تلقائياً إلى الوراء.. . إلى هذا الوطن الذاكرة؟

وهذا الوطن.. . من أين له هذه القدرة الخارقة على فيّ المستقيمت، وتحويلها إلى دوائر.. . وأصفار!

ها هي الذاكرة سياج دائريّ يحيط بي من كلّ جانب. تطوّقي أول ما أضع قدمي خارج البيت. وفي كلّ اتجاه أسلكه تمشي إلى جواربي الذكريات البعيدة.. .

فأمشي نحو الماضي مغمض العينين.. . أبحث عن المقاهي القديمة تلك التي كان لكلّ عالم أو وجيه مجلسه الخاصّ فيها، حيث كانت تعدّ القهوة على الوجاق الحجريّ وتقدّم بالجزوة.. . ويحجل نادل أن يلاحقك بطلباته. كان يكفيك شرف وجودك عنده.

في ذلك الزمن كان لابن باديس المقهى الذي كان يتوقّف عنده، وهو في طريقه إلى المدرسة. كان اسمه (مقهى بن يامينة).

وكان هنالك (مقهى بو عرعور) حيث كان مجلس بلعطار

وباشتارزي وحيث كنت الملح أبي أحياناً وأنا أمر بهذا الطريق .
أين ذلك المقهى لاحتسي فيه هذا الصباح فنجان قهوة نخب
ذكراه؟

كيف أعثر على مقهى لم يكن كبيراً سوى بأسماء رواده؟ كيف
أجده . . في هذا الزمن الذي كبرت فيه المقاهي وكثرت، لتسع يؤس
المدينة . وإذا بها متشابهة وحزينة كوجوه الناس؟
لم يعد يميزها شيء . حتى تلك الهية التي كانت سمة أهل
قسنطينة، وذلك الشاش والبرنس المتألق بياضاً، أصبح نادراً وباهتاً
اليوم .

ربما كان أول ما لفت نظري ذلك الصباح، ذلك الزي الموحد
لتلك المدينة التي تستيقظ كما تنام بحزن غامض . ذلك اللون القاتم
المتدرج والمشارك بين الجنسين .
النساء ملفوفات بملاءاتهن السوداء التي لا يبدو منها شيء سوى
عيونهن .

والرجال في بدلاتهم الرمادية أو البنية التي لا تختلف عن لون
بشرتهم . . ولا لون شعرهم . والتي يبدوون وكأنهم اشتروها جميعاً عند
خياط واحد .

وقلما كان يبدو من بين الحشود نقطة ضوء، أو لون زاو لفستان أو
لبدة صيفية .

تراني كنت أنظر ذلك الصباح إلى تلك المدينة، بعيون رسام لا
تلفت نظره سوى الألوان، ويكاد لا يرى سواها في كل شيء . أم
تراني كنت أراها فقط بعيون الماضي وخيبة الحاضر؟
رمت بنفسي وسط أمواج الرجال الضائعين مثلي في تلك المدينة .
شعرت لأول مرة أنني بدأت أشبههم .

مثلهم أملك وقتاً ورجولة لا أدري ماذا أفعل بها . فلا أملك إلا
أن أمشي ساعات في الشوارع كما يمشون . . محملاً ببؤسي
الحضاري . . وبؤسي الجنسي الآخر .
ها نحن نتشابه فجأة في كل شيء . في لون شعرنا ولون بدلتنا وجرّ
أحذيتنا وخطانا الضائعة على الأرضة .
نتشابه في كل شيء ، وأنفرد وحدي بك . ولكن هل يغير ذلك
شيئاً ؟

حبك الذي استدزجني حتى هذه المدينة ، أعادني إلى تخلفي دون
علمي . رمى بي وسط هذه الجموع الرجالية ، التي تسير ببطء تحت
الشمس الصيفية ، دون وجهة محدّدة ، ودون أن تدري ماذا تفعل
بتلك الأشعة التي تخترنها الأجساد المحمومة في النهار ، وتنفقها الأيدي
البائسة سرّاً في الليل . . في الملذّات الفردية .

توقّف فجأة خطواتي أمام جدران بيت لا يشبه بيتاً أخرى .
هنا كانت أكبر «دار مغلقة» يرتادها الرجال . وكان لها ثلاثة أبواب
تؤدي إلى شوارع وأسواق مختلفة .

لقد كانت في الواقع داراً مغلقة مشرعة ، مدروسة ليتسلّل إليها
الرجال من أية جهة ، ويخرجوا منها من أية جهة أخرى .

كان الرجال يؤمّونها من كلّ صوب ، هرباً من المدن والقرى
المجاورة ، التي لا ملذّات فيها ولا نساء .

وكانت النساء الجميلات والبائسات ، يأتين أيضاً من كلّ المدن
المجاورة ليختفين خلف هذه الجدران المصفرة ، التي لا يخرجن منها
إلا عجائز لينفقن ثروتهن في الصدقات والحسنات ، وتطهير الأيتام في
موسم توبتهن الأخيرة .

هنا أنفق أبي ثروته ورجولته . . !

أحاول ألا أتوقف عند ذلك البيت الاستثنائي، الذي كان لعدة سنوات سبب حزن أمي السري، وربما موتها قهراً.
وكان لعدة سنوات أيضاً سرّ نشوتي السريّة، وأحلامي المكبوتة أيام صباي، يوم كنت أحلم به ولا أجرؤ على دخوله، ربّما خوفاً من أن ألتقي بأبي هناك، وربما أيضاً لأنني كنت مكتفياً بمغامراتي العابرة المسروقة فوق السطح تارة، أو في غرف المؤونة التي قلّما يفتحها أحد..

اليوم لم يعد أبي هنا ليمعني احتمال وجوده في هذا «البيت» من الدخول.

لقد رحل بعدما ترك تاريخه بامتياز خلف هذه الجدران، تماماً كما يفعل أيّ قسطنطينٍ ثريٍّ ومحترم على أيامه.
لم تكن جدّي تقول وقتها لتعلّم أمي الصبر، وتعودها على تقبّل تلك الخيانة بفخر: «إنّ ما يفعله الرجال.. طرّز على أكتافهم!».
وكان أبي يطرّز مغامراته جرحاً ووشماً على جسد (أما) دون أن يدري.

ماذا أصبح هذا «البيت»؟ لست أدري..
يُقال إنهم أغلقوه وربّما ظلّ له باب واحد فقط.. بعدما أغلقت أبوابه الأخرى، في إطار سياسة تقليص الملذّات في هذه المدينة، أو احتراماً لعشرات المساجد التي نبتت على صدر هذه الصخرة، والتي يرتفع صوتها مجتمعة عدّة مرّات في اليوم، ليذكّر الناس بمزايا الإيمان والتوبة..

وكنت في تلك اللّحظة، كمعظم رجال هذه المدينة، أقف في الحدّ الفاصل بين شهوة الجسد وعقّة الروح. يتجاذبني إلى أسفل النداء السريّ لتلك الغرف المظلمة الشبقية.. حيث تحلو الخطايا.. ويسمو

بي إلى أعلى ذلك النداء الآخر، لتلك المآذن التي افتقدت طويلاً تكبيرها، ورهبة آذانها الذي كان يدعو إلى الصلاة، فيخترق بقوة دهايز نفسي، ويهزني لأول مرة منذ سنوات.

لقد أصبحت في بضعة أيام رجلاً مزدوجاً كهذه المدينة، وبدأت أعني أن ليس في هذا العالم المسكون بالأضداد من مدن بريئة. ومدن فاجرة.

هنالك مدن منافقة.. وأخرى أقل نفاقاً فقط..
وليس هناك من مدن بوجه واحد.. وحرقة واحدة. وقسطنطينة أكثر المدن وجوهاً.. وتناقضاً.

ها هي مدينة تستدرجك إلى الخطيئة. ثم تردعك بالقوة نفسها التي تستدرجك بها.

كل شيء هنا دعوة مكشوفة للجنس.. شيء ما في هذه المدينة يغري بالحبّ المسروق: قيلولاتها التي لا تنتهي.. صباحاتها الدافئة الكسلى.. وليلها الموحش المفاجئ.. طرقاتها المعلقة بين الصخور.. أنفاقها السريّة الموبوءة الرطوبة.. منظر جبل الوحش وما حوله من ممرّات متشعبة.. غابات الغار والبلوط.. وكلّ تلك المغارات والأنفاق المختبئة.

ولكن.. عليك أن تكتفي بالتفرّج على عادات النفاق المتوارثة هنا منذ أجيال، وتتحاشى النظر إلى هذه المدينة في عينيها حتى لا تربكها.. وترتبك!

فالجميع هنا يعرفون أن خلف شوارعها الواسعة تختبئ الأزقة الضيقة الملتوية، وقصص الحبّ غير الشرعية، واللذة التي تسرق على عجل خلف باب.. وتحت ملأها السوداء الوقور، تنام الرغبة المكبوتة من قرون. الرغبة التي تعطي نساءها تلك المشية القسطنطينيّة

المنفردة، وتفتح عيونهنّ تحت (العجّار)، ذلك البريق النادر.
تعوّدت النساء هنا منذ قرون، على حمل رغبتهنّ كقنبلة موقوتة،
مدفونة في اللأوعي. لا تنطلق من كبتها إلّا في الأعراس، عندما
تستسلم النساء لوقع البندير، فيبدأن الرقص وكأئن يستسلمن
للحبّ، بخجل ودلال في البداية. يحرّكن المحارم يمنة ويسرة على وقع
«الزندالي».. فتستيقظ أنوثتهنّ المخنوقة تحت ثقل ثيابهنّ وصيغتهنّ.
يصبحن أجمل في إغرائهنّ المتوارث.
تهتزّ الصدور وتتمايل الأرداف، وبدفاً فجأة الجسد الفارغ من
الحبّ.

تشبّ فيه فجأة الحمى التي لم يطفئها رجل. ويتواطأ البندير الذي
تسخنه النساء مسبقاً مع الجسد المحموم، فتزيد الضربات فجأة قوّة
وسرعة. وتتفكّ صفائر النساء، وتتطاير خصلات شعرهنّ، وينطلقن
في حلبات الرقص كمخلوقات بدائيّة تتلوّى وجماعاً ولذّة في حفلة
جذب وتهويل، يفقدن خلالها كلّ علاقة بما حولهنّ، وكأئن خرجن
فجأة من أجسادهنّ، من ذاكرتهنّ وأعمارهنّ، ولم يعد يمكن أحداً أن
يعيدهنّ إلى هدوئهنّ السابق.

وكما في طقوس اللذّة.. وطقوس العذاب، يدري الجميع أنّه لا
يجب وقف ضربات البندير، ولا قطع وقعها المتزايد، قبل أن تصل
النساء إلى ذروة لاشعورهنّ ولذّتهنّ، ويقعن على الأرض مغمى
عليهنّ، تمسكهنّ نساء من خصورهنّ، وترشهنّ أخريات بالريحة
والعطر الجاهز لهذه المناسبات.. حتى يعدن تدريجياً إلى وعيهنّ.

هكذا تمارس النساء الحبّ.. وهما في قسنطينة!
قسنطينة التي أغرتني.. بليلة حبّ وهميّة، وقبلت صفقتها
السريّة، مقابل شيء من النسيان.
فأين النسيان قسنطينة.. وفي كلّ منعطف يتربّص بي جرح؟

هل الحنين وعكة صحيّة؟
مريض أنا بك قسطنطينة.
كان موعداًنا وصفة جرّبتها للشفاء، فقتلتني الرصفة.
تراني تجاوزت معك جرعة الشوق المسموح بها في هذه الحالات؟
لم أشتري في صيدليّة جاهزة في طريق، لأرفع دعوى على بائع
الأقدار الذي وضعك في طريقي.
لقد صنعتك أنا بنفسني، وقست كلّ تفاصيلك على مقاييسي..
أنت مزيج من تناقضي، من أتزاني وجنوبي، من عبادتي وكفري..
أنت طهارتي وخطيئتي. وكلّ عقد عمري.
الفرق بينك وبين مدينة أخرى.. لا شيء.
لعلّك كنت فقط المدينة التي قتلتني أكثر من مرّة لسبب مناقض
للأول.. كلّ مرّة.
فأين الحدّ الفاصل بين جرعة الشفاء وجرعة الموت هذه المرّة؟ وفي
مواسم الخيبة، تصبح الذاكرة مشروباً مرّاً يُتلعّج دفعة واحدة، بعدما
كان حلماً مشتركاً يُحتسى على مهل؟
هنا تبدأ الذاكرة المشتركة، وشوارع يسكنها التاريخ وينفرد بها.
بعضها مشيتها مع سي الطاهر وأخرى مع آخرين.
هنا شارع يحمل اسمه.. وشوارع تذكر عبوره. وها أنذا أتوحد
بخطاه وأواصل طريقاً لم نكمله معاً.
تثني العروبة معي من حيّ إلى آخر. ويملؤني فجأة شعور غامض
بالغرور.

لا يمكن أن تنتمي لهذه المدينة، دون أن تحمل عروبتها.
العروبة هنا. . زهو ووجاهة وقرون من التحدي والعنفوان.
ما زالت الحية (ابن باديس) وكلمته تحكم هذه المدينة حتى بعد
موته.

ما زال يتأملنا في صورته الشهيرة تلك. ملتجئاً وقاره، متكئاً على
يده، يفكر في ما ألنا إليه بعده.
وما زالت صرخته التاريخية تلك بعد نصف قرن. النشيد غير
الرسمي الوحيد. . الذي نحفظه جميعاً.

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له رام المحال من الطلب
صدقت نبوءتك لنا يا ابن باديس. . لم نمت.
فقط ماتت شهيتنا للحياة. فماذا نفعل أيها العالم الفاضل؟
لا أحد توقع لنا الموت ياساً. كيف يموت شعب يتضاعف كل
عام؟

يا نشء أنت رجائنا وبك الصباح قد اقترب
ذلك النشء الذي تغيت به. . لم يعد يترقب الصباح، مذ حجز
الجالسون فوقنا. . الشمس أيضاً. إنه يترقب البواخر والطاقرات. .
ولا يفكر سوى بالهروب.
أمام كل القنصليات الأجنبية تقف طواير موتانا، تطالب بتأشيرة
حياة خارج الوطن.
دار التاريخ وانقلبت الأدوار. أصبحت فرنسا هي التي ترفضنا،
وأصبح الحصول على «فيزا» إليها ولو لأيام. . هو «المحال من
الطلب»!

لم نمت ظلماً.. متنا قهراً. فوحدها الإهانات تقتل الشعوب.
في زمن ما كنا نردّد هذا النشيد في سجن قسنطينة. كان يكفي أن
ينطلق من زنزانة واحدة، لتردده زنزانات أخرى، لم يكن مساجينها
سياسيين.

كان لكلماته قدرة خارقة على توحيدنا. اكتشفنا مصادفة هناك
صوتنا الواحد.
كنا شعباً واحداً ترتعد الجدران لصوته. قبل أن ترتعد أجسادنا
تحت التعذيب.
هل بَحّ صوتنا اليوم.. أم أصبح هناك صوت يعلو على الجميع.
مذ أصبح هذا الوطن لبعضنا فقط؟

ولدت كلّ هذه الأفكار في ذهني وأنا أعبر ذلك الشارع، وألتقي
بعد ٣٧ سنة مع جدران سجن كنت يوماً أراها من الداخل.
ولكن هل يصبح السجن شيئاً آخر لمجرد أننا ننظر إليه من
الخارج، وهل يمكن للعين أن تلغي الذاكرة اليوم، وهل يمكن لذاكرة
أن تلغي أخرى؟
كان سجن «الكديا» جزءاً من ذاكرتي الأولى التي لن تمحوها
الأيام.

وها هي الذاكرة تتوقّف أمامه وترغم قدمي على الوقوف، فأدخله
من جديد كما دخلته ذات يوم من سنة ١٩٤٥ مع خمسين ألف سجين
ألقي عليهم القبض بعد مظاهرات ٨ ماي الحزينة الذكر.
وكنت أكثر حظاً، قياساً إلى الذين لم يدخلوه يومها.
خمسة وأربعون ألف شهيد سقطوا في مظاهرة هزّت الشرق
الجزائري كلّهُ بين قسنطينة وسطيف وقالة وخرّاطة.

وكانوا أول دفعة رسمية لشهداء الجزائر. جاء استشهادهم سابقاً
لحرب التحرير بسنوات.

هل أنساهم؟

أنسى أولئك الذين دخلوه ولم يخرجوا منه، وظلّت جثثهم في غرف
التعذيب؟ وأولئك الذين ماتوا بأكثر من طريقة للموت، رفاقنا الذين
اختاروا موتهم وحدهم؟

هنالك إسماعيل شعلال. كان مجرد عامل في البناء. وكانت له
مهمة حفظ وثائق «حزب الشعب» وأرشيفه السري. وكان أول من
تلقى زيارة الاستخبارات العامة الذين دقوا باب غرفته الصغيرة
الشاهقة صارخين «البوليس.. افتح».

وبدل أن يفتح إسماعيل شعلال الباب.. فتح نافذته الوحيدة.
ورمى بنفسه على وادي الرمال، ليموت هو وسره في وديان قسنطينة
العميقة.

أيمكن اليوم، وحتى بعد نصف قرن، أن أذكر إسماعيل دون
دموع، هو الذي مات حتى لا ييوح بأسمائنا تحت التعذيب؟

وهنالك صوت (عبد الكريم بن وطاف) الذي كانت صرخات
تعذيبه تصل حتى زنزانتنا، خنجراً يخترق جسدنا أيضاً ويبعث فيه
الشحنات الكهربائية نفسها. وصوته يشتم بالفرنسية معذبيه ويصفهم
بالكلاب والنازيين والقتلة.. فيأتي متقطعاً بين صرخة وأخرى.

«criminels.. assassins.. salauds.. nazis»

فيرد عليه صوتنا بالأنشيد الحماسية والهاثف.

ويصمت صوت بن وطاف.

وهنالك (بلال حسين) أقرب صديق إلى سي الطاهر، أحد رجال
التاريخ المجهولين، وأحد ضحاياهم.

كان بلال نجاراً. لم يكن رجل علم ولكن على يده تعلّم جيل
بأكمله الوطنية. فقد كان محله القائم تحت جسر (سيدي راشد) مقرّ
الاجتماعات السريّة.

أذكر أنّه كان يستوفني وأنا أمرّ بمحله متّجهاً إلى ثانويّة قسنطينة،
فيعرض عليّ قراءة جريدة «الأمة» أو منشوراً سريّاً.
وكان خلال سنتين يبيّني سياسياً للانخراط في «حزب الشعب».
ويضعني أمام أكثر من امتحان ميدانيّ، كان لا بدّ لكلّ عضو أن يمرّ به
قبل أن يؤدّي قسم الانخراط في الحزب. ويبدأ نشاطه في إحدى
الخلايا التي كان يحددها بلال.

في ذلك المحلّ الذي لا أثر له اليوم، كان يلتقي اللّجنة
السياسيون. ويعطي (مصالي الحاج) تعليماته الأخيرة. وفيه نوقشت
الشعارات التي رفعها المتظاهرون، وكُتبت ليلاً على اللّافئات لتكون
مفاجأة فرنسا.

وعندما انطلقت تلك المظاهرة من فوق جسر (سيدي راشد) كما
خطّط لها بلال لأسباب تكتيكيّة، يسهل معها تجمع المتظاهرين ثمّ
تبعثرهم من كلّ الطرقات المؤدّية للجسر. أدهشت القوّات الفرنسيّة
بدقّتها ونظامها غير المتوقّع. وكان بلال أوّل من ألقي القبض عليه
يومها. ومن عذب للعبرة.

ولم يمّت بلال حسين كغيره. قضى سنتين في السجن والتعذيب.
ترك فيها جلده على آلات التعذيب.

أذكر أنّه ظلّ لعدّة أيام عاري الصدر، عاجزاً حتّى أن يضع
قميصاً على جلده، حتّى لا يلتصق بجراحه المفتوحة، بعدما رفض
طبيب المستشفى تحمّل مسؤوليّة علاجه.

ثمّ خرج محكوماً عليه بالنفي والرقابة المشدّدة. وعاش بلال حسين

مناضلاً في المعارك المجهولة، ملاحقاً مطارداً حتى الاستقلال . ولم يمِت
إلا مؤخراً في عامه الواحد والثمانين في ٢٧ ماي ١٩٨٨ ، في الشهر
نفسه الذي مات فيه لأول مرة .

مات بائساً ، وأعمى ، ومحروماً من المال والبنين .
اعترف قبل موته ببعضه أشهر لصديقه الوحيد ، أنهم عندما عذبوه
تعمدوا تشويه رجولته ، وقضوا عليها إلى الأبد .
وأنه في الواقع مات منذ أربعين سنة . .

يوم وفاته ، جاء حفنة من أنصاف المسؤولين لمرافقته إلى مشواه
الأخير . أولئك الذين لم يسألوه يوماً بماذا كان يعيش ، ولا لماذا لا أهل
له .

مشوا خلفه خطوات . . ثم عادوا إلى سياراتهم الرسميّة ، دون
أدنى شعور بالذنب .
لم يكن أحد يعرف سرّه الذي احتفظ به أربعين سنة كاملة ، بحياء
رجل من جيله ومن طبيئته .

فهل كان يستحقّ ذلك السرّ ، كلّ ذلك الكتمان ؟

كان بلال حسين آخر الرجال في زمن الخصيان . .
وكان المبصر في زمن عميت فيه البصائر . .
فهل أنسى بلال حسين ؟

* * *

ها هوذا سجن (الكديا) . .

أتأمله كما نتأمل جدران سجن أول ، دخلناه كما ندخل حلمًا مزعجاً
لم نكن مهياين له .

مرت سنوات كثيرة ، قبل أن أدخل سجنًا آخر ، كان جلاذوه هذه

المرّة جزائريّين لا غير. ولم يكن له من عنوان معروف، ليعرف طيف (أمّا) طريقه إلى فياتيني كما كانت تأتي لزيارتي هنا في الماضي، باكية متضرّعة لكلّ حارس..

ها هوذا سجن (الكديا) .. كم من قصص مؤلّة، وأخرى مذهشة عرفها هذا السجن، الذي تناوب عليه أكثر من ثائر، لأكثر من ثورة. سنة ١٩٥٥.. أي عشر سنوات بالضبط بعد أحداث ٨ ماي ١٩٤٥. عاد هذا السجن للصدارة، بدفعة جديدة لسجناء استثنائيين كانت فرنسا تعدّ لهم عقاباً استثنائياً.

في الزنزانة رقم ٨.. المعدّة لانتظار الموت. كان ثلاثون من قادة الثورة ورجالها الأوائل، ينتظرون موثّقين، تنفيذ الحكم بالإعدام عليهم، بينهم مصطفى بن بولعيد والظاهر الزبيري ومحمد لايف وإبراهيم الطيّب رفيق ديدوش مراد وباجي مختار وآخرون.

كان كلّ شيء معدّاً للموت يومها، حتّى أنّ حلاقّ مساجين الحقّ العام، أخبر الشهيد القائد مصطفى بن بوالعيد في الصباح، أنّهم غسلوا المقصلة بالأمس، وأنّه حلم أنّهم «نغدوا».

وكانت هذه الكلمة تحمل معنيّين بالنسبة لمصطفى بن بوالعيد، الذي كان يعدّ منذ أيام خطّة للهروب من (الكديا) .. وكان شرع مع رفاقه منذ عدّة أيام، في حفر عمّريّ سريّ تحت الأرض، أوصلهم في المرّة الأولى إلى ساحة مغلقة داخل السجن. فأعادوا الحفر من جديد، ليصلوا بعد ذلك إلى خارج السجن.

يوم ١٠ نوفمبر ١٩٥٥، بعد صلاة المغرب، وبين الساعة السابعة والثامنة مساءً بالتحديد، كان مصطفى بن بوالعيد ومعه عشرة آخرون من رفاقه، قد هربوا من (الكديا)، وقاموا بأعرب عمليّة هروب من زنزانه لم يغادرها أحد ذلك اليوم.. سوى إلى المقصلة.

بعد ذلك سقط القائد مصطفى بن بوالعيد وبعض من فرّوا معه،
شهداء في معارك أخرى لا تقلّ شجاعة عن عملية فرارهم،
فتصدّروا برحيلهم كتب التاريخ الجزائري، وأهمّ الشوارع والمنشآت
الجزائرية..

بينما نُفِّذ حكم الإعدام، في من ظلّوا بالزنزانية، دون أن يتمكّنوا
من الهروب.

ولم يبق اليوم من السجناء الأحد عشر الذين هربوا من الكُديا،
سوى اثنين على قيد الحياة. ومات الرجال الثمانية والعشرون الذين
جمعتهم الزنزانية رقم ثمانية يوماً، لقدّر كان مقرّراً أن يكون..
واحداً.

كلّما وقفت أمام الجدران العالية لهذا السجن تبعثرت ذاكرتي،
وذبت لأكثر من وجه، لأكثر من اسم، ولأكثر من جلاّد. وشعرت
برغبة في فتح أبواب سجون أخرى مازالت مغلقة على أسرارها، دون
أن تجد كاتباً واحداً يرّد دين من مرّوا بها.

وقتها كنت أحسد ذلك الرفيق الذي جمعتني به زنزانة هنا لبضعة
أسابيع.

كنّا آنذاك.. أنا وهو، أصغر معتقلين سياسيين. وربما كان ياسين
يصغرنني ببضعة أشهر.

كان عمره ستة عشر عاماً فقط.

ورغم أنّهم أطلقوا سراحني لصغر سنيّ، فقد رفضوا أن يطلقوا
سراح ياسين. وبقي في سجن (الكُديا) أربعة عشر شهراً. يحلم
بالحرية.. وبامرأة مستحيلة تكبره بعشر سنوات، كانت في السادسة
والعشرين من عمرها.. وكان اسمها «نجمة»!

وبينما عدت أنا بعد ستة أشهر من السجن إلى الدراسة، راح ياسين يكتب بعد عدة سنوات رائعته «نجمة».

تلك الرواية الفجيعة، التي ولدت فكرتها الأولى هنا. في ذلك الليل الطويل، وفي مخاض المראה والحياة والأحلام الوطنية الكبرى. أذكر أن ياسين كان مدهشاً دائماً. كان مسكوناً بالرفض وبرغبة في التحرير والمواجهة.

ولذا كان ينقل عدواه من سجين إلى آخر. وكنا نستمع إليه، ونجهل وقتها أننا أمام (لوركا) الجزائر، وأننا نشهد ميلاد شاعر سيكون يوماً، أكبر ما أنجب هذا الوطن من مواهب. مرت عدة سنوات، قبل أن ألتقي بكاتب ياسين في منفاي الإيجاري الأخير بتونس.

اكتشفت بفرح لا يخلو من الدهشة أنه لم يتغير. مازال يتحدث بذلك الحماس نفسه، وبلغته الهجومية نفسها، معلناً الحرب على كل من يشتبه فيهم رائحة الخضوع لفرنسا أو لغيرها.

لقد كانت له حساسية ضد الإهانات المهذبة، وضد قابلية البعض للانحناء. . الفطري!

كان يومها يلقي محاضرة في قاعة كبرى بتونس، عندما راح فجأة: يهاجم السياسيين العرب، والسلطات التونسية بالتحديد. ولم يستطع أحد يومها إسكات ياسين.

فقد ظل يخطب ويشتم حتى بعدما قطعوا عليه صوت الميكروفون، وأطفأوا الأضواء ليرغموا الناس على مغادرة القاعة.

يومها دفعت في جلسة تحقيق مع البوليس ثمن حضوري في

الصفّ الأمامي وهتافي على ياسين «تعيش.. آ ياسين..» .
لم ينتبه أحد وقتها إلى وجوه من صَفَقُوا . ولكن بعض من كان
يعنيهم الأمر انتبهوا إلى يدي الوحيدة المرفوعة تأييداً . . وإعجاباً .
يومها اكتشفت البُعد الآخر لليد الواحدة . فقدّر صاحبها أن يكون
معارضاً ورافضاً ، لأنه في جميع الحالات . . عاجز عن التصفيق !
احتضنته بعدها وقلت : «ياسين.. لو رزقت ولدأ سَأَسْمِيَه
ياسين..» .

وشعرت بشيء من العنفوان والمتعة ، كأني أقول له أجمل ما يمكن
أن نقوله لصديق أو لكاتب .
فضحك ياسين وهو يربت على كتفي بيدٍ عصبية كعادته عندما
يربكه اعتراف ما .
وقال بالفرنسية : «أنت أيضاً لم تتغير.. مازلت مجنوناً!»
وضحكنا لنفترق لعدة سنوات أخرى .

تراني كنت أريد أن أكون وفيّاً لذاكرتنا المشتركة ، أم فقط ، كنت
أريد أن أعوّض بذلك عن عقدي تحاه «نجمة» ، الرواية التي لن
أكتبها ، والتي كنت أشعر أنها بطريقة أو بأخرى ، كانت قصتي أيضاً .
بأحلامي وخيالي ، بلامح (أما) الواقفة على حافة اليأس والجنون ،
الراكضة بين السجن والأولياء الصالحين ، تقدّم الذبائح لسيدي محمد
الغراب ، والعمولات لحارس السجن اليهودي ، الذي كان جارنا . .
حتى يأتيني بين الحين والآخر بقفّة الأكل الذي تعدّه لي . (أما) التي
كدت لا أعرفها عندما غادرت السجن بعد ستة أشهر ، والتي أمام
انشغال أبي عني وعنّها ، بتجارته وعشيقاته ، أصبحت لا تطلب من
الله إلّا عودتي لها . وكأني الشيء الوحيد الذي يمكن أن يسرّر

وجودها، والشاهد الوحيد على أمومتها وأنوئتها المسلوقة .
نعم كنا في النهاية جيلاً بقصة واحدة، بجنون الأمهات المتطرفات
في الحب، بخيانة الآباء المتطرفين في القسوة، وبقصص حب وهمية،
وخيبات عاطفية، يصنع منها البعض روائع عالمية في الأدب، ويتحوّل
آخرون على يدها إلى مرضى نفسانيين .
تراني لا أفعل شيئاً بكتابة هذا الكتاب، سوى محاولة الهروب من
صنف المرضى إلى صنف المبدعين؟
آه ياسين . . كم تغيّر العالم منذ ذلك اللقاء . . منذ ذلك الوداع . .
أنت الذي أنهيت روايتك قائلاً على لسان ذلك البطل :
«وداعاً أيها الرفاق . . أيّ شباب عجيب ذاك الذي عشناه ! . . »
لم تكن تتوقع وقتها، أنّ عمرنا سيكون أعجب من سنوات شبابنا
بكثير!

غداً سيكون عرسك إذن . .
وعبثاً أحاول أن أنسى ذلك، وأمشي في شوارع قسنطينة، يسلمني
زقاق إلى آخر . . وذاكرة إلى أخرى .

أما قلتِ إنك لي مادماً في هذه المدينة؟
أين نكونين الآن إذن؟ في أيّ شارع . . في أيّ زقاق من هذه
المدينة المتشعبة الطرقات والأزقة كقلبك، والتي تذكّرني بحضورك
وغيابك الدائم، وتشبهك حدّ الارتباك؟

لست لي . .
أدري أنهم يعدّونك الآن لليلة حبّك القادمة . يعدّون جسدك
لرجل آخر ليس أنا . بينما أهيّم أنا على جراحي لأنسى الذي يحدث
هناك .

مليئاً كان يومك، كيوم عروس، وفارغاً كان يومي، كيوم موظّف
متقاعد .

منذ زمان أخذ كلّ واحد منا طريقاً مغالفاً للآخر . وها نحن نعيش
بمفكرتين متناقضتين، إحداهما للفرح وأخرى للحزن . فكيف أنسى
ذلك؟

كانت كلّ الطرق تؤدّي إليك، حتّى تلك التي سلكتها للنسيان،
والتي كنت تتربّصين لي فيها .

كلّ المدارس والكتاتيب العتيقة . . كلّ المآذن . . كلّ «البيوت
المغلقة» . . كلّ السجون . . كلّ المقاهي . . كلّ الحمامات التي كانت
تخرج منها النساء أمامي جاهزات للحبّ، كلّ الواجهات التي تعرض

الصيفة والشياب الجاهزة للعرائس . وحتى . . تلك المقبرة التي ألقيت
نفسي في سياراة أجرة، ورحت أبحث فيها عن قبر (أُمّا)، وأستعين
بسجلات حارسها لاتعرّف على أرقام الممرّات التي كانت توصل
إليها . . أوصلتني إليك لا غير.

(أُمّا) . . لماذا قادتني قدماي إليها ذلك اليوم بالذات، في ليلة
عرسك بالذات؟ أرحّت أزورها فقط . . أم رحت أدفن جوارها امرأة
أخرى توهّمتها يوماً أُمّي؟

عند قبرها الرخاميّ البسيط مثلها، البارد كقدرها . . والكثير الغبار
كقلبي، تسمّرت قدماي، وتجمّدت تلك الدموع التي خبّأتها لها منذ
سنوات الصقيع والخيبة .

ها هي ذي (أُمّا) . . شبر من التراب، لوجة رخامية تخفي كلّ ما
كنت أملك من كنوز. صدر الأمومة الممتلئ . . راثحتها . . خصللات
شعرها المحنّاة . . طلّتها . . ضحكته . . حزنها . . ووصاياها
الدائمة . . «عندك يا خالد يا ابني . .» .

(أُمّا) عوّضتها بألف امرأة أخرى . . ولم أكبر.

عوّضت صدرها بألف صدر أجمل . . ولم أرتو. عوّضت حبّها بأكثر
من قصّة حبّ . . ولم أشف.

كانت عطراً غير قابل لل تكرار. لوحة غير قابلة للتقليد ولا
للتزوير.

فلماذا في لحظة جنون تصوّرت أنّك امرأة طبق الأصل عنها؟ لماذا
رحت أطالبك بأشياء لا تفهمينها، وبدور لن تطاليه؟

هذا الحجر الرخاميّ الذي أقف عنده أرحم بي منك .

لو يكيّت الآن أمامه . . لأجهش بدوره بالبكاء .

لو تَوَسَّدت حجره البارد، لصعد من تحته ما يكفي من الدف
لمواساتي .
لونا ديتيه (يا أمّا . .) لأجابني ترابه مفجوعاً «واش بيك
آميّة . .؟» .
ولكن كنت أخاف حتّى على تراب (أمّا) من العذاب، هي التي
كانت حياتها مواسم للفجائع لا غير .
كنت أخاف عليها حتّى بعد موتها من الألم، وأحاول كلّما زرتها أن
أخفي عنها ذراعي المتورة .
ماذا لو كان للموق عيون أيضاً؟
ماذا لو كانت المقابر لا تنام . . كم كان يلزمني من الكلام وقتها
لأشرح لها كلّ ما حلّ بي بعدها؟
لم أجهش ساعتها بالبكاء، وأنا أقف أمامها بعد كلّ ذلك العمر .
نحن نبكي دائماً فيما بعد .
مرّرت فقط يدي على ذلك الرخام، وكأني أحاول أن أنزع عنه
غبار السنين وأعتذر له عن كلّ ذلك الإهمال .
ثمّ رفعت يدي الوحيدة لأقرأ فاتحة على ذلك القبر . .
بدائي وقتها ذلك الموقف، وكأنّه موقف سريالي . وبدت يدي
الوحيدة الممدودة للفاتحة وكأنّها تطلب الرحمة بدل أن تعطيها . .
فتنهّدت . . وأخفيت يدي .
ألقيتها داخل جيب سترتي . . وألقيت بخطاي خارج مدينة
التراب . . والرخام .

كان ترقب حسان وزوجته للعرس، واستعداداتها الدائمة له،
للقاء كل الذين سيحضرونه من شخصيات وعائلات كبيرة، يجعلني
أستمع لهما أحياناً، وكأنني أستمع إلى أطفال يتحدثون عن «سيرك»،
سيحل بمدينة لم يزرها سيرك ولا مهرجون من قبل.
وكنت لذلك أشفق عليهما. . وأعذرهما.

لقد كانت قسطنطينة في النهاية، مدينة لا يحدث فيها شيء ما عدا
الأعراس. فتركتهما لفرحتهما ينتظران «السيرك عمار»، واحتفظت لنفسني
بخيبي.

كان كل شيء استثنائياً في ذلك اليوم. وكنت أعرف مسبقاً برنامجي
من أحاديث السهرة.

سيذهب حسان لقضاء حاجاته في الصباح، ثم يصلي صلاة الظهر
في المسجد، وبعدها سيمر بي صحبة (ناصر) لنذهب جميعاً إلى
حضور العرس.

أمّا عتيقة فقد تأخذ الأولاد وتذهب منذ الصباح لترافق العروس
إلى الحلاق. ثم تبقى هناك لتقوم مع نساء أخريات بخدمة الضيوف
وإعداد الطاولات.

كنت أشعر برغبة في البقاء في سريرتي في ذلك الصباح، وعدم
مفادرتي قبل الظهر، ربما بسبب متاعب البارحة، وربما استعداداً
للسهر والمتاعب الأخرى التي تنتظرنني في ذلك اليوم. .

وربما فقط لأنني لم أعد أدري أين يمكنني أن أذهب، بعدما قضيت أسبوعاً وأنا أهيم على وجهي في تلك المدينة التي كانت تتربص بذاكرتي في كل شارع. وكنت تختبئ لي فيها خلف كل منعطف. . . وجدت بعد تفكير قصير، أن السرير هو المكان الوحيد الذي يمكن أن أهرب منك إليه. أو على الأقل ألتقي فيه معك بلذة وليس بالمل. ولكن...

هل سأجرؤ حقاً على استحضارك اليوم. . في هذه اللحظة التي كنت أدري أنك تتجملين فيها استعداداً لرجل آخر؟

هل سأجرؤ على استحضارك في هذا الصباح. . وهل سيفغر لك جسدي حقاً في لحظة نزوة كل خياناتك السابقة والأحقة؟ كان ذلك جنوناً في جنون!!

ولكن أليس هذا الذي كنت تريدونه في النهاية، عندما قلت: «سأكون لك في تلك الليلة. .».

كنت أشعر برغبة في امتلاكك في ذلك الصباح. وكأنني أريد أن أسرق منك كل شيء، قبل أن أفقدك إلى الأبد. فبعد اليوم لن تكوني لي، وستنتهي هذه اللعبة الموحجة الحمقاء التي لم تكن هوايتي قبلك.

موجعاً كان لقائي معك ذلك الصباح.

فيه كثير من الشراسة والمرارة الغامضة.

فيه كثير من الحقد والشهوة الجنونية.

لو كنت لي. .

أه لو كنت لي ذلك الصباح. . في ذلك السرير الكبير الفارغ البارد

دونك. في ذلك البيت الشاسع المسكون بذكريات الطفولة المبثورة. .
وشهوة الشباب المكبوت الذي مرّ على عجل .

لو كنت لي. . لا ممتلكتك كما لم أمتلك امرأة هنا. لا اعتصرتك
بيدي الوحيدة في لحظة جنون. لحولتك إلى قطع. . إلى مواد أوليّة. .
إلى بقايا امرأة. . إلى عجيبة تصلح لصنع امرأة. . إلى أي شيء غيرك
أنت، أي شيء أقلّ غروراً وكبرياء. . أقلّ ظلماً وجبروتاً منك.

أنا الذي لم أرفع يدي الوحيدة في وجه امرأة، ربّما كنت ضربتك ذلك
اليوم حدّ الألم، ثمّ أحبيبتك حدّ الألم، ثمّ جلست إلى جوار جسدك أعتذر
له. .

أقبل كلّ شيء فيك، أحو بشفتيّ حمرة أطرافك المخضبة بالحناء،
لأوشمك بشراصة القبل، عساك عندما تستيقظين تكتشفينني مرسوماً
على جسدك كالوشم، بذلك اللون الأخضر الوحيد الذي لا يرسم
إلا على الجسد!

من أين جاءني كلّ ذلك الجنون؟ أكنت أريد أن أنفرد بك
وأمتلكك قبله، أم كنت أدري يومها بحدسٍ أو بقرارٍ مسبق أنّي
أنفق معك آخر رعشات اللذة، وأنّني سأضعك خارج هذا السرير
بعد اليوم إلى الأبد؟

لم تكن مشكلتي معك مجرد شهوة. لو كانت لحسمتها يومها بطريقة
أو بأخرى.

هنالك أكثر من امرأة هنا يمكن أن يمتلكها رجل دون جهد.

هنالك أكثر من باب نصف مفتوح ينتظر أن يفتحه رجل.

هناك جارات تتقاطع خطواتي بهنّ مراراً في هذه البيوت العربيّة
المشتركة، وأدري رغبتهنّ السريّة في الحبّ .
تعلمت مع الزمن، أن أفكّ رموز نظرات النساء المحتشمات . .
والمبالغات في اللياقة والمفردات المؤدّبة .
ولكنني كنت أتجاهل نظرتهم ودعوتهم الصامتة إلى الخطيئة .
لم أعد أدري اليوم . . إن كنت أنصرف كذلك عن مبدأ . . أم عن
حماقة وشعور غامض بالغثيان؟
كنت في الواقع أشفق عليهنّ . . واحتقر أزواجهنّ الذين يسرون
كالديوك المغرورة دون مبرّر . .
سوى أنهم يمتلكون في البيت دجاجة ممتلئة متشحمة لم يقربها أحد
ربّما عن قرف!
أو أخرى شهية ومدجّة حسب التقاليد ولا يتوقّع صاحبها أن
جناحيها القصيرين . . مازالا يمارسان القفز . . فطرياً!
يا لحماقة الديوك!
إذا كانت كلّ النساء عفيفات هنا، وشرف كلّ الرجال مصوناً،
فمع من يزني هؤلاء إذن؟ وكلّهم دون استثناء يتبحّج في المجالس
الرجاليّة بمغامراته؟
أليس كلّ واحد منهم يضحك على الآخر . . ولا يدري أنّ هناك
من يضحك عليه؟!
كم أكره ذلك الجوّ الموبوء بالنفاق . . وتلك القذارة المتوارثة . .
بنزاهة!

يحدث عندما تتقاطع نظراتي بهنّ، أن أستعيد قولك مرّة، عندما

أبديت لك دهشتي ممّا جاء في روايتك الأولى.. ورحت أستجوبك
بحثاً عن ذاكرة مشبوهة.

قلت:

«لا تبحث كثيراً.. لا يوجد شيء تحت الكلمات.. إنّ امرأة تكتب
هي امرأة فوق كلّ الشبهات.. لأنّها شفافة بطبيعتها.. إنّ الكتابة تطهر
مما يعلّق بنا منذ لحظة الولادة.. ابحث عن القذارة حيث لا يوجد
الأدب!»

وكانت القذارة المتوارثة أمامي في كلّ مكان، في عيون معظم
النساء الجائعات لأيّ رجل كان.

في عصيّة الرجال الذين يحملون شهوتهم تراكمًا قابلاً للانفجار..
امام أوّل أنثى.

ولكن كان عليّ أن أقاوم رغبتى الحيوانيّة ذلك اليوم.. وآلا أترك
تلك المدينة تستدرجني إلى الحضيض.

فهناك مبادئ لا يمكنني التخلّي عنها مهما حدث.. كأن أعاشر امرأة
متزوجة، تحت أيّ مبرر كان.

وربّما كان هذا سرّ حزني الآخر.. فقد كنت أدري أنّ مستحيلًا
آخر قد أضيف إلى مستحيلات أخرى يومها، وأنك لن تكوني لي أبدًا
بعد اليوم.

لم أكن خجولاً من يدي اليمنى ذلك اليوم..
شعرت بشيء من الارتياح، وأنا أكتشف أنني برغم كلّ ما حلّ بي
مازلت أحترم جسدي.

المهمّ في هذه الحالات، ألا نفقد احترام جسدنا ونحن نمنحه لأوّل
عابر سبيل.

فأين يمكن أن نسكر بعد ذلك إن نحن أهناه.. وإن هو رفض
أن ينسى ذلك؟

رميت فجأة بالغطاء، وأجهت نحو النافذة وأشرعتها وكأني أفتحها
ليخرج طيفك منها إلى الأبد، ويدخل النور إلى تلك الغرفة.
في هذه المدينة المسكونة بالجنّ والسحرة، ماذا لو كنت جنّة تسلك
إليّ مع العتمة، تنام إلى جوارى، تقصّ عليّ قصصاً عجيبة، تعدي
بالف حلّ سحريّ لمأساتي.. ثمّ تختفي مع أول شعاع وتركني
لهواجسي وظليّ؟

هل خرج طيفك حقاً يومها من سريري.. من غرفتي وذاكرتي.
وهرب من تلك النافذة؟ لا أدري!
أدري فقط أنّ قسنطينة، دخلت من تلك النافذة نفسها، التي قلما
فتحتها.

وإذا بالأذان يفاجئني من أكثر من مئذنة في آن واحد، ويسمرني في
مكاني أمام الأقدام المسرعة في كلّ الاتجاهات.
وكان جسر (سيدي راشد) يبدو بدوره منهمكاً في حركة دائمة
كامرأة تستعدّ لحدث ما.. مأخوذاً بهوموم اليومية، وبحماس نهايات
الأسبوع.

وجدت في انشغاله عن حزني ذلك الصباح بالذات شيئاً شبيهاً
بالخيانة.. وعدم العرفان بالجميل.
قرّرت بدوري ألاّ أجامله.. فأغلقت في وجهه وجهي.. ورذذت
النافذة..

وفجأة.. انتابني رغبة جارفة للرسم. زوينة شهوة للألوان..
تكاد توازي رغبتني الجنسية السابقة وتساويها عنفاً وتطرفاً.

لم أعد في حاجة إلى امرأة . . شفيت من جسدي وانتقل الألم إلى أطراف أصابعي . .

في النهاية لم يكن السرير مساحة للذئبي ولا لطقوس جنوني. وحدها تلك المساحة البيضاء المشدودة إلى الخشب كانت قادرة على إفراغي من ذاتي .

فيها أريد أن أصب الآن لعنتي ، أبصق مرارة عمرٍ من الخيبات .
أفرغ ذاكرة انحازت للون الأسود . . مذ انحزت لهذه المدينة الملتحفة - حماقة - بالسواد منذ قرون ، والتي تحفي وجهها - تناقضاً - تحت مثلث أبيض للإغراء .

سلاماً أيها المثلث المستحيل . . سلاماً آيتها المدينة التي تعيش مغلقة وسط ثالوثها المحرم (الدين - الجنس - السياسة) . .

كم تحت عباءتك السوداء . . ابتلعت من رجال . فلم يكن أحد يتوقع أن تكون لك طقوس مثلث (برمودا) وشهيته للإغراق . .

كانت الأفكار الرمادية تتوالد في ذهني في ذلك الصباح . والغيظ يملؤني تدريجياً كلما تقدّمت الساعة واقترب وقت قدوم حسان وناصر لمرافقتي إلى ذلك البيت ، لأحضر عرسك .

وكان غيظي وخيبي قد شلّ يدي ومنعاني حتى من أن أحلق ذقني أو أستعدّ لذلك الفرع المأتم .

كنت أذهب وأجيء فجأة في تلك الغرفة بعصبية مدمن تنقصه رشفة أفيونه .

كيف لم أتوقع أن أشعر بهذه الحاجة المرضية اليوم لإمساك فرشاة ، وبهذه الرغبة الجارفة للرسم ؟ تلك الرغبة التي لا تقاوم ، والتي تصبح المأ في أطراف الأصابع ، وتوترُ جسدياً يتقل من عضوٍ إلى آخر ؟

كنت أريد أن أرسم . . وأرسم . . حتى أفرغ من كل شيء . وأقع
ميتاً . . أو مغشى عليّ، إرهاباً ونشوة .

من الأرجح أنني هذه المرة لن أرسم جسوراً ولا قناطر . ربّما
رسمت نساءً بملاءات سوداء . . ومثلثات بيضاء . . وعيون كاذبات ،
واعادات بفرح ما . فاللون الأسود لون كاذب في معظم الأحيان . .
تماماً مثل اللون الأبيض .

وقد لا أرسم شيئاً ، وأموت هكذا واقفاً ، عاجزاً أمام لوحة
بيضاء .

فهل أروع من أن نوقع مساحة بيضاء ببياض ، ونسحب على
رؤوس الأصابع ، مادمناء لم نوقع شيئاً في النهاية ، ووحدها الأقدار
توقع حياتنا ، وتفعل بناء ما تشاء ؟

لماذا التحايل على الأشياء إذن . . لماذا المراوغة ؟
أما كنتِ لوحتي ؟ ما فائدة أن أكون رسمتك ألف مرة ، مادام آخر
سيضع توقيعه عليك اليوم ، سيضع بصماته على جسدك ، واسمه
جوار أوراقك الثبوتية ؟

وماذا تفيد عشرات المساحات التي غطيتها بك ، أمام سرير
سيحتوي جسدك . . ويخلد أنوثتك الأبدية ؟
أيّ جدوى لما أرسمه . . إذا كان هناك دائماً من سيضع توقيعه نيابة
عني كالعادة ؟

في تلك اللحظة المتقدمة من اليأس ، دقّ فجأة الهاتف ، وأخرجني

للمحظة من وحدتي وهواجسي . فرحت أسرع نحو الغرف البعيدة
الأخرى، لأردّ عليه .

كان حسان على الخطّ . سألتني دون مقدمات :

- واش راك تعمل .. ؟

أجبتة بشيء من الصدق :

- كنت غافياً شيئاً ما . .

قال :

- حسناً إذن . . توقّعت أن تكون جاهزاً وتنتظري منذ مدّة . كنت

أريد أن أخبرك أنني قد أتأخّر بعض الوقت . هنالك مشكل صغير
يجب أن أحله .

سألته متعجباً :

- أيّ مشكل ؟

قال :

- تصوّر بماذا طلع لي ناصر اليوم ؟ إنه لا يريد أن يحضر عرس

أخته . .

قلت وأنا أزداد فضولاً :

- لماذا ؟

قال :

- إنه ضدّ هذا الزواج . . ولا يريد أن يلتقي بالضيوف ولا

بالعريس . . ولا حتّى بعمّه !

كدت أقاطعه «معه حقّ» . . ولكنني سألته :

- وأين هو الآن ؟

قال :

- لقد تركته في المسجد . قال لي إنه يفضل أن يقضي يومه هناك بدل أن يقضيه مع هؤلاء «القَوَا . . .» !
ولأول مرة ضحكت من قلبي . ولم أستطع أن أمنع نفسي من التعليق بصوت عالٍ :

- رائع ناصر . . والله «نستعرف بيه» !
ولكن حسَّان قاطعني بصوت فيه شيء من العتاب والعجب :
- واش ييك هيلت إنت تاني . . عيب . . شفت واحد ما يروِّحش لعرس أختو . . واش يقولوا الناس . .
- الناس . . الناس . . يقولوا واش يحبوا . . خلينا يا راجل يرحم والديك . .

وقبل أن أقول له شيئاً قال :
- ابق في البيت إذن . . سأمرك عليك حال ما أنتهي . سنتحدَّث في هذا الموضوع فيما بعد ، فأنا أحدثك من مقهى ، وحوالي كثير من الناس (. . . على بالك . . .) !
ثم أضاف :

- ستجد في المطبخ أكلاً أعدته لك عتيقة . .
وضعت السَّاعة . وعدت إلى غرفتي .
لم أكن في حاجة إلى أكل . كنت فقط أشعر بشيء من الظمأ الصباحي ، وبشيء من المرارة التي صار لها فجأة بعد ذلك الهاتف ، مذاق السعادة الغامضة .
لقد ملأني موقف ناصر غبطة . شعرت أنَّ هناك شخصاً آخر يشاركني حزني دون علمه ، ويقف معي ضدَّ هذا الزواج ، ولكن على طريقته . .

فحلّ ناصر، جدير بأن يكون ابن سي الطاهر.
لم ألتقي به بعد. ولكن أتوقع أن يكون (راسوخشين..). مثل
أبيه. أن يكون عنيداً ومباشراً مثله.
وإذا كان فعلاً مثله فلن ينجح حسّان أبداً في تغيير رأيه.
مازلت أذكر عناد سي الطاهر وقراراته النهائية دائماً، التي لا يمكن
لأحد أن يزيجه عنها.

وقتها كنت أجد في تلك المواقف شيئاً من الدكتاتورية، وغرور
القائد. ثم مع الزمن، أدركت أنه كان لا بدّ للثورة في أيامها الأولى
من رجالٍ مثل سي الطاهر، بذلك العناد، وتلك الثقة المطلقة
بالفس، حتّى يفرضوا رأيهم وسلطتهم على الآخرين، ليس حباً
بالبجاه والسلطة، إنّما للتمّ شمل الثورة وعدم ترك مجال للخلافات
والاعتبارات الشخصية، وحتّى لا تموت تلك الشعلة الأولى وتبعثرها
الرياح..

عادت ذكرى سي الطاهر فجأة. في لحظة لم أحجزها له..
وعادت طلّته، موجعة كتلك الرصاصات التي أفرغوها في جسده
يوماً، وأودت به قبل أن يشهد استقلال الجزائر بأشهر.
أين هو ليحضر هذا اليوم الاستثنائي الذي سيخلف مواعده أيضاً؟
أكان قدره أن يخلف فرحتين؟
رحل كما جاء، سابقاً لزمته، وكأنه أدرك أنه لم يخلق للزمن الآتي.
كنت أعني بشيء من المرارة، أنّ كلّ الذين أحبّوك لن يحضروا
عرسك هذا.
سيتغيّب عن فرحك كلّ الذين كتب فرحتهم. سي الطاهر
وزياد.. وناصر أيضاً.

لماذا وحدي وقعت عليّ تلك القرعة، وقادتني الأقدار إليك؟
ولماذا استدرجتني حتى هنا، باسم الذاكرة والحنين.. وذلك الحب
الجنوني المستحيل، وقلت تلك الجملة التي ملأت جيوب الأحلام
وهماً.. «سأكون لك مادماً في قسطنطينة».

كيف صدقتك.. وجئت؟

وكنت أدري أنك تكذّبين، وتهديني الغيوم البيضاء.. لصيف
طويل.. ولكن.. من يقاوم مطر الكذب الجميل؟
هنالك أكاذيب نحاول أن نصدّقها حتى نحرج النشرات الجوية.
لكن عندما تنهطل الأمطار داخلنا.. من يجفّف دمع الساء؟
في الواقع كنت امرأة سادية، وكنت أعرف ذلك.
أذكر ذلك اليوم الذي قلت لك فيه: «لو خلّف هتلر ابنة في هذا
العالم.. لكانت ابنته الشرعية!».

ضحكت يومها.. ضحكت.. ضحكة حاكم جبار واثق من قوته.
وعلقت أنا بسداجة الضحية: «لا أدري ما الذي أوصلي إلى حبك،
أنا الهارب من حكم الجبابرة.. أيمكن بعد هذا العمر أن أقع في حب
امرأة طاغية..!».

ابتسمت فجأة.. ثم قلت بعد شيء من الصمت: «مدهش أنت
عندما تتحدّث، تفجّر في أكثر من موضوع للكتابة.. سأكتب يوماً
هذه الفكرة..».

اكتبها إذن ذات يوم.. صحيح أنها تصلح لرواية!

في ذلك الصباح، كانت الخمرة ملجئي الوحيد، لأنسى خيبي
معك.

في تلك الغرفة التي يؤثثها سرير فارغ، ونافذة تطلّ على المآذن
والجسور، وطاولة فارغة من لوازم الرسم، لم أجد لي من طوق نجاة
سوى بضع أوراق وأقلام فقط، وزجاجة ويسكي أحضرتها لحسان
قبل أن يتوب، ومازالت في حقيبي تنتظر. فأحضرتها ورحت أشرب
ذلك الصباح نخب زياد وسي الطاهر. . ونخب قسنطينية.
تذكّرت مسرحيّة أعجبت بها يوماً. فكتبت أعلى الصفحة، دون
كثير من التفكير «كأسك يا قسنطينية».

وضحكت لهذا الدور الذي كان جاهزاً لي في هذه المدينة التي تمنع
عنك الخمرة، وتوفّر لك كلّ أسباب شربها.
لم أكن أدري وقتها، أنني كنت أخطّ خلاصة خيبي كلمتين قد
تصلحان عنواناً لهذا الكتاب، الذي ربّما ولدت فكرته يومها.
كانت بي رغبة لتحديك وتحدي هذه المدينة. . وهذا الوطن
الكاذب.

رفعت كأسي المלאى بك. . نخب ذاكرتك التي تحترف مثله
النسيان. نخب عينيك اللتين خلقنا لتكذبا.
نخب فرح اللّيلة الجاهز للبكاء. . نخب بكائي العاجز عن
الدموع.

أنت التي صالحتني مع الله، وأعدتني يوماً إلى العبادة. ها أنت
تخونيني ليلة جمعة. . تحلين دمي، وتطلقين عليّ رصاص الغدر. .

فلماذا لا أسكر اليوم . . من أكثرنا كفوياً يا ترى!
في الواقع، لم تكن الخمرة هوايتي. كانت مشروب فرحي وحزني
المتطرف. ولذا ارتبطت بك وبتقلباتك الجنونية. ففي كل مرة شربت
فيها كنت أؤرخ لحديث ما في قصتنا التي لا تنتهي.
وها أنا أفتح على شرفك زجاجتي الأخيرة. . وأرتكب جنوني
الأخير. فلا أعتقد أنني قد أسكر بعد اليوم. لأنني سأغسل يدي منك
اليوم. . وأشبعك على طريقي.
وحده أمر ناصر يعني الآن، أخيك الذي يصلي في هذه اللحظة
في أحد مساجد هذه المدينة، لينمي مثلي، أنهم سيتناوبون على
وليمنتك الليلة. . وأن هناك من سيتمتع بك في غفلة منا. .
في الواقع. . كنت أسكر نخبه. . لا غير!
إيه ناصر. .

أنا. . وأنت. . وهذه المدينة.
مدينة تواطأت معنا في التطرف والجنون. مدينة «سادية» تلذذ
بتمذيب أولادها. حبلت بنا دون جهد. ووضعتنا كما تضع سلاحف
بحرية أولادها عند شاطئ وتمضي دون اكتراث، لتسلمهم لرحمة
الأمواج والطيور البحرية. .

«افكروا. . وإلا الله لا يجعلكم تفكروا. .» يقول «الفكرون» في
ذلك المثل الشعبي وهو يتخلل عن أولاده.

وها نحن بلا أفكار. . نبحث عن قدرنا بين الحانات والمساجد.
ها نحن سلاحف تنام على ظهرها. قلبوها حتى لا تهرب، قلبوها
في محاولة انقلاب على المنطق. .

فكم يشبه الميلاد الموت في المدن المريفة، حيث نولد ونموت وسط
مجرى الهواء والرياح المضادة!

وما أكبر يتم السلاحف في هذه المدينة!

عندما جاء حسان بعد ذلك، وفاجأني جالساً أكتب أمام تلك
الطاولة وأمامي زجاجة ويسكي نصف فارغة، كاد يشهق من
العجب. وظلّ ينظر إليّ مدهوشاً وكأنني بفتح تلك الزجاجة أخرجت
له مارداً، أو جنّاً أطلقتة في البيت.

حاولت أن أمازحه فألته بسخرية:

- لماذا تنظر إليّ هكذا. . ألم ترّ زجاجة كهذه قبل اليوم؟
ولكنّه دون أية رغبة في المزاح أخذ الزجاجة من أمامي، وذهب بها
إلى المطبخ، وهو يسبّ ويتحدّث لنفسه كلاماً لم يكن يصلني.
وعندما عاد قال لي بنبرة فيها شيء من اليأس وبقايا من متاعب
ناصر:

- يا أخي واش بيكم. . البلاد متخذة وأنتما واحد لاتي يصلي. .
وواحد لاتي يسكر. . كيفاش نعمل معاكم؟
توقّف سمعي عند ذلك التعبير الذي لم أسمعته منذ عدّة سنوات
«البلاد متخذة» والذي يعني به أنّ المدينة قائمة قاعدة. . أو تشهد
حدثاً استثنائياً، والذي هو في الواقع تعبير جنسيّ محض.
ابتسمت وأنا أكتشف مرّة أخرى قدرة هذه المدينة على زجّ الصور
الجنسية في كلّ شيء. . وذلك براءة مدهشة. .

رفعت عيني نحوه وقلت له بشيء من السخرية المرّة:

- هذه هي الجزائر يا حسان. . البعض يصلي. . والبعض
يسكر. . والآخرين أثناء ذلك «ياخذوا في البلاد. .»!

ولكن حسان لم يبدُ على استعداد للتمادي معي في النقاش .
ربما لأنه بعد ذلك الوقت الذي قضاه في إقناع ناصر لم يعد قادراً
على المزيد من المناقشة . فقال وهو يقاطعني :
- سأذهب لأحضر لك قهوة ، حتى تفيق وتطير عنك هذه
السكره . . ثم نتحدث . إن الناس ينتظروننا هناك وبعضهم لم يرك
منذ سنوات . يجب ألا تذهب إليهم في هذه الحالة !
عندما عاد بعد لحظات بالقهوة سألته :
- ماذا فعلت مع ناصر ؟

قال :

- لقد وعدني أنه سيمر هناك وقت العشاء إرضاءً لخاطري فقط ،
ولكنه لن يمكث طويلاً . ويرغم ذلك أشك في أن يحضر فعلاً . لا
أفهم عناده هذا . . إنه لا يملك سوى أخت واحدة في النهاية . . ولا
يمكن ألا يقف في عرسها أمام الناس .
جنون !

كنت أحتسي تلك القهوة حتى يطير سكري ، حسب تعبير حسان .
ولكن كنت أشعر في الواقع أنني أزداد سكرًا أو جنونًا ، وأنا أستمع
إليه .

كتلك اللحظة التي سألته فيها عن سبب مقاطعة ناصر لهذا
العرس ، وإذا بالحديث يجرننا إلى أكثر من موضوع .
قال :

- إنه على خلاف مع عمه . فهو يعتقد أنه استفاد كثيراً من اسم
سي الطاهر ، وأنه قلما اهتم بمصير زوجة أخيه وأولاده . وهذا العرس
لا هدف له غير أسباب وصولية ومطامع سياسية محض . . فهو ضدّ

اختيار عمه لهذا العريس السيء الصيت سياسياً وأخلاقياً. فالجميع يتحدث عن العملات التي يتقاضاها في صفقاته المختلفة. . وعن حساباته في الخارج. . وعن عشيقاته الجزائريّات. . والأجنبيّات. إضافة إلى كون هذا الزواج زواجه الثاني، وأن له أولاداً يقارب عمرهم عمر عروسه الجديدة. .

سألته:

- وهل تجد أنت هذا الزواج طبيعياً؟

قال:

- لا أدري بأيّ منطق تريد أن أحكم عليه. من المؤكّد أنه بمنطق الأشياء عندنا زواج طبيعي. إنه ليس أوّل زواج من هذا النوع، ولن يكون الأخير. . إن لمعظم الرجال المهمّين هنا أكثر من عشيقة. وكلّهم تخلّوا بطريقة أو بأخرى عن زوجاتهم وأولادهم، ليتزوّجوا من عروس جديدة أصغر عمراً وأكثر جمالاً وثقافة من الأولى. . إنك لا تستطيع أن تمنع رجلاً عندنا زادوا له نجمة على أكتافه، من أن يزيد امرأة في بيته، أو تمنع رجلاً حصل على منصب جديد لم يحلم به، من أن يبدأ في البحث عن فتاة أحلامه.

وأضاف:

- أنا حاولت فقط أن أقنع ناصر أن عمه لم يقصد بالضرورة القضاء على مستقبل أخته بهذا الزواج. بل إن أي شخص سواه كان سيرحب بهذه المصاهرة. . ويسعى إليها لاهثاً. . إنها الطريقة الوحيدة ليحلّ مشكلاته ومشكلات ابنته مرّة واحدة، ويوفر عليها كثيراً من المتاعب. .

سألته:

- لو كانت لك بنت وخطبها منك هذا الرجل، أكنت زوّجته منها؟

قال:

- طبعاً.. ولم لا؟ إن الزواج حلال.. الحرام هو ما يمارسه بعضهم بطرقٍ عسريّة. كان يرسل أحدهم ابنته أو زوجته.. أو اخته لتحضر له ورقة من إدارة، أو تطلب شقة أو رخصة لمحلّ تجاريّ نيابة عنه، وهو يعلم أنّ لا أحد هنا يعطيك شيئاً بلا مقابل. لقد خلق البسطاء بأنفسهم عملة أخرى للتداول ويقضون بها حاجاتهم.. هات امرأة.. وخذ ما تشاء!

تمتت بذهول:

- أحقّ ما تقول؟

أجاب:

- إنّه ما يحدث الآن في أكثر من مدينة.. وفي العاصمة بالذات.. حيث يمكن لأيّ فتاة تمرّ بمكتب ما في الحزب أن تحصل على شقة أو خدمة أخرى.. والجميع يعرف العنوان طبعاً، ويعرف اسم من يوزّع الشقق والخدمات على النساء والشعارات على الشعب بالتساوي.. يكفي أن ترى منظر الفتيات اللّاتي يدخلن هناك لتفهم كلّ شيء..

سألته:

- ومن أدراك بهذا؟

قال متذمّراً:

- من؟ لقد سمعته بأذني وشاهدته بعيني يوم ذهبت هناك منذ بضعة أشهر لأقابل صديقاً موظّفاً في الحزب.. عساه يساعدني في الخروج من سلك التعليم. تصوّر.. حتّى البوّاب لم يكلف نفسه مشقة الحديث إليّ.. وعشاً رحت أشرح له أنّي قادم من قسطنطينة لهذا الغرض. وحدهنّ النساء كنّ جديرات بالعناية هناك.. وعندما

أبدت تذمري «لأخ الفَراش» أجنبي بشيء من العصبية،
و«التشناف» أن معظم الزائرات.. موظفات في الاتحادات الحزبية..
أو مناضلات. وكدت أسأله وأنا أرى إحداهن تمر أمامي «بأي
«عضو» ناضلن على التحديد..؟» ولكنني سكت.

إيه.. يا ولدي روح.. كل شيء أصبح يمرّ بالنساء اليوم.
بالسهرات.. والمجالس الخاصة. ولذا لو كنت أملك الخيار لزوجت
ابنتي من واحد يمكنه بهاتف أن يأتيها بكل شيء. على أن أعطيها
لواحد مثلي يعيش معها في البؤس كما أعيش أنا.. أو يدخل في هذه
الحلقة القذرة.. ويبيعها تدقّ على مئة باب؟

ربما لاحظ وقتها آثار الصدمة المدهشة على ملاحي.. وتلك المראה
التي أسكتني من الدهول، عندما أضاف وكأنه يستدرك ليخفف من
خبيتي:

- على كل حال.. لن يحدث هذا. حتى لو عرضت ابنتي على
(سي...) فمن المؤكد أنه لن يقبل بها. إنهم لا يتزوجون إلا من
بعضهم. ففلان لا يريد إلا بنت فلان، حتى «يبقى زيتنا في
دقيقنا!» ويضمنوا لأنفسهم التنقل من كرسي سلطة إلى آخر،
فكيف تريد في هذا الجو أن يستطيع شاب بسيط أن يبني حياته؟ كل
البنات يبحثن عن المسؤولين والمديرين والرجال الجاهزين.. وهؤلاء
يعرفون ذلك فيزيدون من شروطهم كل مرة.. بينما عدد العوانس
يزيد كل يوم.. إنه قانون العرض والطلب.

إذا رأيت الأمور بهذه العين، فإنك حتماً تعذر سي الشريف. المهم
أن يستر بنت أخيه، ويضمن لها ولنفسه مستقبلاً سعيداً قدر
الإمكان.

أما كون العريس سارقاً وناهباً لأملاك الدولة... فماذا تريد أن
تفعل؟ كلهم سراق ومحتالون. هنالك من انفضحت أموره، وهنالك
من عرف كيف يحافظ على مظهر محترم... فقط!
أصبت بذهول وأنا أستمع إليه.
كدت أقول له إنه في النهاية على حق. وربما كان سي الشريف
أيضاً على حق... لا أدري.
ولكن كان هناك شيء ما في هذا الزواج، يرفض أن يدخل عقلي
وأقتنع به.

الفصل السادس

لعرسك لبست بدليتي السوداء .
مدهش هذا اللون . يمكن أن يلبس للأفراح . . وللمآتم !
لماذا اخترت اللون الأسود ؟
ربما لأنني يوم أحبيتك أصبحت صوفيًا ، وأصبحت أنت مذهبي
وطريقتي . وربما لأنه لون صحتي .
لكل لون لفته . قرأت يوماً أن الأسود صدمة للصبر .
قرأت أيضاً أنه لون يحمل نقيضه . ثم سمعت مرة مصمم أزياء
شهيراً ، يجيب عن سر لبسه الدائم للأسود قال : «إنه لون يضع
حاجزاً بيني وبين الآخرين» .
ويمكن أن أقول لك اليوم الكثير عن ذلك اللون . ولكنني سأكتفي
بقول مصمم الأزياء هذا .
فقد كنت في ذلك اليوم أريد أن أضع حاجزاً بيني وبين كل الذين
سألتني بهم ، كل ذلك الذباب الذي جاء ليحط على مائدة فرحك .
وربما كنت أريد أن أضع حاجزاً بيني وبينك أيضاً .
لبست طقمي الأسود ، لأواجه بصمت ثوبك الأبيض ، المرشوش
باللؤلؤ والزهور ، والذي يقال إنه أعد لك خصيصاً في دار أزياء
فرنسية . .
هل يمكن لرسم أن يختار لونه بحياد ؟
وكنت أنيقاً . فللمحزن أناقته أيضاً . أكدت لي المرأة ذلك . ونظرة

حَسَّان، الذي استعاد فجأة ثقته بي، وقال بلهجة جزائرية أحبها،
وهو يتألمني: «هكذا نحبك آخالد... إهلكهم...!».

نظرت إليه... كدت أقول له شيئاً... ولكنني صمت.

عند الباب المشرع للسيارات، وأفواج القادمين، استقبلني سي
الشريف بالأحضان...

- أهلاً سي خالد... أهلاً... زارتنا البركة... يعطيك الصحة اللي

جيت... راك فرحتني اليوم.

اختصرت ذلك الموقف العجيب مرة أخرى في كلمة. قلت:

- كل شيء مبروك...

وضعت قناع الفرع على وجهي. وحاولت أن أحتفظ به طوال

تلك السهرة.

يمتد البيت زغاريد. ويمتلئ صدري بدخان السجائر التي أحرقها

وتحترقني. يمتلئ قلبي حزناً. ويتعلم وجهي تلقائياً الابتسامات

الكاذبة. فأضحك مع الآخرين. أجالس من أعرف ومن لا أعرف.

أتحادث في الذي أدري والذي لا أدري. حتى لا أخلو بك لحظة

واحدة... حتى لا أفاجئك داخلي... فأنهار.

أسلم على العريس الذي يقبلني بشوق صديق قديم لم يلتق به

منذ مدة:

- ماك جيت للجزائر آ سيدي... كان موش هاذ العرس... ما

كناش شفاك!

أحاول أن أنسى أنني أتحادث لزوجك، لرجل يتحدث إليّ بمعاملة

على عجل، وهو يفكر ربما في اللحظة التي سينفرد فيها بك في آخر

الليل...

أتأمل سيجاره الذي اختاره أطول للمناسبة . . بدلكه الزرقاء
الحريرية التي يلبسها - أو تلبسه - بأناقة من تعود على الحرير . أحاول
ألا أتوقف عند جسده . أحاول ألا أتذكر . أتلهى بالنظر إلى وجوه
الحاضرين .
وتطلين . .

تدخلين في موكب نسائي، يحترف البهجة والفرح، كما أحترف أنا
الرسم والحزن .

أراك لأول مرة، بعد كل أشهر الغيبة تلك، تمرين قرية وبعيدة،
كنجمة هاربة . تسيرين . . مثقلة الأثواب والخطى، وسط الزغاريد
ودقات البندير . وأغنية تستفز ذاكرتي، وتعود بي طفلاً أركض في
بيوت قسنطينة القديمة . في مواكب نسائية أخرى . . خلف عروس
أخرى . . لم أكن أعرف عنها شيئاً يومذاك .

آه كم كنت أحب تلك الأغاني التي كانت تزف بها العرائس،
والتي كانت تطربني دون أن أفهمها . وإذا بها اليوم تبكي!

«شرعي الباب يا أم العروس . . » يقال إن العرائس يبكين دائماً
عند سماع هذه الأغنية .
تراك بكيت يومها؟

كانت عيناك بعيدتين . . يفصلني عنهما ضباب دمعي وحشد
الحضور . فعدلت عن السؤال .

اكتفيت بتأملك، في دورك الأخير .

ها أنت ذي تتقدمين كأميرة أسطورية، مغرية شهية، محاطة
بنظرات الانبهار والإعجاب . . مرتبكة . . مربكة، بسيطة . . مكابرة .

ها أنت ذي ، يشتهيك كلّ رجل في مرّة كالعادة . . تحسدك كلّ
النساء حولك كالعادة . .

وها أنذا - كالعادة - أواصل ذهولي أمامك .
وها هوذا «الفرقاني» . . كالعادة . . يغني لأصحاب النجوم
والكراسي الأماميّة .

يصبح صوته أجمل ، وكمنجنته أقوى عندما يزفّ الزوجاء
وأصحاب القرار والنجوم الكثيرة .
تعلو أصوات الآلات الموسيقيّة . . ويرتفع غناء الجوقة في صوت
واحد لترجّب بالعريس :

«يا ديني ما أحلا لي عرسو . . بالعوادة . .
الله لا يقطع لؤ عادة . .

وانخاف عليه . . خمسة . والخميس عليه»
تعلو الزغاريد . . وتتساقط الأوراق النقدية .
ما أقوى الحناجر المشتراة . وما أكرم الأيدي التي تدفع كما تقبض
على عجل !

ها هم هنا . .

كانوا هنا جميعهم . . كالعادة .

أصحاب البطون المتفخة . . والسجائر الكويّنة . . والبذلات التي
تلبس على أكثر من وجه .

أصحاب كلّ عهد وكلّ زمن . . أصحاب الحقائق الدبلوماسية ،
أصحاب المهّمات المشبوهة ، أصحاب السعادة وأصحاب التعاسة ،
وأصحاب الماضي المجهول .

ها هم هنا . .

وزراء سابقون . . ومشاريع وزراء . سراق سابقون . . ومشاريع
سراق . مديرون وصوليون . . ووصوليون يبحثون عن إدارة . مخبرون
سابقون . . وعسكر متكرون في ثياب وزارية .
ها هم هنا . .

أصحاب النظريات الثورية، والكسب السريع . أصحاب العقول
الفارغة، والفيئات الشاهقة، والمجالس التي يتحدث فيها المفرد
بصيغة الجمع .

ها هم هنا . . مجتمعون دائماً كأسماك القرش . ملتقون دائماً حول
الولائم المشبوهة .

أعرفهم وأتجاهل معظمهم «ما تقول أنا . . حتى يموت كبار
الحارة!»

أعرفهم وأشفق عليهم .

ما أتعسهم في غناهم وفي فقرهم . في علمهم وفي جهلهم . في
صعودهم السريع . . وفي انحدارهم المفجع!
ما أتعسهم، في ذلك اليوم الذي لن يمدّ فيه أحد يده حتى
لمصافحتهم .

في انتظار ذلك . . هذا العرس عرسهم . فليأكلوا وليطربوا .
وليرشقوا الأوراق النقدية . وليستمعوا للفرقاني يردد كما في كل عرس
قسطنطيني أغنية «صالح باي» .

تلك التي مازالت منذ قرنين تُغنى للعبرة، لتذكر أهل هذه المدينة
بفجيعة (صالح باي) وخدعة الحكم والجاه الذي لا يدوم لأحد . .

والتي أصبحت تُغنى اليوم بحكم العادة للطرب دون أن تستوقف
كلماتها أحداً . .

كانوا سلاطين ووزراء ماتوا وقبلنا عزاهم
نالوا من المال كثرة لا عزهم .. لا غناهم
قالوا العرب قالوا ما نعطيو صالح ولا مألو ..
أتذكر وأنا أستمع لهذه الكلمات، أغنية عصرية أخرى وصلتني
كلماتها من مذياع بموسيقى راقصة .. تتغزل بصالح آخر «صالح» ..
يا صالح .. وعينيك عجبوني ..
إيه قسنطينة، لكل زمن «صالحه» .. ولكن ليس كل «صالح»
بأيا .. وليس كل حاكم صالحاً!

ها هوذا الوطن الآخر أخيراً أمامي .. أهذا هو الوطن حقاً؟
في كل مجلس وجه أعرف عنه الكثير. فأجلس أتأملهم، وأستمع
لهم يشكون ويتذمرون.

لا أحد سعيد منهم حسب ما يبدو.
الدهش أنهم هم دائماً الذين يبادرونك بالشكوى، وينقد
الأوضاع .. وشم الوطن.
عجبية هذ الظاهرة!

كانهم لم يركضوا جميعاً خلف مناصبهم زحفاً على كل شيء. كأنهم
ليسوا جزءاً من قذارة الوطن. كأنهم ليسوا سبباً في ما حل به من
كوارث ..

أسلم على (سي مصطفى). لقد أصبح وزيراً منذ ذلك اليوم الذي
زارني فيه ليشتري مني لوحة. ورفضت أن أبيعها إياها.
لقد نجحت تكهنات (سي الشريف) إذن، فقد راهن على حصان
رايح ..

أسأله مجاملة:

- واش راك سي مصطفى؟
فيبدأ دون مقدمات بالكشوى:
- رانا غارقين في المشاكل .. على بالك ..!
تحضرني وقتها، مصادفةً، مقولة لديقول: «ليس من حق وزير أن يشكو» .. فلا أحد أجبره على أن يكون وزيراً!».
أحتفظ بها لنفسي وأقول له فقط ..
- إيه .. على بالي ..
نعم .. كنت (على بالي ..) بتلك المبالغ الهائلة التي تقاضاها في كندا كعمولة لتجديد معدّات إحدى الشركات الوطنية الكبرى.
ولكنني كنت أحتج أن أقول له ذلك، لأنني أدري أن الذين سبقوه إلى ذلك المنصب .. لم يفعلوا أحسن منه.
اكتفيت فقط بالاستماع إليه وهو يشكو، بطريقة تثير شفقة أي مواطن مسكين ..
بينما كان حُسان مشغولاً عني بالحديث مع صديق قديم .. كان أستاذاً للعربية .. قبل أن يصبح فجأة .. سفيراً في دولة عربية!
كيف حدث ذلك؟

يقال إنه ردّ دين .. وقضية «تركة» وصداقة قديمة تجمع ذلك الأستاذ بوالد إحدى الشخصيات .. وأنها ليست «الحالة الدبلوماسية» الوحيدة!

مثل (سي حسين) الذي أعرفه جيداً والذي كان مدير إحدى المؤسسات الثقافية، يوم كنت أنا مديراً للنشر. وإذا به بين ليلة وضحاها يعين سفيراً في الخارج .. بعدما طلعت راحته في الداخل.

فتكفلوا بلفه في بضعة أشهر وبعثه إلى الخارج مع كل التشريفات
الدبلوماسية خلف علم الجزائر!

ها هوذا اليوم هنا . . في جوّه الطبيعي .

لقد استدعي إثر قضية احتيال وتلاعب بأموال الدولة في الخارج،
ليعاد دون ضجيج إلى وظيفة حزبية . . ولكن على كرسيّ جانبيّ هذه
المرّة .

هنالك دائماً في هذه الحالات . . سلّة مهملات شرفيّة!

في مجلس آخر، مازال أحدهم ينظر ويتحدّث وكأنّه مفكّر الثورة
وكلّ ما سيليها من ثورات . وإحدى ثورات هذا الشخص . . أنّه
وصل إلى الصفوف الأماميّة في ظروف مشبوهة، بعدما تفرّغ لتقديم
طالباته إلى مسؤول عجوز مولع بالفتيات الصغيرات . .
هذا هو الوطن . .

وهذا هو عرسك الذي دعوتني إليه . إنّه «السيرك عمار» . . سيرك
لا مكان فيه إلّا للمهرّجين، ولمن يحترفون الألعاب البهلوانيّة . .
والقفز على المراحل . . والقفز على الرقاب . . والقفز على القيّم .
سيرك يضحك فيه حفنة على ذقون الناس، ويروّض فيه شعب
بأكمله على الغباء .

فكم كان ناصر محقّقاً عندما لم يحضر إلى هذا الكرنفال!

كنت أدري بحدسٍ ما أنّه لن يحضر . . ولكن أين هو الآن ؟

تراه مازال يصليّ في ذلك المسجد . . لكي لا يلتقي بهم . وهل
تغيّر صلاته . . أو يغير سكريّ شيئاً؟

آه ناصر! كفّ عن الصلاة يا ابني . لقد أصبحوا يصلّون أيضاً
ويلبسون ثياب التقوى .

كفّ عن الصلاة . . وتعال تفكّر قليلاً . فأثناء ذلك ها هوذا
الذباب يحطّ على كلّ شيء، والجراد يلتهم هذه الوليمة .

كلّما تقدّم الليل، تقدّم الحزن بي، وتقدّم بهم الطرب . وانهطل
مطر الأوراق النقدية عند أقدام نساء الذوات، المستسلمات لنشوة
الرقص، على وقع موسيقى أشهر أغنية شعبية . .

«إذا طاح الليل وثّن انباتو فوق فراش حرير وتحدّأتو . .»
أمان . . أمان . .

إيه آ الفرقاني غنّ . .

لا علاقة لهذه الأغنية بأزمة السكن، كما قد يبدو من الوهلة
الأولى . إنها فقط تمجيد لليلي الحمراء والأسرة الحريّة التي ليست في
متناول الجميع .

«ع الليّ ماتوا . . يا عين ما تبكيش ع الليّ ماتوا . .»
أمان . . أمان . .

لن أبكي . . ليست هذه ليلة لسي الطاهر . . ولا لزياد .
ليست للشهداء ولا للعشاق . إنها ليلة الصفقات التي يحتفل بها
علناً بالموسيقى والزغاريد .

«خارجة من الحمام بالريحّة يا لندراش للغير وإلا لي . .»
أمان . . أمان . .

لن أطرح على نفسي هذا السؤال . الآن أعني أنك للغير ولست
لي . تؤكّد ذلك الأغنيات، وذلك الموكب الذي يهرب بك، ويرافقك
بالزغاريد إلى ليلة حبك الشرعيّة .

وعندما تمرّين بي، عندما تمرّين . . وأنت تمشين مشية العرائس

تلك، أشعر أنك تمشين على جسدي، ليس «بالريحية» وإنما بقدميك
المخضبتين بالحناء.. وأن خلخالك الذهبي يدقّ داخلي، ويعبرني
جرساً يوقظ الذاكرة..
قفي..

قسنطينية الأثواب مهلاً! ما هكذا تمرّ القصائد على عجل!
ثوبك المطرز بخيوط الذهب، والمرشوش بالصكوك الذهبية،
معلقة شعر كتبها قسنطينية جيلًا بعد آخر على القطيفة العنابي
وحزام الذهب الذي يشدّ خصرك، لتندفقي أنوثة وإغراء، هو
مطلع دهشتي.

هو الصدر والعجز في كلّ ما قد قيل من شعر عربيّ.
فتمهلي..

دعيني أحلم أنّ الزمن توقف.. وأنتِ لي. أنا الذي قد أموت
دون أن يكون لي عرس، ودون أن تنطلق الزغاريد يوماً من أجلي.
كم أتمنى اليوم لو سرقك كلّ هذه الحناجر النسائية، لتبارك
امتلاكي لك!

لو كنت «خطاف العرائس» ذلك البطل الخرافي الذي يهرب
بالعرائس الجميلات ليلة عرسهنّ، لجثثك أمطي الريح وفرساً
بيضاء.. وخطفتك منهم..

لو كنتِ لي.. لباركتنا هذه المدينة، ولخرج من كلّ شارع عبرناه
وليّ يحرق البخور على طريقنا.. ولكن ما أحزن الليلة.. قسنطينية!
ما أتعس أولياءها الصالحين.. وحدهم جلسوا إلى طاولتي دون سبب
واضح.. وحجزوا لذاكرتي الأخرى كرسيّاً أماميّاً..
وإذا بي أقضي سهرتي في السلام عليهم واحداً واحداً..

سلاماً يا سيدي راشد ..
سلاماً يا سيدي مبروك .. يا سيدي محمد الغراب .. يا سيدي
سليمان .. يا سيدي بو عتابة .. يا سيدي عبد المؤمن .. يا سيدي
مسيد .. يا سيدي بومعزة .. يا سيدي جليس ..
سلاماً يا من تحكمون شوارع هذه المدينة .. أزقتها وذاكرتها .
قفوا معي يا أولياء الله .. متعب أنا الليلة .. فلا تتخلوا عني ..
أما كان منكم أبي؟

أبي يا «عيساوي» أباً عن جد؟
أنت الذي كنت في تلك الحلقات المغلقة، في تلك الطقوس
الطرقية العجيبة، تغرس في جسدك ذلك السفود الأحمر الملهب
ناراً .. فيحترق جسدك من طرف إلى آخر، ثم تخرجه دون أن تكون
عليه قطرة دم؟
أنت الذي كنت تمرر حديده الملهب والمحمّر كقطعة جمر، فينطفئ
جمره من لعابك، ولا تحترق.
علمني الليلة كيف أتعذب دون أن أنزع.
علمني كيف أذكر اسمها دون أن يحترق لساني.
علمني كيف أشفى منها، أنت الذي كنت ترّد مع جماعة
«عيساوة» في حلقات الجذب والتهويل، وأنت ترقص مأخوذاً
باللهب:

«أنا سيدي عيساوي .. يجرح ويداوي ..»

من يداويني يا أبي .. من؟
وأحبها ..

في هذه الساعة المتأخرة من الألم، أعترف أنني مازلت أحبها..
وأنا لي.

أتحدّى أصحاب البطون المنتفخة.. وذلك صاحب اللحية..
وذلك صاحب الصلعة.. وأولئك أصحاب النجوم التي لا تعدّ..
وكلّ الذين منحتهم الكثير.. واغتصبوها في حضرتي اليوم.
أتحدّاهم بنقضي فقط.

بالذراع التي لم تعد ذراعي، بالذاكرة التي سرقوها مني، بكلّ ما
أخذوه منا.

أتحدّاهم أن يحبّوها مثلي. لأنني وحدي أحبها دون مقابل.
وأدري أنّه في هذه اللحظة، هناك من يرفع عنها ثوبها ذاك على
عجل. يخلع عنها صيغتها دون كثير من الاهتمام ويركض نحو
جسدها بلهفة رجل في الخمسين يضاجع صبيّة.
حزني على ذلك الثوب.. حزني عليه.

كم من الأيدي طرّزته، وكم من النساء تناوئن عليه، ليتّمع اليوم
برفعه رجل واحد. رجل يلقي به على كرسيّ كيفما كان، وكأنّه ليس
ذاكرتنا، كأنّه ليس الوطن.

فهل قدر الأوطان أن تعدّها أجيال بأكملها، لينعم بها رجل
واحد؟

أتساءل اللّيلة.. لماذا وحدي تستوقفني كلّ هذه التفاصيل. وكيف
اكتشفت الآن فقط، معنى كلّ الأشياء التي لم يكن لها معنى من
قبل؟

أترأه عُشق هذا الوطن.. أم البعد عنه، هو الذي أعطى الأشياء
العاديّة قداسة لا يشعر بها غير الذي حرم منه؟

الآن المعاشة اليومية تقتل الحلم وتغتال قداسة الأشياء، كان أحد الصحابة ينصح المسلمين بأن يغادروا مكة، حال انتهائهم من مراسيم الحج، حتى تبقى لتلك المدينة رهبتها وقداستها في قلوبهم، وحتى لا تتحول بحكم العادة إلى مدينة عادية يمكن لأي واحد أن يسرق ويزني ويجور فيها دون رهبة؟

إنه ما يحدث لي منذ وطئت قدماي هذه المدينة. وحدي أعاملها كمدينة فوق العادة.

أعامل كل حجر فيها بعشق. أسلم على جسورها جسراً جسراً. أسأل عن أخبار أهلها، عن أوليائها وعن رجالها، واحداً.. واحداً..

أتأملها وهي تمشي، أتأملها وهي تصلي، وتزني وتمارس جنونها. ولا أحد يفهم جنوني وسرّ تعلقي بمدينة يحلم الجميع بالهرب منها. هل أعتب عليهم؟

هل يشعر سكان أئنا أنهم يعيشون ويحيثون على ذاكرة التاريخ.. وعلى تراب مشيت عليه الآلهة، وأكثر من بطل أسطوري؟ هل يشعر سكان الجيزة في بؤسهم وفقرهم، أنهم يعيشون عند أقدام معجزة، وأن الفراعنة مازالوا بينهم، يحكمون مصر بحجرهم وقبورهم؟

وحدهم الغرباء الذين قرأوا تاريخ اليونان والفراعنة، في كتب التاريخ، يعاملون تلك الحجارة بقداسة، ويأتون من أطراف العالم لمجرد الاقتراب منها.

تراني أطلت المكوث هنا، واقتربت حماقة الاقتراب من الأحلام حتى الاحتراق، وإذا بي يوماً بعد آخر، وخيبة بعد أخرى، أشفى من

سلطة اسمها علي، وأفرغ من وهي الجميل . . ولكن ليس دون ألم؟
في هذه اللحظة، لا أريد لهذه المدينة أن تكون أكثر من رصاصة
رحمة.

ولذا أتقبل تلك الزغاريد التي انطلقت في ساعة متقدمة من
الفجر، لتبارك قميصك الملطخ ببراءتك، كآخر طلفة نارية تطلقها في
وجهي هذه المدينة، ولكن دون كاتم صوت . . ولا كاتم ضمير.
فألتقاهما جامداً . . مذهول النظرات كجثة، بينما أرى حولي من
يتسابق للمس قميصك المعروض للفرجة.

ها هم يقدمونك لي، لوحة ملطخة بالدم، دليلاً على عجز
الآخر. دليلاً على جريمتهم الأخرى.

ولكنني لا أتحرك ولا أحتج. ليس من حقّ مشاهد لمصارعة
الثيران، أن يغيّر منطق الأشياء، وينحاز للثور. وإلا كان عليه أن
يبقى في بيته ولا يحضر «كوريدا» خلقت أساساً لتمجيد «الموتادور»!

شيء ما في هذا الجوّ المشحون بالزغاريد والزينة وموسيقى
«الدخلة» . . والهتافات أمام ثوب موقع بالدم، يذكرني بطقوس
الكوريدا. وذلك الثور الذي يعدّون له موتاً جليلاً على وقع موسيقى
راقصة يدخل بها الساحة، ويموت على نغمها بسيف مزينة للقتل،
مأخوذاً باللون الأحمر، وبأناقة قاتله!

من منّا الثور؟ أنت أم أنا المصاب بعمى الألوان، والذي لا يرى
الآن غير اللون الأحمر . . لون دمك؟

ثور يدور في حلبة حبك، بكبرياء حيوان لا يهزم إلا خدعة،
ويدري أنه محكوم عليه بالموت المسبق.

الواقع أن دمك هذا يربكني، يخرجني، ويملأني تناقضاً.

أما كنت أتحرق دائماً لمعرفة نهاية قصّتك معه، هو الذي أخذك مني، تراه أخذ منك كل شيء؟

سؤال كان يشغلني ويسكنني حدّ الجنون، منذ ذاك اليوم الذي وضعت فيه (زياد) أمامك. ووضعتك أمام قدرك الآخر.

تراك فتحت له قلاعك المحصّنة، وأذللت أبراجك العالية، واستسلمت لإغراء رجولته؟

تراك تركت طفولتك لي، وأنوثتك له؟

ها هو الجواب يأتي بعد عام من العذاب. ها هو أخيراً لزج.. طري.. أحر.. وردي.. عمره لحظات.

ها هو الجواب كما لم أتوقّعه، مقحماً، محرّجاً، فلم الحزن؟
ما الذي يؤلّني الأكثر هذه اللّيلة.. أن أدري أنّي ظلمت زياداً بظني، وأنّه مات دون أن يتمتّع بك، وأنّه في النهاية كان هو الأجدر بك اللّيلة؟

أم أن تكوني فقط، مدينة فتحت اليوم عنوة بأقدام العسكر، ككلّ مدينة عربيّة؟

ما الذي يزعجني أكثر اللّيلة؟ أن أكون قد عرفت لغزك أخيراً، أم كوني أدري أنّي لن أعرف عنك شيئاً بعد اليوم، ولو تحدّث إليك عمراً، ولو قرأتك ألف مرّة؟

أكتب عذراء إذن، وخطاياك حبر على ورق؟

فلماذا أوهمتني إذن بكلّ تلك الأشياء؟ لماذا أهديتني كتابك وكأنك تهديني خنجراً للغيرة؟

لماذا علّمتني أن أحبك سطرأ بعد سطر.. وكذبة بعد أخرى..
وإن أغتصبك على ورق!

فليكن ..
عزائي اليوم، أنك من بين كلّ الخييات .. كنت خييتي الأجل.



يسألني حسّان: لماذا أنت حزين هذا الصباح؟
أحاول ألاّ أسأله: ولماذا هو سعيد اليوم؟
أدري أنّ غياب ناصر ومقاطعته البارحة للعرس، قد عكّر نوعاً ما
مزاجه. ولكنّه لم يمتعه من أن ينسجم مع أغاني «الفرقاني»، وأن
يضحك .. ويحدث كثيراً من الناس الذين لم يلتق بهم من قبل.
كنت ألاحظه. وكنت سعيداً شيئاً ما، لسعادته الساذجة تلك.
كان حسّان سعيداً أن تفتح له أخيراً تلك الأبواب التي قلّما تفتح
للعامّة، وأن يدعى لحضور ذلك العرس الذي يمكنه الآن أن يتحدث
عنه في المجالس لأيّام؛ ويصفه للآخرين الذين سيلاحقونه بالأسئلة،
عن أسماء من حضروا وما قدّم من أطباق .. وما لبست العروس ..
ويمكن لزوجته أيضاً أن تنسى أنّها استعارت صيغتها والثياب التي
حضرت بها العرس من الجيران والأقارب، وتبدأ بدورها في التفاخر
على الجميع بما رآه من بذخ في ذلك العرس، وكأنّها أصبحت فجأة
طرفاً فيه، فقط لأنّها دعيت للتفرّج على خيرات الآخرين.
قال فجأة:

- إنّ سي الشريف يدعونا غداً للغداء عنده. لا تنس أن تكون في
البيت وقت الظهر لنذهب معاً ..

قلت له بصوتٍ غائب:

- غداً سأعود إلى باريس.

صاح:

- كيف تعود غداً.. ابق معنا أسبوعاً آخر على الأقل.. ما الذي ينتظرك هناك؟

حاولت أن أوهمه أن لي بعض الالتزامات، وأني بدأت أتعب من إقامتي في قسطنطينة.

ولكنه راح يلح:

- يا أخي عيب.. على الأقل احضر غداء سي الشريف غداً ثم سافر..

أجبت بهلجة قاطعة لم يفهم سببها:

- فرات.. غدوة نروح.

كان يحلوي أن أحدثه بهلجة قسطنطينية. كنت أشعر مع كل كلمة ألقها، أنه قد يمر وقت طويل قبل أن ألقها مرة أخرى.

قال حسان وكأنه يقنعني بضرورة عدم رفض تلك الدعوة:

- والله سي الشريف ناس ملاح.. مازال برغم منصبه وفيّاً لصداقتنا القديمة. أتدري أن البعض يقول هنا إنه قد يصبح وزيراً. ربّما يفرجها الله علينا في ذلك اليوم على يده..

قال حسان هذه الجملة الأخيرة بصوت شبه خافت، وكأنه يقولها لنفسه..

مسكين حسان!

مسكين أخي الذي لم يفرجها الله عليه بعد ذلك. أكان من السذاجة بحيث يجهل أن ذلك العرس هو صفقة لا غير، وأن سي الشريف لا بدّ أن يتلقّى شيئاً ما مقابلته. نحن لا نصاهر ضباطاً من الدرجة الأولى.. دون نوايا مسبقة.

أما بالنسبة لما يمكن أن يربح حُسان من وراء منصب سي الشريف
المحتمل. . فمجرد أوهم.

المؤمن يبدأ بنفسه، وقد تمرَّ سنوات قبل أن يصل دور حُسان. .
وينال بعض ما يطمح إليه من فتات.

سألته مازحاً:

- هل بدأت تحمل أن تصبح أنت أيضاً سفيراً؟

قال وكأنَّ السؤال قد جرحه نوعاً ما:

- يا حسرة يا رجل. . «اللي خطف. . خطف بكري. .» أنا لا
أريد أكثر من أن أهرب من التعليم، وأن أستلم وظيفة محترمة في آية
مؤسسة ثقافية أو إعلامية، آية وظيفة أعيش منها أنا وعائلتي حياة شبه
عادية. . كيف تريد أن نعيش نحن الثمانية بهذا الدخل؟. أنا عاجز
حتى عن أن أشتري سيارة. من أين آتي بالملايين لأشترىها؟. عندما
أتذكر تلك السيارات الفخمة التي كانت مصطفةً أمس في ذلك
العرس، أمرض وأفقد شهية التعليم. لقد تعبت من هذه المهنة،
أنت لا تشعر بأيّة مكافأة مادية أو معنوية فيها. لقد تغير الزمن الذي
«كاد فيه المعلم أن يكون رسولاً». . اليوم حسب تعبير زميلي لي «كاد
المعلم أن يكون (شيفوناً)» وخرقة لا أكثر.

لقد أصبحنا ممسحة للجميع. فالأستاذ يركب الحافلة مع تلاميذه.
و«يدرز» و«يطبخ» مثلهم. ويشتمه الناس أمامهم. ثم يعود مثل زميلي
هذا، ليعدّ دروسه ويصحح الامتحانات في شقّة بغرفتين، يسكنها
ثمانية أشخاص وأكثر. .

بينما هناك من يملك شقتين وثلاثاً بحكم وظيفته أو واسطاته. .

يمكنه أن يستقبل فيها عشيقاته أو يعبر مفاتيحها لمن سيفتح له أبواباً أخرى.

صحة عليك يا خالد.. أنت تعيش بعيداً عن هذه الهوم، في حيك الراقي بباريس.. ما على بالكش واش صاير في الدنيا!

آه حسان.. عندما أذكر حديثنا ذلك اليوم، تصبح المارة غصة في الحلق، تصبح جرحاً، تصبح دمعاً، تصبح ندماً وحسرة. كان يمكن أن أساعدك أكثر، صحيح.

كنت تقول: «اطلب شيئاً يا خالد مادمت هنا، ألسنت مجاهد؟» ألم تفقد ذراعك في هذه الحرب؟ اطلب محلاً تجارياً.. اطلب قطعة أرض.. أو شاحنة، إنهم لن يرفضوا لك شيئاً. هذا حقك. وإذا شئت دعه لي لاستفيد منه وأعيش عليه أنا وأولادي.. أنت مجرمونك ويعرفونك، وأما أنا فلا يعرفني أحد. إنه جنون ألا تأخذ حقك من هذا الوطن. إنهم لا يتصدقون عليك بشيء. أكثر من واحد يحمل شهادة مجاهد وهو لم يقم بشيء في الثورة. أنت تحمل شهادتك على جسدك..»

إيه حسان.. لم تكن تفهم أن هذا هو الفرق الوحيد بيني وبينهم. لم تكن تفهم أنه لم يعد ممكناً اليوم، بعد كل هذه السنوات، وكل هذا العذاب، أن أطاطي رأسي لأحد.. ولو مقابل آية هبة وطنية. رُبما كنت فعلت هذا بعد الاستقلال. ولكن اليوم مع مرور الزمن، أصبح ذلك مستحيلاً.

لم يبقَ من العمر الكثير أخي. لم يبقَ من العمر الكثير، لأطاطي رأسي قبل الموت.

أريد أن أبقى هكذا أمامهم، مفروساً كشوكة في ضميرهم. أريد

أن ينجلوا عندما يلتقون بي، أن يطأطأوا هم رؤوسهم ويسألوني عن أخباري، وهم يعرفون أنني أعرف كل أخبارهم، وأني شاهد على حقارتهم.

آه لو تدري حسان!

لو تدري لذة أن تمشي في شارع مرفوع الرأس، أن تقابل أي شخص بسيط أو هام جداً، دون أن تشعر بالخجل.
هناك من لا يستطيع اليوم أن يمشي خطوتين على قدميه في الشارع، بعدما كانت كل الشوارع محجوزة له. وكان يعبرها في موكب من السيارات الرسمية.

لم أقل شيئاً لحسان. وعدته فقط كمرحلة أولى أن أشتري له سيارة. قلت له: «تعال معي، واختر سيارة تناسبك. تأخذها معك من فرنسا. لا أريد أن تعيش هكذا في هذه الحالة بعد اليوم...».

فرح حسان يومها كطفل. شعرت أن ذلك كان حلمه الكبير الذي كان عاجزاً عن تحقيقه، وعاجزاً عن طلبه مني. ولكن كيف لي أن أعرف ذلك وأنا لم أزره منذ سنوات؟

عندما أذكر حسان اليوم، وحدها تلك الالتفاتة تبعث في قلبي شيئاً من السعادة، لأنني أسعدته بعض الوقت، ومنحته راحة لبضع سنوات.

سنوات... لم أكن أتوقع أن تكون الأخيرة.

عاد حسان إلى موضوعه قال:

- هل أنت مصرحاً على السفر غداً؟

قلت له:

- نعم... من الأرجح أن أسافر غداً..

قال :

- إذن لا بدّ أن تطلب سي الشريف اليوم ، لتعذر منه . فقد يسيء
تفسير موقفك . . ويأخذ على خاطره . .
فكرت قليلاً فوجدته على حقّ . قلت لحسان :

- اطلب لي رقم سي الشريف لأعذر إليه . .
كنت أتوقّع أن تتوقّف الأمور هناك . ولكن سي الشريف راح
يرحّب بي . . ويخرجني بلطفه ، ويلجّ لأحضر لزيارته ولو في ذلك
الحين . .

قال :

- تعال إذن وتغذّ معنا اليوم . . المهمّ أن نراك قبل أن تسافر . . ثمّ
يمكنك أن تقدّم هديّتك بنفسك للعروسين قبل أن يسافرا أيضاً هذا
المساء . .

لم يكن هناك من مخرج . وجدت نفسي مرّة أخرى ، أواجه قدري
معك . أنا الذي قرّرت السفر على عجل ، حتّى أنتهي من العيش في
هذه الأجواء التي كانت تدور كلّها بطريقة أو بأخرى حولك .

ها أنا مرّة أخرى ألبس بدلي السوداء نفسها ، أحمل لوحة توقفت
أمامها يوماً وكانت سبب كلّ ما حلّ بي بعد ذلك . وأذهب مع حسان
إلى الغداء . .

ها هما قدماي تقوداني مرّة أخرى نحوك . كنت أدري أنّي
سألتقي بك هذه المرّة . كان هناك حدس مسبق يشعّرنّي أنّنا لن
نخلف هذا الموعد اليوم .

ما الذي قاله سي الشريف ذلك اليوم ؟ ما الذي قلته ومن قابلت

من الناس؟ وماذا قدّم لنا من أطباق على تلك السفرة.. لم أعد أذكر.

كنت أعيش لحظات حبك الأخيرة. ولم يكن يهمني شيء في تلك اللحظة، سوى أن أراك.. وأن أنتهي منك في الوقت نفسه!
ولكن.. كنت أخاف حبك. كنت أخاف أن يشتعل حبك من رماده مرة أخرى. فالحب الكبير، يظلّ مخيفاً حتى في لحظات موته..
يظلّ خطراً حتى وهو يختصر.
وجئت..

أكثر اللحظات وجعاً، أكثر اللحظات جنوناً، أكثر اللحظات سخرية، كانت تلك التي وقفت فيها لأسلم عليك، وأضع على وجحتك قبليتين بريتين، وأنا أهتُك بالزواج، مستعملاً كلّ المفردات اللاتقة بذلك الموقف العجيب.

كم كان يلزمني من القسوة، من الصبر ومن التمثيل، لأوهم الآخرين أنني لم ألتقي بك قبل اليوم، سوى مرة عابرة، وأنت لم تكوني المرأة التي قلبت حياتي رأساً على عقب؟
المرأة التي تقاسمني سريرى الفارغ منذ عدة أشهر، والتي كانت حتى البارحة.. لي!

كم كان يلزمني من التمثيل، لأهديك تلك اللوحة، دون أي تعليق إضافي، دون أية إشارة توضيحية، وكأنّها لم تكن اللوحة التي بدأت بها قصتي معك منذ خمس وعشرين سنة.

وكم كنت مذهة أنت في تمثيلك، وأنت تفتحنيها وتلقين نظرة معجبة عليها، وكأنك تريها لأول مرة! فلا أستطيع إلا أن أسألك بتواطؤ سرّي جمعنا يوماً:

- هل تحين الجسور؟
ويحيم بيتنا فجأة صمتٌ قصير، يبدو لي طويلاً كالحظة تسبق حكماً
بالإعدام.. أو بالعفو.

قبل أن ترفعي عينيك نحوي وينزل حكمك علي:
- نعم أحبها!

كم من السعادة منحتني لحظتها في كلمتين!
شعرت أنكِ تبعين لي آخر إشارة حب.

شعرت أنكِ تهديني أكثر من مشروع لوحة قادمة. أكثر من ليلة
وهيئة.. وأنتك رغم كل شيء ستظلين وفيّة لذاكرتنا المشتركة..
ولمدينة تواطأت معنا، ومدّت كل هذه الجسور.. لتجمعنا.

ولكن.. أكنت حبيبي حقاً؟ في تلك اللحظة التي كان رجل آخر
فيها إلى جوارك. يلتهمك بعينين لم تشبعهما ليلة حب كاملة، في تلك
اللحظة التي كان فيها الحديث يدور حول المدن التي ستزورها في
شهر العسل، وكنت أنا أشبعك بصمت، لسفرك الأخير عن قلبي..

لقد كانت تلك هزيمتك الأولى معي.. انتهى كل شيء إذن. ها
أنا قابلتك أخيراً، أكان هذا اللقاء يستحق كل ذلك الانتظار، كل
ذلك الألم؟

كم كان حلمي به جميلاً! وكم هو اليوم مدهش ومسطح في راقعه!
كم كان مليئاً بانتظارك، وكم هو فارغ.. موجه بحضورك!

أكانت نصف النظرة التي تبادلناها بين نظرتين، تستحق كل ذلك
الوجع، كل ذلك الشوق والجنون؟

تريدين أن تقولي لي شيئاً، وتلعثم الكلمات.. تلعثم النظرات.

لقد نسيت عيناك الحديث إليّ . . ولم أعد أعرف فك رموزك
الهيروغليفية .

فهل عدنا يومها إلى مرتبة الغرباء، دون أن ندري؟
افترقنا . .

قبلتان أخيرتان على وجتتك . نظرة . . نظرتان . . وكثير من
التمثيل، وألم سرّي صامت .

تبادلنا جميعاً كلمات المجاملة والتهاني والشكر الأخير .
تبادلنا عناويننا، بعدما أصرّ زوجك على أن يعطيني رقم هاتفه في
البيت وفي المكتب في حالة ما احتجت إلى شيء .
وانصرفنا كلُّ بوجهه . . وقراره المسبق .

عندما عدت إلى البيت بعد ذلك، نظرت طويلاً إلى تلك البطاقة
التي كنت أتحسّسها طوال الطريق بشيء من الدهول . . ومذاق ساخر
للمرارة . وكأنّك انتقلت معها من قلبي إلى جيبي تحت اسم ورقم
هاتفي جديد .

ودون كثير من التردد . . أو التعمّق في التفكير، قرّرت أن أمزّقها
فوراً، مادمت أملك القدرة على ذلك، ومادمت مصمّماً على أن ينتهي
كلّ شيء هنا في قسنطينة . . كما أردت يوماً، وكما أصبحت أريد أنا
اليوم .

ما الذي كنت تريدني ذلك المساء؟ عندما جاء هاتفك فجأة
ليخرجني من دوامة أفكاري وأحاسيسي المتناقضة؟
حين مدّ حسان نحوي الهاتف وقال: «هناك امرأة تريد أن
تحدّث إليك . .» توقّعت كلّ شيء إلا أن تكوني أنت .

سألتكِ بدهشة:

- ألم تسافري بعد؟

قلت:

- سنسافر بعد ساعة.. أردت أن أشكرك على اللوحة.. لقد

وهبتني سعادة لم أتوقعها..

قلت لك:

- أنا لم أهبك شيئاً.. لقد أعدت لك لوحة كانت جاهزة لك منذ

خمس وعشرين سنة.. إنها هدية قدرنا الذي تقاطع يوماً. وأما أنا فلي

هدية أخرى لك أتوقع أن تعجبك، سأقدمها لك ذات يوم فما بعد..

قلت بصوت خافت وكأنك تخافين أن يسرق أحد السمع إليك أو

يسرق منك تلك الهدية:

- ماذا ستهديني؟

قلت:

- إنها مفاجأة.. لنفترض أنني سأهبك غزالة.

قلت مدهوشة:

- إنه عنوان كتاب!

قلت:

- أدري.. لأنني سأهبك كتاباً. عندما نحب فتاة نهبها اسمنا.

عندما نحب امرأة نهبها طفلاً. وعندما نحب كاتبة.. نهبها كتاباً.

سأكتب من أجلك رواية.

أحسست في صوتك بشيء من الفرح والارتباك.. شيء من

الدهشة والحزن الغامض. ثم قلت فجأة بنبرة عشقية لم أعهد لها

منك:

- خالد .. أحبك .. أتدري هذا؟
وانقطع صوتك فجأة، ليتوحد بصمتي وحزني، ونبقي هكذا
لحظات دون كلام. قبل أن تضيفي بشيء من الرجاء:
- خالد .. قل شيئاً .. لماذا لا تحب؟
قلت لك بشيء من السخرية المرة:
- لأن رصيف الأزهار لم يعد يجيب ..
- هل تعني أنك لم تعد تحبني؟
أجبتك بصوت غائب:
- أنا لا أعني شيئاً بالتحديد .. إنه عنوان لرواية أخرى للكاتب
نفسه!

ماذا قلت لك بعدها، لا أذكر. من الأرجح أن يكون هذا آخر ما
قلته لك قبل أن أضع السماعة، ونفترق لعدة سنوات.



«لا تطرقني الباب كل هذا الطرق .. فلم أعد هنا» .
لا تحاولي أن تعودتي إلي من الأبواب الخلفية، ومن ثقب
الذاكرة، وثنايا الأحلام المبطونة، ومن الشبايبك التي أشرعتها
العواصف .
لا تحاولي ..

فأنا غادرت ذاكرتي . يوم وقعت على اكتشاف مذهل : لم تكن تلك
الذاكرة لي، وإنما كانت ذاكرة مشتركة أنقاسمها معك . ذاكرة يحمل
كل منا نسخة منها حتى قبل أن نلتقي .
لا تطرقني الباب كل هذا الطرق سيدي .. فلم يعد لي باب .

لقد تخَلَّت عنيّ الجدران يوم تخَلَّيت عنك، وانهار السقف عليّ وأنا
أحاول أن أهرَّب أشيائي المبعثرة بعدك.
فلا تدوري هكذا حول بيت كان بيتي.

لا تبحثني عن نافذة تدخلين منها كسارقة. لقد سرقت كلَّ شيء
مني، ولم يعد هناك من شيء يستحقّ المغامرة.
لا تطرقي الباب كلَّ هذا الطرق المجمع..
هاتفك يدقّ في كهوف الذاكرة الفارغة دونك، ويأتي الصدى
موجعاً وخيفاً.

ألا تدرين أنني أسكن هذا الوادي بعدك، كما يسكن الحصى
جوف «وادي الرمال»؟
تمهلي سيدتي إذن..

تمهلي وأنت تمرّين على جسور قسنطينة. فأية زلّة قدم سترميني
يسيل من الحجارة. وأي سهو منك سيرميك هنا عندي لتخطمي
معي.

يا امرأة متتكرة في ثياب أمي.. في عطر أمي وفي خوف أمي
علي..

متعب أنا.. كجسور قسنطينة. معلق أنا مثلها بين صخرتين وبين
رصيفين.

فلماذا كلّ هذا الألم..؟ ولماذا.. أكذب الأمهات أنت، وأحق
العشاق أنا!

لا تطرقي أبواب قسنطينة الواحد بعد الآخر.. أنا لا أسكن هذه
المدينة.. إنها هي التي تسكنني.

لا تبخني عني فوق جسورها، هي لم تحملني مرة.. وحدي أنا
حلتها.

لا تسألني أغانيها عني، وتأتي لاهثة بخير قديم - جديد، وأغنية
كانت تغني للحزن فصارت تغني للأفراح..

«قالوا العرب قالوا ما نعطيُ صالح ولا مألو
قالوا العرب هيهات ما نعطيُ صالح باي البايات.»
أعرف عن ظهر قلب ما قاله العرب، وما لم يجرؤوا اليوم على
قوله.

وأدري.. كان «صالح» ثوب حدادك الأول حتى قبل أن تولدي.
كان آخر بايات قسطنطينة.. وكنت أنا وصيته الأخيرة: «يا حمودة..
آه يا وليدي تها الله لي في الدار.. آه.. آه..»
أي دار يا صالح.. أي دار توصيني بها؟

لقد زرت (سوق العصر) وشاهدت دارك فارغة من ذاكرتها.
سرقوا حتى أحجارها، وشباييكها الحديدية. خربوا ممراتها وعبثوا
بنقوشها.. وظلّت واقفة، هيكلًا مصفرًا يبول الصعاليك والسكراري
على جدرانها.

أي وطن هذا الذي يبول على ذاكرته يا صالح؟
أي وطن هذا؟

ها هي ذي مدينة تلبس حداد رجل لم تعد تذكر اسمه. وها أنت
ذي طفلة لا أحد يعرف قرابتها بهذه الجسور..

فانزعي «ملايتك» بعد اليوم.. وارفعي عن وجهك الخمار، ولا
تطرقني الباب كل هذا الطرق..
فلم يعد صالح هنا.. ولا أنا.

افترقنا إذن . .

الذين قالوا الحبّ وحده لا يموت، أخطأوا . .

والذين كتبوا لنا قصص حبّ بنهايات جميلة، ليومئنا أنّ مجنون
ليلي محض استثناء عاطفيّ . . لا يفهمون شيئاً في قوانين القلب .
إنهم لم يكتبوا حبّاً، كتبوا لنا أدباً فقط .

العشق لا يولد إلّا في وسط حقول الألغام، وفي المناطق
المحظورة . ولذا ليس انتصاره دائماً في النهايات الرصينة الجميلة .
إنّه يموت كما يولد . . في الخراب الجميل فقط !

افترقنا إذن . .

فيا خرابي الجميل سلاماً . يا وردة البراكين، ويا ياسمينه نبئت على
حرائقي سلاماً .

يا ابنة الزلازل والشروخ الأرضيّة ! لقد كان خرابك الأجل
سيدتي، لقد كان خرابك الأفطع . .
قتلت وطناً بأكمله داخلي، تسلّلت حتّى دهاليز ذاكرتي، نسفت
كلّ شيء يعود ثقاب واحد فقط . .

من علّمك اللعب بشطايا الذاكرة؟ أجيبي !

من أين أتيت هذه المرة - أيضاً - بكلّ هذه الأمواج المحرقة من
النار . من أين أتيت بكلّ ما تلا ذلك اليوم من دمار؟
افترقنا إذن . .

لم تكوني كاذبة معي . . ولا كنتِ صادقة حقّاً . لا كنتِ عاشقة . .
ولا كنتِ خائنة حقّاً . لا كنتِ ابنتي . . ولا كنتِ أمي حقّاً .

كنتِ فقط كهذا الوطن .. يحمل مع كلِّ شيء ضده .
أتذكرين؟

في ذلك الزمن البعيد، في ذلك الزمن الأول، يوم كنت تحبيني
وتبحثين فيّ عن نسخة أخرى لأبيك .
قلت مرّة:

- انتظرتك طويلاً .. انتظرتك كثيراً، كما تنتظر الأولياء
الصالحين .. كما تنظر الأنبياء . لا تكن نبياً مزيفاً يا خالداً .. أنا في
حاجة إليك!

لاحظت وقتها أنك لم تقولي أنا أحبك . قلتِ فقط «أنا في حاجة
إليك» ..

نحن لا نحب بالضرورة الأنبياء . نحن في حاجة إليهم فقط .. في
كلِّ الأزمنة .
أجبتك:

- أنا لم أختَر أن أكون نبياً ..

قلتِ مازحة:

- الأنبياء لا يختارون رسالتهم، إنهم يؤدونها فقط!

أجبتك:

- ولا يختارون رعيّتهم أيضاً . ولذا لو حدث واكتشفت أنني نبيّ
مزيف .. قد يكون ذلك لأنني بعثت لرعيّة تحترف الردة!

ضحكت .. وبعناد أنثى يغريها التحدي قلت:

- أنت تبحث عن مخرج لفشلك المحتمل معي، أليس كذلك؟ ..

لن أمنحك مبرراً كهذا . هات وصاياك العشر وأنا أطبقها .

نظرت إليك طويلاً يومها . كنت أجمل من أن تطبقي وصايا نبيّ،

أضعف من أن تحملي ثقل التعاليم السماوية . ولكن كان فيك نورٌ
داخلي لم أشهده في امرأة قبلك . . بذرة نقاء لم أكن أريد أن
أتجاهلها . .

أليس دور الأنبياء البحث عن بذور الخير فينا؟

قلت:

- دعي الوصايا العشر جانباً واسمعي . . لقد جئتُك بالوصية
الحادية عشرة فقط . .

ضحكت وقلت بشيء من الصدق:

- هات ما عندك أيها النبي المفلس . . أقسم أنني سأبتلعك!

لحظتها شعرت برغبة في أن أستغل قسمك . وأقول لك: «كوني لي
فقط . .» ولكن لم يكن ذلك كلام نبي . وكنت دون أن أدري قد
بدأت أمثل أمامك الدور الذي اخترته لي . . فرحت أبحث في ذهني
عن شيء يمكن أن يقوله نبي يباشر وظيفته لأول مرة . . قلت:

- احملي هذا الاسم بكبرياء أكبر . . ليس بالضرورة بغرور، ولكن
بوعي عميق أنك أكثر من امرأة . أنت وطن بأكمله . . هل تعين
هذا؟ ليس من حق الرموز أن تتهم . . هذا زمن حقير، إذا لم ننحز
فيه إلى القيم سنجد أنفسنا في خانة القاذورات والمزابل . لا تنحازي
لشيء سوى المبادئ . . لا تجاهلي أحداً سوى ضميرك . . لأنك في
النهاية لا تعيشين مع سواه!

قلت:

- أهذه وصيتك لي . . فقط؟!

قلت:

- لا تستهني بها.. إن تطبيقها ليس سهلاً كما تتوهمين..
ستكتشفين ذلك بنفسك ذات يوم..
كان لا بدّ ألاّ تسخري يومها من وصيّة ذلك النبيّ المفلس..
وتسهليها إلى هذا الحدّ. !

مرّت ستّ سنوات على ذلك السفر. على ذلك اللقاء، ذلك
الوداع.

حاولت خلالها أن ألملم جرحي وأنسى. حاولت منذ عودتي، أن
أضع شيئاً من الترتيب في قلبي. أن أعيد الأشياء إلى مكانها الأوّل،
دون ضجيج ولا تدمّر، دون أن أكسر مزهريّة، دون أن أغيّر مكان
لوحة، ولا مكان القيم القديمة التي تكدّس الغبار عليها داخلي منذ
زمان.

حاولت أن أعيد الزمان إلى الوراء، دون حقد ولا غفران أيضاً.
لا.. نحن لا نغفر بهذه السهولة لمن يجعلنا بسعادة عابرة،
نكتشف كم كنّا نتمسّاء قبله. ونغفر أقل، لمن يقتل أحلامنا أمامنا
دون أدنى شعور بالجريمة.

ولذا لم أغفر لك.. ولا لهم.
حاولت فقط أن أتعامل معك ومع الوطن بعشق أقلّ. واخترت
الأمبالاة عاطفة واحدة نحوكما.

كان يحدث لأخبارك أن تصلني عن طريق المصادفة، وأنا أستمع
إلى من يتحدّث عن زوجك، عن صعوده المستمرّ.. وعن صفقاته
وشؤونه السريّة والعلنيّة التي تشغل أحاديث المجالس.

وكان يحدث لأخبار الوطن أن تأتيني أيضاً تارة في جريدة، وتارة في
مجالس أخرى. وتارة عندما زارني حسّان بعد ذلك لآخر مرّة ليشتري
تلك السيّارة التي وعدته بها..

وكلّ مرّة، كنت أواجه كلّ ما أسمع به بالأمبالاة نفسها التي لا
يمكن أن يولّدها سوى اليأس الأخير.

بدأت أتعلّق بحسّان فقط، وكأنّني اكتشفت فجأة وجوده. أصبح

أمره وحده يهمني بعدما وعيت أنه كل ما تبقى لي في هذا العالم،
وبعدما اكتشفت تلك الحياة البائسة التي كان يعيشها، والتي كنت
أجهل كل شيء عنها قبل زيارتي إلى قسنطينة.

أصبحت أطلبه هاتفياً بانتظام. أسأله عن أخباره وعن الأولاد،
وعن البيت الذي كان ينوي أن يقوم فيه ببعض الإصلاحات، والذي
وعده أن أتكفل بمصاريف ترميمه وتجديده.

كانت معنوياته تنخفض وترتفع من هاتف إلى آخر. كان يحدثني
تارة عن بعض مشاريعه، وعن بعض الاتصالات التي يقوم بها ليم
نقله إلى العاصمة. ثم يعود ويفقد فجأة حماسه.

كنت أعرف ذلك عندما يسألني في آخر مكالمته:

.. متى ستأتي يا خالد؟

أشعر عندئذ أنه باخرة تغرق، وتبعث إشارة صوتية تطلب النجدة
مني.

وبرغم ذلك، كنت أسايره فقط، وأعده كل مرة أنني قد أزوره في
الصيف القادم. وكنت أعرف في أعماقي أنني أكذب، وأني قطعت
الجسور مع الوطن حتى إشعار آخر.

في الواقع، أصبحت عندي قناعة بانعدام الأمل. كان القطار يسير
في الاتجاه المعاكس، وبسرعة لم يكن ممكناً معها أن نفعل شيئاً. أي
شيء، غير الذهول وانتظار كارثة الاصطدام.

وكنت أحزم حقائب القلب. وأمضي دون أن أدري في اتجاه آخر
أيضاً، في الاتجاه المعاكس للوطن.

رحلت أوثقت غربي بالسيان. أصنع من المنفى وطناً آخر لي، وطناً
ربّما أبدياً، عليّ أن أعود العيش فيه.

بدأت أتصالح مع الأشياء. أقمت علاقات طبيعيّة مع نهر
السين. . مع جسر ميرابو. . مع كلّ المعالم التي كانت تقابلني من
تلك النافذة، والتي كنت أعيش في معاداة لها دون سبب.

اخترت لي أكثر من عشيقّة عابرة. أثّرت سريري بالملذّات
الجنونيّة. . بنساء كنت أدهشهنّ كلّ مرّة أكثر، وأقتلك بهنّ كلّ مرّة
أكثر، حتّى لم يبق شيء منك في النهاية.

نسي هذا الجسد شوقه لك، نسي تطرّفه وحماقاته وإضرابه عن كلّ
لذّة ما عدا لذّتك الوهميّة.

تعمّدت أن أفرغ النساء من رموزهنّ الأولى.

من قال إنّ هناك امرأة منفى، وامرأة وطناً، فقد كذب. .

لا مساحة للنساء خارج الجسد. والذاكرة ليست الطريق الذي
يؤدّي إليهنّ. في الواقع هنالك طريق واحد لا أكثر. . يمكنني أن
أجزم اليوم بهذا!

اكتشفت شيئاً لا بدّ أن أقوله لك اليوم. .

الرغبة محض قضية ذهنيّة. ممارسة خياليّة لا أكثر. وهمّ نخلقه في
لحظة جنون نفع فيها عبيداً لشخص واحد، ونحكم عليه بالروعة
المطلقة لسبب غامض لا علاقة له بالمنطق.

رغبة تولد هكذا من شيء مجهول، قد يعيدنا إلى ذكرى أخرى. .
لعطر رائحة أخرى. . لكلمة، لوجه آخر. .

رغبة جنونيّة تولد في مكان آخر خارج الجسد، من الذاكرة أو ربّما
من اللاشعور، من أشياء غامضة تسلّلت إليها أنت ذات يوم، وإذا

بك الأروع، وإذا بك الأشهى، وإذا كلّ النساء أنتِ.
أفهمت لماذا قتلتك تلفائياً يوم قتلت قسنطينة في داخلي؟
ولم أعجب يومها وأنا أرى جثتك ممددة في سريري.
لم تكونا في النهاية سوى امرأة واحدة.

ستقولين: لماذا كتبت لي هذا الكتاب إذن؟ وسأجيبك أنني أستعير
طقوسك في القتل فقط، وأنني قرّرت أن أدفئك في كتاب لا غير.
فهناك جثث يجب ألا نحتفظ بها في قلبنا. فللحبّ بعد الموت،
رائحة كريهة أيضاً، خاصّة عندما يأخذ بُعد الجريمة.
لاحظني أنني لم أذكر اسمك مرّة واحدة في هذا الكتاب. قرّرت
هكذا أن أتركك بلا اسم. هنالك أسماء لا تستحقّ الذكر.
لنفترض أنك امرأة كان اسمها «حياة»، وربّما كان لها اسم آخر..
فهل مهمّ اسمك حقاً؟

وحدها أسماء الشهداء غير قابلة للتزوير، لأنّ من حقّهم علينا أن
نذكرهم بأسمائهم كاملة. كما من حقّ هذا الوطن علينا أن نفصح من
خانوه، وبنوا مجدهم على دماره، وثروتهم على بؤسه، مادام لا يوجد
هناك من يحاسبهم.

وأدري.. ستقول إشاعة ما إنّ هذا الكتاب لك. أوّكد لك
سيّدتي تلك الإشاعة.

سيقول نقاد يمارسون النقد تعويضاً عن أشياء أخرى، إنّ هذا
الكتاب ليس رواية، وإنّما هذيان رجل لا علم له بمقاييس الأدب.
أوّكد لهم مسبقاً جهلي، واحتقاري لمقاييسهم. فلا مقياس عندي
سوى مقياس الألم، ولا طمّوح لي سوى أن أدهشك أنتِ، وأن
أبيك أنتِ، لحظة تنتهين من قراءة هذا الكتاب..

فهناك أشياء لم أقلها لك بعد .
اقرأ هذا الكتاب . . وأحرقني ما في خزانتك من كتبٍ لأنصاف
الكتاب، وأنصاف الرجال، وأنصاف العشاق.

من الجرح وحده يولد الأدب . فليذهب إلى الجحيم كل الذين
أحبوك بتعقل، دون أن ينزفوا . . دون أن يفقدوا وزنهم ولا
اتزانهم . .

تصفّحي بشيء من الخجل . . كما تتصفّحن ألبوم مصفرة،
لطفلة كانت أنتِ .

كما تطالعين قاموساً لمفرداتٍ قديمة معرّضة للانقراض والموت .
كما تقرئين منشوراً سرّياً، عثرت عليه يوماً في صندوق بريدك .
افتحي قلبك . . واقرايني .

كنت يوماً أريد أن أحدثك عن سي الطاهر وعن زياد وعن
آخرين . . عن كل ما كنت تجهلين .

ولكن مات حسان . . ولم يعد اليوم وقت للحديث عن
الشهداء . . أصبح كل واحد منا مشروع شهيد .

يجزني ألا أهبك غزاة . «الغزلان لا تكون غزلاً إلا عندما
تكون حية» . ولم يبق لي ما يمكن أن أهديك اليوم .

لقد أخذت مني كل من أحببت، الواحد بعد الآخر، بطريقة أو
بأخرى . وتحول القلب إلى مقبرة جماعية ينام فيها دون ترتيب كل من
أحببت . وكأن قبر (أما) قد اتسع ليضمّهم جميعاً .

ولم أعد أنا سوى شاهد قبر لسي الطاهر . . لزياد وحسان . شاهد
قبر للذاكرة .

كنت أدري الكثير عن حماقة القدر، الكثير عن ظلمه وعن عناده،
عندما يصرّ على ملاحقة أحد.

ولكن أكان يمكن لي أن أتوقّع أن شيئاً كذلك يمكن أن يحدث؟
كنت أعتقد أنني دفعت لهذا القدر الأحق ما فيه الكفاية، وأنه
حان لي بعد هذا العمر، وتلك السنوات التي تلت فجيحة زياد،
وفجيحة زواجك، أن أرتاح أخيراً.
فكيف عاد القدر اليوم ليأخذ مني أخي، أخي الذي لم يكن لموته
من منطق. لا كان في جبهة، ولا كان في ساحة قتال ليموت ميتة
سي الطاهر، وميتة زياد، رمياً بالرصاص.. أيضاً.

* * *

ذات يوم من أكتوبر ٨٨، جاء خبر موته هكذا صاعقة يحملها خط
هاتفني مشوّش، وصوت عتيقة الذي تخنقه الدموع.
ظلت تجهش بالبكاء وتردّد اسمي، وأنا أسألها مفجوعاً:
- «واش صار..؟»

كنت على علم بتلك الأحداث التي هزّت البلاد، والتي كانت
الجرائد ونشرات الأخبار الفرنسية تتسابق بنقلها مصوّرة، مفصّلة،
مطوّلة، باهتمام لا يخلو من الشهامة.

كنت أعرف تفاصيلها، وأدري أنها مازالت وهي في يومها الثاني
مقتصرة على العاصمة. فمن أين لي أن أتوقّع الذي حدث؟
كان صوت عتيقة يردّد مقطّعاً:

- قتلوه.. آ خالده.. يا وخيدي قتلوه..

وصوتي يردّد مذهولاً:

- كيفاش.. كيفاش قتلوه؟

كيف مات حسان؟

هل مهم السؤال، وموته كان أحق كحياته، ساذجاً كأحلامه .
أقرأ كل الجرائد لأفهم كيف مات أخي، بين الحلم والحلم . . بين
الوهم والوهم .
ما الذي ذهب به إلى العاصمة ليقابل «جماعة» هناك، هو الذي لم
يزر العاصمة إلا نادراً .

ذهب هكذا في نهاية أسبوع . . لبحث عن نهايته .
ضاعت به قسنطينة، ولم توصله جسورها الكثيرة إلى شيء .
قالوا له: «في العاصمة ستكون لك «خيوط» . ستوصلك الطرق
القصيرة هناك . . ولن توصلك الجسور هنا!» .
صدق حسان، وذهب إلى العاصمة ليقابل «فلاناً» من قبل «فلان»
آخر . .

وكان مقرراً أن تحل قضية أخيراً هذه المرة، بعد عدة سنوات من
الوساطات والتدخلات، ويغادر نهائياً سلك التعليم، لينتقل إلى
العاصمة ويعين موظفاً في مؤسسة إعلامية .

ولكن القدر هو الذي حسم «ملفه» هذه المرة .
بين «فلان» و«فلان» مات حسان، خطأ برصاصة خاطئة، على
رصيف الحلم .

فالحلم ليس في متناول الجميع أخي . . كان عليك ألا تحلم!
أحقاً «إن الشقاء يعترف كيف يختار صفاته» ولهذا اختارني أنا،
واختار لي كل هذه الفجائع المذهلة، لأنفرد بها وحدي .

أنا الذي لم أكن أحلم سوى بأن أهيك غزالة . .

كيف لي أن أفعل ذلك . . وأنت تهينني كل هذا الدمار . . كل
هذا الخراب؟

ويعود فجأة، حديث قديم بيننا إلى البال.

حديث مرّت عليه اليوم ستّ سنوات. في ذلك الزمن الذي كنت
تجدين فيه شهماً بيني وبين «زوربا». الرجل الذي أحببته الأكثر
حسب تعبيرك، والذي كنتِ تحلمين بكتابة رواية كروايته، أو حبّ
رجل مثله.

ترى لأنك كنت عاجزة عن كتابة رواية كذلك، اكتفيت بتحويللي
إلى نسخة منه، وجعلتني مثله أتعلّم أن أشفى من الأشياء التي أحبّها
بأكلها حتى التقيؤ . .

جعلتني أعشق الخراب الجميل، وأتعلّم كطائر يذبح أن أرقص من
ألمى . .

ها هو ذا الخراب الجميل، الذي حدّثني عنه يوماً بحماسٍ
مدهش لم يثر شكوكي، يوم قلبت:

«مدهش أن يصل الإنسان بفجائعه حدّ الرقص . إنه تميّز في
الحيات والهزائم أيضاً. فليست كلّ الهزائم في متناول الجميع . لا بدّ
أن تكون لك أحلام فوق العادة، وأفراح وطموحات فوق العادة،
لتصل بعواطفك تلك إلى ضدّها بهذه الطريقة . .».

آه سيّدتي لو تدرين!

كم كانت أحلامي كبيرة. وما أفظع هذا الخراب الذي تتسابق
قنوات التلفزيون على نقله اليوم!

ما أفضع هذا الدمار، وما أحزن جثة أخي الملقاة على رصيف،
يخترقها رصاص طائش!

ما أحزن جثته، وهي تنتظري الآن في ثلاجة الموت لأتعرّف عليه،
وأرافقه جثثاً إلى قسطنطينة.

ها هي ذي قسطنطينة مرة أخرى..

تلك الأم الطاغية التي تتربّص بأولادها، والتي أقسمت أن تعيدنا
إليها ولو جثة.

ها هي قد هزمتنا، وأعادتنا إليها معاً. في تلك اللحظة التي
اعتقدنا فيها أننا شفينا منها، وقطعنا معها صلة الرحم.

لا حسان سيغادرها إلى العاصمة.. ولا أنا سأقدر على الهرب منها
بعد اليوم..

ها نحن نعود إليها معاً..

أحدنا في تابوت.. والآخر أشلاء رجل.

وقع حكمك على آيتها الصخرة.. آيتها الأم الصخرة..

فأشرعي مقابر، وانتظريني. سأتيك بأخي.. افسحي له مكاناً
صغيراً جوار أولياتك الصالحين، وشهدائك، وبياتك.. كان حسان
كلّ هذا على طريقته.

كان غزلاً..

في انتظار ذلك.. تعالي سيدي وتفرّجي على كلّ هذا الخراب
الجميل!

فبعد قليل سيحضر زوربا ليمسك بكفّي ولنبدأ الرقص معاً.
تعالي..

لا بدّ ألا تخلفي هذا المشهد، سترين كيف يرقص الأنبياء عندما
يفلسون حقاً.

تعالى.. سأرقص اليوم كما لم أرقص يوماً، كما انتهيت أن أرقص
في عرسك ولم أفعل..

سأقفز وكأنّ جناحين قد التصقا بقدمي فجأة، وكأنّ ذراعي
المفقودة قد نبتت من جديد لتصبح ذراعي.

تعالى.. وليعذرنى أبي الذي لم أشاركه يوماً في طقوس «عيساوة».
في حفل جذبه ورقصه الجنوني، وغرسه ذلك السفود في جسده من
طرف إلى آخر.. بنشوة الألم الذي يجاور اللذة.

للحزن أكثر من طقس، وليس للألم وطن على التحديد. فليعذرنى
الأنبياء والأولياء الصالحون!

ليعذروني جميعاً. لا أدري ماذا يفعل الأنبياء بالتحديد عندما
يجزنون، ماذا يفعلون في زمن الردّة؟

هل سيكون أم يصلّون؟
أنا قرّرت أن أرقص. الرقص تواصل أيضاً. الرقص عبادة
أيضاً..

فانظر أيّها الأعظم.. بذراع واحدة سأرقص لك.
ما أصعب الرقص بذراع واحدة يا ربّي! ما أبشع الرقص بذراع
واحدة يا ربّي! ولكن..

ستعذرنى أنت الذي أخذت ذراعي الأخرى.
ستعذرنى.. أنت الذي أخذتهم جميعاً.
ستعذرنى.. لأنك ستأخذني أيضاً!

هل المؤمن مصاب حقاً؟.. أم ترى تلك مقولة خلقت لتعلّمنا

الصبر فقط، لتبيعنا بدل مصائبنا فرح امتلاك شهادة بالتقوى؟

فليكن . .

شكراً لك أيها الأعظم، أنت الذي لا يُحمد على مكروهه سواه.

أنت الذي لا تخصّ بمصائبك سوى المؤمنين من عبادك . . والأتقياء

منهم .

اعترف أنني لم أكن أحلم بشهادة حسن سلوك كهذه!

أفرغ منك سيدي وأمتلئ لحناً يونانياً.

تتقدّم موسيقى «زوربا» نحوي، دعوة للجنون المتطّرف.

تأتي على شريط تعودت الاستماع إليه بمنعة غامضة. وإذا بذلك

الّلحن القادم اليوم وسط الخراب والجثث، يأخذ فجأة بعده الأوّل

الحقيقي .

فأنتفض فجأة من أريكتي وهو يفاجئني، وأصرخ كما في تلك

القصة «هيا يا زوربا . . درّيني على الرقص . .» .

ها هوذا «الخراب الجميل» الذي جعلتنا نشتهيهِ. لم أكن أعتقد أن

يكون بشعاً إلى هذا الحدّ . . موجعاً إلى هذا الحدّ!

ترحف موسيقى تيودراكيس نحوي. وتخرقني نغمة . . نغمة .

جرحاً . . جرحاً.

بطيئة . . ثمّ سريعة كنوية بكاء .

خجولة . . ثمّ جريئة كلحظة رجاء .

حزينة . . ثمّ نشوى كتقلّبات شاعرٍ أمام كأس .

مرتددة . . ثمّ واثقة كأقدام عسكر .

فأستسلم لها. أرقص كمجنون في غرفة شاسعة، تؤثّنها اللوحات

والجسور.

وأقف أنا وسطها وكأنني أقف على تلك الصخرة الشاهقة، لأرقص
وسط الخراب، بينما جسور قسطنطين الخمسة تتحطم وتتدحرج أمامي
حجارة نحو الوديان.

إيه زوربا!

تزوَّجتُ تلك المرأة التي كنت أحبها، وكانت تحبُّك أنت. وكنت
أريد أن أجعلها نسخة مني، فجعلتني نسخة منك.
ومات زياد. . ذلك الصديق الذي اشترى هذا الشريط لأنه ربّما
كان يحبُّك أيضاً من أجلها، وربّما لأنه كان يتوقَّع لي يوماً كهذا، ويعدّ
لي على طريقته كلّ تفاصيل حزني القادم.

وربّما يكون تلقّاه هديّة منها. . وورثته أنا في جملة ما أورثني من
أحزان.

ومات حسان. . أخي الذي لم يكن يهتم كثيراً بالإغريق، وبالألهة
اليونانية.

كان له إله واحد فقط، وبعض الأسطوانات القديمة.
ومات ولا حبّ له سوى الفرثاني. . وأمّ كلثوم. . وصوت
عبد الباسط عبد الصمد.

ولا حلم له سوى الحصول على جواز سفر للحجّ. . وثلاجة.
لقد تحقّقت نصف أحلامه أخيراً. لقد أهداه الوطن ثلاجة ينتظرني
فيها بهدوء كهادته، لأشيّعه هذه المرّة إلى مثواه الأخير.

لو عرفك، ربّما لم يكن ليموت تلك الميتة الحمقاء.

لو قرأك بتمعّن، لما نظر إلى قاتليه بكلّ الانبهار، لما حلم بمنصب
في العاصمة، بسيارة وبيت أجل. .

لبصق في وجه قاتليه مسبقاً . لشتهم كما لم يشتم أحداً، لرفض
أن يصفحهم في ذلك العرس، لقال :
- «أيها القوادون . . السراقون . . القتلة . لن تسرقوا دمننا أيضاً .
املاوا جيوبكم بما شتم . أثثوا بيوتكم بما شتم . . وحساباتكم بأية
عملة شتم . . سيبقى لنا الدم والذاكرة . بهما سنحاسبكم . . بهما
سنطاردكم . . بهما سنعمّر هذا الوطن . . من جديد» .

آه زوربا . . مات زياد وما هوذا حسان يموت غدرأً أيضاً .
آه لو تدري يا صديقي، لم يكن أحدهما ليستحق الموت .
كان حسان نقياً كزئبق، وطيباً حدّ السذاجة . كان يخاف حتى أن
يجلم، وعندما بدأ يجلم قتلوه .

وكان زياد . . آه كان يشبهك بعض الشيء . لو رأيت ضحكته، لو
سمعته يتحدث . . يكفر . . يلعن . . ييكي . . يسكر . . لو عرفتها،
لرقصت . . حزناً عليهما الليلة كما لم ترقص من قبل .

ولكن لا يهم . . أدري بأنك أنت أيضاً لن تحضر الليلة . ربّما
لأنك متّ، كما في تلك الرواية، بعد أن لعنت الكاهن الذي جاء
ليناولك القريان المقدّس قبل الموت . .

أو ربّما لأنك لم توجد يوماً أبداً على هذه الأرض . لأنك بطل
خرافيّ لزمان كان الناس يبحثون فيه عن خرافة كهذه . عن آلهة
إغريقية جديدة، تعلّمهم الجنون والتحدّي . . وعبثيّة الحياة .
فهل مهمّ أن تتغيّب الليلة، كما تغيّبوا جميعاً؟

لن أعتب عليك يا صديقي . أنت لست مسؤولاً في النهاية عن كلّ
ما يمكن أن يرتكب من حماقات بسبب رواية !

ولكن أجبني فقط.. أنت الذي قتلت من الأتراك، وقتلوا من
رفاقك الكثيرين. هل هناك من فرق بين القتلة؟
على يد الفرنسيين مات سي الطاهر.. وعلى يد الإسرائيليين مات
زياد.. وما هو حُسن يموت على يد الجزائريين اليوم.
فهل هناك درجات في الاستشهاد؟ وماذا لو كان الوطن هو القاتل
والشهيد معاً؟
فكم من مدينة عربية دخلت التاريخ بمذابحها الجماعية، ومازالت
مغلقة على مقابرها السرية!
كم من مدينة عربية أصبح سكّانها شهداء.. قبل أن يصبحوا
مواطنين!
فأين نضع كلّ هؤلاء.. في خانة ضحايا التاريخ، أم في خانة
الشهداء؟

وما اسم الموت عندما يكون بخنجر عربي!

ما كادت كاترين تراني في ذلك الصباح حتّى صاحت:
- إنّ لك وجه رجل يستيقظ من ليلة سكر!
ثمّ أضافت بشيء من السخرية والتلميح الواضح:
- ماذا فعلت أمس أيّها الشقيّ، لتكون في هذه الحالة؟
قلت:

- لا شيء.. ربّما لم أتم فقط!

قالت وهي تلقي نظرة على الصالون، وتبحث بفضول امرأة عن
آثار تدلّها على نوعيّة من قضيت معهم السهرة:

- هل استقبلت أصدقاء أمس؟

ابتسمت لسؤالها، شعرت برغبة في أن أجيبها: نعم.
يحدث للحزن عندما يجاور الجنون، أن يبدأ هكذا في السخرية من
نفسه..

واصلتُ:

- وهل قضوا الليلة هنا؟

قلتُ:

- لا.. رحلوا..

أضفتُ بعد شيء من الصمت:

- أصدقائي يرحلون دائماً!

وربما لم يقنعها كلامي، أو زاد في فضولها فقط. فراحت تواصل
بعينها البحث وسط فوضى الغرفة، والحقيبتين المفتوحتين في الصالون
عن شيء ما.

النساء هكذا دائماً: لا يرين أبعد من أجسادهن، ولذا لم يكن في
إمكان كاترين أن تكتشف آثار زياد وحسان وزوربا.. في ذلك
البيت.

في الحقيقة.. لقد كانت كاترين دائماً تعيش على هامش حزني.
ولذا ربما اقتنعت دون كثير من الكلام أنني أستيقظ من ليلة حب.

سألني وكأنها لا تجد فجأة مبرراً لوجودها عندي في تلك اللحظة:

- لماذا طلبتني على عجل؟

قلتُ:

- لأسباب كثيرة..

ثم أضفتُ فجأة:

- كاترين.. هل تحبين الجسور؟

قالت بنبرة لا تخلو من التعجب:

- لا تقل لي إنك أحضرتني في هذا الصباح لتطرح عليّ هذا

السؤال!

قلت:

- لا.. ولكن أودّ لو أجبتني عليه.

قالت:

- لا أدري.. أنا لم أسأل نفسي سؤالاً كهذا قبل اليوم. لقد

عشت دائماً في مدن لا جسور فيها. ما عدا باريس ربّما..

قلت:

- لا يهّم.. فأنا أفضل في النهاية ألاّ تحيّيها. يكفي أن تحيّي

رسمي..

أجابت:

- طبعاً أحبّ ما ترسمه.. لقد راهنت دائماً على أنك رسّام

استثنائي..

قلت:

- فليكن إذن.. كلّ هذه اللوحات لك.

صاحت:

- أأنت مجنون؟ كيف تهبني كلّ هذه اللوحات؟ إنها مدينتك.. قد

تحنّ إليها يوماً.

قلت:

- لم يعد هناك من ضرورة للحنين بعد اليوم، أنا عائِد إليها.

أهبطها لك، لأنني أدري أنك تقدّر الفنّ، وأنها معك لن تضيع..

قالت كاترين وصوتها يأخذ نبرة جديدة لحزن وفرح غامض:

- سأحتفظ بها جميعاً.. فلم يحدث لرجل أن أهداني يوماً شيئاً كهذا..
قلت وأنا ألقى نظرة أخيرة على جسدها المختبئ دائماً تحت الاثواب الخفيفة الفضفاضة:
- ولم يحدث لامرأة قبلك أن منحتني غربة أشهى..
قالت:
- أخاف أن تندم يوماً وتشتاق إلى إحدى هذه اللوحات.. اعلم أنك ستجدها دائماً عندي.
قلت:
- ربّما سيحدث ذلك.. فنحن في جميع الحالات نندم على شيء ما..

تقاطعتني وكأنّها اكتشفت جدية الموقف:
mais ce n'est pas possible .. لا يمكن أن نفرق هكذا!
- أو كاترين.. دعينا نفرق على جوع. لقد حكم علينا التاريخ ألا نشبع من بعض تماماً.. ولا نحبّ بعضنا تماماً.. لأكثر من سبب. إنك تملكين اليوم أكثر من نسخة مني.. علّقي على جدرانك ذاكرتي، حتّى ولو كانت ذاكرة مضادة.. لقد كنت أيضاً طرفاً فيها!
لا تفهم كاترين لماذا كلّ هذه الرموز اليوم.
ولماذا هذا الحديث الغامض الذي لم أعودها عليه؟
وربّما فهمت، ولكن جسدها كان يرفض أن يفهم. جسدها يخرج عن الموضوع دائماً. جسدها موظف فرنسي يحتجّ دائماً. يطالب دائماً بالمزيد.. يفرط في حرّية التعبير، في حرّية الإضراب.
ولكن..

من أين سأتي بالكلمات التي ستشرح لها حزني؟

من أين سأتى بالصمت الذي سيقول لها دون أن أقول شيئاً، إنَّ
حسَّان هناك في مدينة أخرى، ينتظرنى في ثلاجة، وأنَّ أولاده الستة لم
يعد لهم غيري.

كيف أشرح لها سرَّ قدميَّ الباردتين، والصقيع الذي يزحف
نحوي كلّما تقدّمت بي الساعات، وكلّما راحت يداها تفتحان أزرار
قميصي دون انبثاء. . بحكم العادة.

- كاترين. . ليس لي شهية للحب، اعذريني. .

- وماذا تريد إذن؟

- أريد أن تضحكي كالعادة.

- لماذا أضحك؟

- لأنك عاجزة عن الحزن.

- وأنت؟

- وأنا سأنتظر أن تذهبي لأحزن. حزني مؤجل فقط كالعادة. .

- ولماذا تقول لي هذا اليوم؟

- لأنني متعب. . ولأنني سأرحل بعد ساعات. .

- ولكن لا يمكنك أن تسافر. لقد ألفوا كلّ الرحلات إلى

الجزائر. .

- سأذهب، وانتظر في المطار أوّل طائرة تطلع. لا بدّ أن أسافر

اليوم أو غداً. هناك من ينتظرنى. .

كان يمكن أن أقول لها: «لقد مات أخي. . أخي الوحيد يا

كاترين. .» وأجهش بالبكاء. فقد كنت في حاجة إلى أن أبكي أمام

أحد يومها.

ولكن لم أكن قادراً على ذلك معها. لعلها عقدة قديمة. . . فالخزن
قضية شخصية، قضية تصبح أحياناً وطنية. . .
ولذا احتفظت بجرحي داخلي. وقررت أن أواصل حديثي
كالعادة. لعلني في يومٍ آخر سأخبرها بذلك. ولكن ليس اليوم.
الصمت اليوم أكبر.
شعرت فجأة أنني أسأت للفراشات.
قلت:

- كاترين. . . لقد كانت قصتنا جميلة، أليس كذلك؟ كانت
معقدة بعض الشيء. . . ولكنها جميلة برغم ذلك. لقد كنت المرأة التي
كانت دائماً، على وشك أن تكون حبيبتي. وربما سينجح الفراق في
تحقيق ما عجزت كل سنوات القرب هذه من تحقيقه. . .
- هل ستحبني عندما نفترق؟
- لا أدري. . . من المؤكد أنني سأفتقدك كثيراً. إنه منطق الأشياء.
لقد كان لي معك أكثر من عادة. ولا بد لي بعد اليوم أن أغير
عاداتي. . .

- وهل ستعود؟
- ليس قبل مدة طويلة. . . لا بد أن أتعلم الآن الوجه الآخر
للنسيان. الغربة أم أيضاً ليس سهلاً أن نجتاز الجسر الذي سيفصلنا
عنها. . .

- خالد. . . لماذا تحيط نفسك بكل هذه الجسور؟

- أنا لا أحيط نفسي بها. أنا أحملها داخلي. هناك أناس ولدوا
هكذا على جسر معلق. جاؤوا إلى العالم بين رصيفين وطريقين
وقارتين. ولدوا وسط مجرى الرياح المضادة، وكبروا وهم يحاولون أن

يصالحوا بين الأضداد داخلهم. ربّما كنت من هؤلاء.. في الحقيقة
دعيني أبوح لك بسرّ. اكتشفت أنّي لا أحبّ الجسور. وأكرهها
كراهيتي لكلّ شيء له طرفان، ووجهتان، واحتمالان، وضدان. ولهذا
تركت لك كلّ هذه اللّوحات.

كنت أودّ إحراقها، راودتني هذه الفكرة. ولكن لست في شجاعة
طارق بن زياد. ربّما لأنّ إحراق بحار لبخרתه في معركة حربية، يظلّ
أسهل من إحراق رسّام للوحاته في لحظة جنون..
وبرغم ذلك، أريد أن أحرقها حتّى أقطع على قلبي طريق العودة
إلى الخلف.

لا أريد أن أقضي حياتي، وأنا أسلك هذا الجسر في الاتجاهين.
أريد أن أختار لقلبي مسقطه الأخير..
أريد أن أعود إلى تلك المدينة الجالسة فوق صخرة، وكأنّني أفتحتها
من جديد. كما فتح طارق بن زياد ذلك الجبل، ومنحه اسمه..
.. منذ غادرتها أضعت بوصلتي. قطعت علاقتي بالتاريخ
وبالجغرافية. ووقفت سنوات على نقطة استفهام، خارج خطوط الطول
والعرض.

أين يقع البحر وأين يقف العدو؟ أيّهما أمامي وأيّهما ورائي؟
ولا شيء وراء البحر سوى الوطن.. ولا شيء أمامي سوى زورق
الغربة.. ولا شيء بينهما سواي..
على من أعلن الحرب ولا شيء حولي سوى الحدود الإقليمية
للذاكرة؟

نظرت إليّ كاترين، ولم تفهم شيئاً..

لقد كانت علاقتنا دائماً ضحيّة سوء فهم وقصر نظر. فافترقنا كما

التقينا منذ أكثر من قرن، دون أن نعرف بعضنا حقاً. . دون أن
نحب بعضنا تماماً. . ولكن دائماً بتلك الجاذبية الغامضة نفسها.

وقلت:

«الحب هو ما حدث بيننا. . والأدب هو كل ما لم يحدث».

نعم ولكن..

بين ما حدث وما لم يحدث، حدثت أشياء أخرى، لا علاقة لها
بالحب ولا بالأدب.

فنحن في النتيجة، لا نصنع في الحالتين سوى الكلمات. ووحده
الوطن يصنع الأحداث. ويكتبنا كيفما شاء. . مادامنا حبه.

غادرت الوطن في زمن لخطر التنفس. . وها أنا أعود إليه مذهولاً
في زمن آخر لخطر التجوّل.

أتذكر وأنا أواجه وحدي هذه المرة مطار تلك المدينة الملتحفة
بالحداد كلاماً قاله حسان منذ ست سنوات واستوقفتني كلماته دون
سبب واضح.

قال: «إن قسنطينة فرغت من أهلها الأصليين. لقد أصبحوا لا
يأتونها سوى في الأعراس أو في المآتم».

يذهلني اكتشافي. . ها أنا أصبحت إذن الابن الشرعي لهذه المدينة
التي جاءت بي مكرهاً مرتين.

مرة لأحضر عرسك. . ومرة لأدفن أخي. فما الفرق بين الاثنين؟

لقد مات أخي في الواقع مثلما مات أنا منذ ذلك العرس.

قتلتنا أحلامنا. .

هو لأنه أصيب بعدوى الأحلام الفارغة الكبيرة.

وأنا لأنني غادرت وهمي . . ولبست نهائياً حديد أحلامي .

يسألني جمركي عصبي في عمر الاستقلال لم يستوقفه حزني ولا
استوقفته ذراعي . . فراح يصرخ في وجهي ، بلهجة من أقنعوه أننا
نقترب فقط لنفنى ، وأنا نهرب دائماً شيئاً ما في حقائب غربتنا . .
- بماذا تصرح أنت؟

كان جسدي ينتصب ذاكرة أمامه . . ولكنه لم يقرأني .
يحدث للوطن أن يصبح أمياً .

كان آخرون لحظتها يدخلون من الأبواب الشرفية بحقائب أنيقة
دبلوماسية .

وكانت يدها تبتسان في حقبة زياد المتواضعة ، وتقعان على حزمة
من الأوراق . . فتكاد دمة مكابرة بعيني تحييه لحظتها :
- أصرح بالذاكرة . . يا ابني . .

ولكنني أصمت . . وأجمع مسودات هذا الكتاب المبعثرة في حقبة ،
رؤوس أقلام . . ورؤوس أحلام .

باريس - تموز ١٩٨٨

روايته دوشنیه .
 وأنا نادراً ما أروي
 أحلام رواية عن الروايات .
 وسبب الدعوة
 أن النفس الذي مرأته
 يُشبهني إلى درجة التعلق ،
 فهو صبور ، ومتوتر ،
 واحتجائي ، ومتوكل ، وانساني ،
 وشهواني ..
 والمخرج على قانون قلبي .



ولو أن أحدًا طلب مني أن أوقع إسمي تحت هذه الرواية الاستثنائية
 المختلة بأعوار البشر .. لما ترددت لحظة واحدة ..

هذه كانت أحلام مستغالي في رواية (كلثوبي) دون أن تدري ..
 لقد كانت ضمني تتجسم على الورقة البيضاء ، بجمالية لا حد لها .. وشراسة
 لا حد لها .. وهبوط لا حد له ...

الرواية قهية مكتوبة على كل الجود .. بحرايب ، وبحرايب ،
 وبحرايب لوجية ، وبحرايب الثورة الجزائرية جياطيل ومرزقيط ، وأبطال
 وقاطيل ، وموكتيل وشياطيل ، وأنبيات وسارقيل ..

هذه الرواية لا تنحصر دائرة الجسد لحسبه ، ولكن تنحصر تاريخ
 الوجود الجزائري ، والفرن الجزائري ، والجاهلية الجزائرية التي آن لها أن تنتهي ..

وعندما قلت لهذا العمر سبيل إدريس رأيي في رواية أحلام ،
 كمال لي : لا ترفع صوتك عالياً ... لأن أحلام إلا سمعت كهرملك البديل عطر ،
 فسوف تُجَنِّد ...

أجبت : دعوا تُجَنِّد ... لأن الأعمال الأدبية الكبرى لا يكتب إلا مجانين !!